.. محمد الجيزاوي ..

الطبعة 2

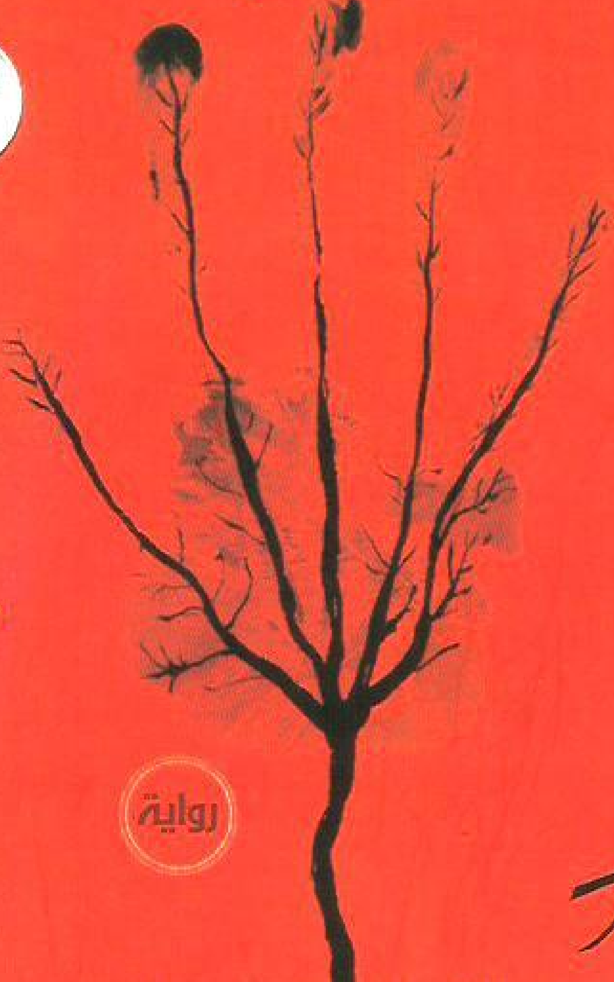

رواية

الخمر ما عادت تسكر أحدًا

الخمــــــرُ.. ماعادَت تسكِرُ أحداً

محمد الجيزاوي

الرواية : الخمرُ ماعادت تسكر أحدًا

المؤلف : محمد الجيزاوي

تصميم الغلاف : مي يسري

مراجعة لغوية : حنان ميلاد

رقم الإيداع: 2015 / 3143

ردمــــــك: 978 _977_6471_ 78 _ 8

الإشراف العام ومدير قسم النشر	مــــدير التــوزيع
فــتحي الـمزين	منال المزين
01282288056	01270982908

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحــبه للمساءلة القانونية، والأراء والـمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

العنوان: 6شارع التحرير بالدقي، بجوار محطة مترو البحوث، الدور 19، شقة رقم2002.

البريدالإلكتروني: layanpub@gmail.coml-layanpub@yahoo.com

الخمــرُ..
ماعادَت تسكِرُ أحدًا

رواية

محمد الجيزاوي

للنشر
والتوزيع

أهديها

إلى الأشجار التي تقف عاريةً أمام الرياح والرمالِ

تقاوم من أجل إيمانها بالحب والحرية والحياة

فالأشجار وحدها لا تشرب الخمور حتى تظل عيونها مفتوحة

تدرك الحقيقة لتبلَغ رسالة الأمل

إلى الأرواح التي لم تولد بعد..

خارج القنّينة

1

2001-6- 13

نهضت من سريرها ممسكةً بعصاها القديمة قابضةً عليها بأصابع انكمشت وتغضن جلدها كاشفاً عن عروقٍ زرقاء كأنما هجرتها الدماء، توكأت عليها حتى حجرته وجلست على سريره ومسحت على شعره الأسود ثم رتّلت: *"كل ابن قتيلٍ قتيل، من أنسَلَتْهُ الدماء غطّته الدماء، كل ذي صوتٍ سكت، وكل خافقٍ توجّع، وكل مبصرٍ تألّم، تباعدت السنوات حتى اقتربت، وغاب القمر حتى اكتمل، وبلغ اليأس مداه فولد الأمل. انهض يا ولد"*

فتح عينيه مرتعباً لمرأى جدته أمامه وهي التي لم تغادر فراشها منذ خمس سنوات وهم يحملون إليها الماء والتمر الذي كانت ترفض أن تذوق سواه، عازفة عن الحياة زاهدة في كل شيء، لا تغادر مرقدها فلم يأتِ موعد البعث من قبرها الاختياري، ولا تغتسل إلا مسحاً بقطعة مبللة بالماء وهي مستلقية على سريرها، خمس سنوات مرت وهي لم تنبس ببنت شفة ولم تنطق كلمة واحدة وعيناها الزرقاوان يشهدان على كل شيء بعدما كفّت عن إطلاق نبوءاتها التي لم يُخيّبها القدر يوماً، شعرها الأبيض كالثلج لا يعرف خصلةً واحدةً من ليلٍ ينسدل مهوّشاً حول عنقها وعيونها مفتوحةٌ كأنها مغلقةٌ لشدة ثباتها. أذهله سماع صوتها ورؤيتها بظهرٍ منتصب وعيونٍ تتحرك ويد تمسّد على رأسه، قام فرِحاً بها يحتضنها ويقبّل رأسها ووجهها ويضمها بقوة:

- حمداً لله على سلامتك يا ست الكل، سأتصل بأمي فوراً، ستطير فرَحاً، سأتصل بكل العائلة!

ضغطت على كتفه بقبضةٍ واهنة لكنها كانت كفيلةً بإلزامه مكانه وهي تنظر إلى وجهه بلا كلمة.

كيف قمتِ يا جدتي؟ ما الذي حدث؟

لم ترد على سؤاله ولكنها كررت تميمتها التي رتلتها على رأسه ثم نهضت وأولته ظهرها وهي تتكئُ على عصاها وتمشي بهدوء نحو حجرتها كميّت قام لإيقاظ الأحياء.. عادت لغرفتها واستلقت على سريرها بعينٍ مفتوحة لا تنظر لشيء وتركته غارقاً في حيرته أمام كلماتها.

- ها قد عدت لأحاجيكِ وكلماتكِ العجيبة يا جدتي! هل قمتِ لتنثري علينا الحيرة مرة أخرى بنبوءات لا نفهمها إلا بعدما تقع؟!

وأخذ يردد بعض كلماتها وهو يسأل نفسه "تباعدت السنوات حتى اقتربت؟! وبلغ اليأس مداه حتى وَلد الأمل؟! كيف يكون تباعد السنوات اقتراباً لها وكيف يلد اليأس الأمل ومن الذي ستغطيه الدماء؟!.. الله يسامحك يا (منيرة) قمتي رميتي الكلمتين وهتسيبيني ألعب لعبة الكلب الحيران مع نفسي!!".

غسل وجهه وخرج إلى غرفة زوجته التي كانت في أيام حملها الأخيرة ليطمئن عليها ويبشرها بقيام جدته منيرة، ثم دلف إلى حاسوبه وفتح صفحة المنتدى المفضل لديه على الأنترنت ودوّن ما قالته جدته

بالحرف، ثم أَتبعَ كلماتها بقوله: "حد فاهم حاجة يا شباب؟"، حصلت مشاركته على تعليقاتٍ معظمها ساخر وبعضها متعجب لكن أحداً لم يقدم لحيرته هدايةً ولا لسؤاله جواباً.

2022-8-10

الموتُ صارمٌ حين يأتي فجأة، يقتل الذكريات حين يضرب العقل فتسقط الروح، الأرواح تتنفس الذكريات فإذا ماتت الذكرى مات كل شيء، لكن الموت على سريره قد غيَّر طريقته فلم يأتِ صارماً بل جاء بطيئاً ليمنح روحه حق استعادة كل الذكريات.. يرى وجهها العجوز وهي تمسح على وجهه وتخبره بالمصير.. تحكي له حكاية الشجرة التي ترفض السقوط فتهاوى عليها كل المناجل لتقطع جذعها الصلب لأنَّ جذورها لازالت ترفض أن تشرب الخمر، الأشجار وحدها لا تشرب الخمور فلا تغيبُ أبداً ذاكرةُ الأغصان وتبقى وفيةً على عهد الجذور القديمة التي سافرت في الأرض البعيدة وظلت يقِظة حين أصاب السكر الجميع فرقصوا عرايا يقودهم الدجال وهم سكارى ووحدها شجرته ظلت باسقة تمضغ الصبر، لتحكي له جدته ملاحم الشجرِ العتيق وتقص عليه الحكاية القديمة وتبثه البشارة الأليمة بأنَّ نسل الدماء لابدَّ أن تغطيه الدماء..

هل مرت عشرون سنةً أم أكثر منذ نهضت العجوز المهيبة؟ هل ستخالف بشارتها ما وعدَت به فتسري الحياة في الجسد الممزق بالرصاص وهل سيعاود الهواءُ الرقص في الصدر المجلل بالحياة أم ستَصدُق البشارة ولا قيام لي أبداً؟ لماذا لا يأتي الموت سريعاً ويريح قلبي من الذكريات التي لا ترحم رجلاً حتى وهو على فراش الموت؟! لماذا لا يأتي أحد ينتشلني؟! أين حبيبتي التي صبرت معي هذه الأعوام الطوال وأنا أمنحها في كل يوم خيانة دون أن أرحم عشقها الفوار؟ أبعدما

عدتُ إليها وبدَت بسمتها التي غابت طويلاً الآن يأتي الموت لينهي الأحلام التي لازالت تحبو؟.. وأنتِ يا (شمس)، أين أنتِ يا شمسي التي لا تغيب؟ هل وجدتِ الراحة عند الغرباء؟ حتى هذه اللحظة ما أزال أجهل معك كل شيء، أكان ما بيننا عشقاً محموماً بصهيل الفرسِ البري الذي يحرث الغابة كل مساء وبعشق اللبؤة الحرون التي تأكل حبيبها شوقاً، أم أنَّ كل ما بيننا كان وهمَ المحرومين من هدأةِ القلب ورضا الروح فاستبدلوهما بفورة الأجساد الصاخبة؟ لماذا لا ينادي أحدهم (أميمة)؟ لأجلكِ غيرت كل شيء فلماذا لم تغفري لي؟ فمن يحب يقدر دائما على الغفران! أنتِ لم تعرفي الحب يا معشوقتي القاسية، ظالمةٌ أنتِ، ولم يُرضِكِ إلا أن أموت عطشاناً.. حتى وهو على فراش الموت يشك في كل شيء، تاهت كل الحقائق، لا يعرف هل أحبته شمس أصلاً أم أنها منذ البداية كانت كاذبة وهل أحبته أميمة أم أنَّ حبها له كان نزوة قلب وانسحبت عند أول ضربة، فإننا لن نعرف أبداً أي الأشياء كان زائفاً وأيها كان صادقاً بيننا وبين من نحب إلا بعدما نفترق للأبد، فالأشياء الوحيدة الصادقة هي تلك التي تبقى بلا تغيّر بعد انتهاء الحرب!

روحه غاضبة تصرخ: كلكم لم يرحمني، كلكم خانني.. العشيق والصديق.. أرى الدخان من بعيد يغادر الجسر المنصوب فوق النهر القديم ويأتي إلى سريري ليواسيني، وحده الدخان لم يخنِّي أبداً ومنحني صِدقه كما منحتُه صدقي.. أسمعُ صيحات الصادقين حول سريري، تُراهم جاؤوا ليسلّموني إلى موتي أم تُراهم أتوا ليمدوني بالحياة؟.. العمر القصير لم يكن قصيراً أبداً، فقد أبصرتُ كل شيء وأدركتُ كل وصايا الشجر الغريب. لن أحزن فأنا مانحُ الثمرات التي

لأجلها نزف الجميع الدماء، لن أموت بالمجان فقد عبرَت الأحلام القديمة من جسدي لتتنفس الحياة، ولم تذهب مواجعي هدراً فسنواتُ التيهِ قد أهدت الثمرةَ وطناً تسكنه بلا خوف.. أنا لا أخشاكَ أيها الموت فأخبروا جدتي أني مستعد للفداء، أنا الذبيح الأخير الذي سيمنح الحياة حق الحياة..

ارتاحت روحه ونامت الذكريات كلها وسكنت المخاوف وغادرت الخيالات فأبصر الجذورَ تنبعثُ من الرقاد وتشير إليه: "لك مكانٌ عندنا فتعال".. فتح عينيه وتبسم وردد: "استغفر الله العظيم" وسافر نحو الجذورِ التي لم تسكَر أبداً.

كأسُ الخِـــداع

[القادر لا يتمكّنُ من خداعنا لأنّه ذكي،

ولكن لأنّنا كنّا على استعدادٍ لأن ننخدع]

في مدرسة (السعيدية) الثانوية وقفت طوابير الطلاب كالبنيان المرصوص ليحيّوا علم "الجمهورية العربية المتحدة" ثم صعدوا إلى صفوفهم.. دخل الأستاذ (نورالدين) معلم الفلسفة بقامته الطويلة وطلعته الوقورة ونظرته الهادئة. وجهه مسحوبٌ قليلاً وقسماته قوية وبارزة تخبر عن رجلٍ مستعد دوماً للمواجهة. عيناه سوداوان واسعتان وله نظرة ثاقبة تحمل الجميع على الحذر إذا تحدثوا إليه، ليس بدافع الخوف إنما بدافع الهيبة والتقدير. صوته هادئ ورزين ونبرته تجبر الجميع على الاستماع إليه.. وقف كالعادة لبضع ثوانٍ صامتاً يشعر جميع الطلاب أنه ينظر لكل واحد منهم في عينيه مباشرة فيسود صمتٌ مطمئن بينهم حتى يلقي عليهم التحية وهم وقوف، ثم يتبِعُها بكلمة "جلوس" فيجلس الجميع.

أمسك بالطبشور ودوّن التاريخ فوق التختة "العاشر من أكتوبر 1958"، وخطّ عنوان الدرس "روسو والدعوة إلى الحرية" ثم التفت إليهم مسنداً ظهره إلى المكتب الصغير ومواجهاً لهم:

هل يمكن أن ندعو إلى الحرية فنكتسبها، أم أنها تنبع من داخلنا لأنها فطرية؟!

لم ينتظر إجابة الطلاب، فهو يلقي عليهم دوماً في بداية الدرس سؤالاً صعباً يسترعي به انتباههم قبل أن يبدأ في شرح وإيصال ما يريد:

"روسو كان يرى أنَّ حياةَ المدنيّة تسلِب الإنسان حريته وتُفقده أخلاقه، وأنَّ حياة البداءة والطبيعة هي ما تناسب الإنسان الحر، فكلما تحضرّت الحياة كلما ساءت أخلاق الأمم وحَكمَهم منطق القطيع، وكلما كانت حياتهم بدائية كانوا أكثر حرية، ولذلك كانت أخلاق أبناء القرية وبدْوِ الصحراء أكثر رقياً من أخلاق أبناء المدينة، من يوافق على هذا الرأي ومن يعترض؟".. صمت الطلاب جميعاً فحدجهم بنظرة صارمة:

- لماذا لا تجيبون؟

تبرع طالبٌ يجلس بالمقعد الأخير بالإجابة:

أنت لم تحدد يا أستاذ من يجيب..

- وهل لا تتكلمون إلا إذا أمركم أحدهم بالكلام؟ من كان له رأي فليرفع يده.

رفع بعض الطلاب أيديهم فأشار إلى الطالب الجالس بالمقعد الأول ليجيب، فقال الطالب:

الأخلاق لا تتحدد بموطن السكن، ولكن بما يتعلمه الإنسان من بيئته.

تبسم نورالدين راضياً عن إجابة تلميذه ثم قال:

لكن حياة المدنيّة مليئةٌ بالقيود والقوانين والمحاذير، حتى تُصبح طريقة حياة يتعلّمها الناس، فينقلون تلك

القيود إلى أبنائهم وتتوارثها الأجيال فتفسد الأخلاق في المجتمع، والعكس من هذا يحدث في المجتمعات البسيطة..

ثم خط عنواناً جانبياً: "الثورة على الحكم الملكي المستبد والحق الإلهي المقدس".

- يرى روسو أنَّ الملوك استبدوا بشعوبهم لأنهم زعموا أنهم مفوَّضون عن الله في حُكم شعوبهم، فإذا اعترض عليهم أحد يكون قد اعترض على إرادة الله!

رفع أحد الطلاب يده وسأل:

هل هذا يحدث من الملوك وحدهم دوناً عن بقية الحكام يا أستاذ؟

فردَّ عليه نورالدين

يمكن أن نعكس السؤال: ألا يمكن أن يستبد الحاكم بشعبه تحت دعوى أنه مفوَّض من الشعب ذاته، وليس من الله؟ وتكون النتيجة ذاتها؟.. روسو أراد أن يثور على فكرة التفويض نفسها ليؤكد أنَّ هناك عَقداً بين الحاكم وأمّته: يطيعونه شريطة حماية حرياتهم، فإذا سلبهم الحرية حَقَّ لهم الثورة عليه.

استفاض في شرح باقي النقاط ثم أنهى الدرس مع جرس الحصة فحيّا طلابه وشكرهم كعادته دون غيره من المعلمين ثم عاد إلى صف الأساتذة.

جلس نورالدين يحتسي قهوته التي اعتاد تناوُلها بعد الحصة الأولى، وعلى المكتب المقابل له كان يجلس (حسين) مدرس اللغة العربية القادم من البحيرة للعمل بالقاهرة، شاب في منتصف العشرينات بدين يميل إلى القصر، عيونه بليدة كعيون الأسماك ولسانه سليط على كل من يلتمس فيه ضَعفاً، ولذلك كان مهذباً دوماً مع نورالدين لعلمه بقوة شخصيته.. نظر إليه حسين ثم قال لامزاً

- إنت تدّي الحصّة وتقضّي باقي اليوم تشرب قهوة وتقرأ، وفي آخر الشهر تقبض قد كدة! الله يسهلكم يا بتوع الفلسفة!

ثم أتبعَ كلامه بضحكةٍ عالية وهو ينظر إلى زملائه منتظراً أن يردوا له ضحكته، ففعلوا لعلمِهم بقربه من مدير المدرسة وأنه عينه عليهم فكانوا يجاملونه دوماً. ثبّت نورالدين عينيه على وجه حسين وردّ عليه:

وهل من المنتظر إني أنضف مراحيض المدرسة في أوقات فراغي؟ ماتشغل نفسك بشيء تاني غير أحوال زملاءك يا أستاذ حسين؟؟

نظر حسين لمن حوله وهو يبتسم كأنه لم يسمع تقريع نورالدين ثم غيَّر الموضوع قائلاً:

- الأستاذ نورالدين كان مكانه والله تدريس اللغة العربية، أنا شخصيا لما يقف قدامي معنى لفظ أو تصور جمالي لجملة برجعله ودايما بلاقي عنده الإجابة! عبقري في اللغة والله بس خسارته في الفلسفة اللي مفيهاش غير كلام وبس..

كان هذا شأن حسين دائماً، يحمل حديثه وجهيْ المديح المنافق والذم الطاعن، ويغلف كليهما بابتسامة تمنع الآخرين من مهاجمته، ولذا اكتفى نورالدين بالصمت ردًّا على ذمّه المغلف بالمديح.

عند انتهاء اليوم الدراسي عاد نورالدين إلى بيته حيث يسكن بحيّ (بولاق أبو العلا) وكالعادة تكون في استقباله أخته (منيرة) ذات الثمانِ عشْرَة سنة.

***

وقف الضباط المتخرجون بعد العرض العسكري في يوم تخرّج الدفعة الجديدة يؤدّون التحية العسكرية وعيونهم صوب العلَم المنتصب خلف الرئيس (جمال عبد الناصر)، الحماس يملأُ قلوبهم والعزيمة تفيضُ من عيونهم وهم ينظرون إلى رئيسهم المحبوب، مشاعرهم مختلطة لا يدرون أيهما أحقُّ بالإجلالِ والتعظيم أكثر: أهو العلَم الذي يرفرف حاملاً شعار الوطن أم ذاك الرجل الواقف تحته منتصباً بقامته الطويلة؟ لكنهم عندما صافحوه وهو يسلِّمهم نوط التخرج أدركوا أنَّ هذه اليد هي اليدُ العليا التي تستحق كل تبجيل وطاعة، وأنه لا فارق بين الرئيس والعلَم، بل إنَّ ذاك الرجل أغلى

عندهم وأعلى، فقبله كانت كل الأعلام راياتٍ للمستعمر وللملوك أبناء محمد علي، ولم تكن يوماً تمثل الأمّة، حتى جاء ناصر فحرر الوطن من قيد الاستعباد فصار لمصر عَلمٌ له وجه ناصر وعيونه المحيطة بكل شيء وصوته الحاني والحازم، وقد كانت مصر قبله زاداً يطعم عابري السبيل فصارت أرضاً تمنح أبناءها وتمنع أعداءها. انتقلت كل العزيمة المتقدة من عينيه إلى قلوبهم لحظة المصافحة فأسرَهم ولم ينفكَّ قيده عن أعناقهم إلى الأبد.

كان (حسام) ضمن من ذهبوا إلى معسكر (أنشاص) بعدما تم توزيعهم على معسكرات الجيش المختلفة، وكان في استقبالهم العقيد (كمال نشأت)، رجل أبيض يميل إلى القِصر قليلاً وتميل بشرته إلى الاحمرار لفرط الحماس عندما يتكلم ويشير دوماً بسبابته نحو من يحدثهم فلا تعرف إن كان يَعِدُهم أو يتوعَدُّهم.

جلس الضباط الجدد أمامه فهنأهم بالتخرج ببسمةٍ واثقة، ثم أخرج سنبلةَ قمح وممحاةً وقفازًا وسيفًا ووضعهم فوق الطاولة التي أمامه، صمَت قليلاً ثم نظر إليهم رافعاً سنبلة القمح وقال: "الجيش لا يزرع الأرض لكنه هو الذي يمنح الطعام، فتبقى كل الأفواه شاكرةً له، إذا شاء أشبعهم وإذا شاء جوَّعهم". ثم أمسك بالممحاة وقال: "هذا هو قلم الجيش، الجيش لا يكتب لكن هو يملك دوماً أن يمحو ما يخطُّه الكُتّاب، ولذا لن تخطَّ أقلامُهم إلا ما يريد ليصبحوا جميعاً قلم (الإرادة)"، ثم نظر للقفاز ولبسه وهو يقول: "لا يدَ للجيش فكل يدٍ يمكن بترها، لكن هو القفاز الذي يحيط بكل الأيادي، اليد التي تزرع واليد التي تصنع واليد التي تكتب واليد التي تمنح، القفاز هو وجه الإرادة المسيطر على كل شيء فلا ترى العيون سواه". ثم نهض واقفاً

وأمسك بالسيف مستقيماً وقال بصوتٍ جليل: "وهذا هو قلبُ الإرادة، وإذا انكسر القلب مات سائر الجسد. الجيش روح الأمّة وإرادتها، ودورنا ليس القتال عنها فحسب، بل ومَنْحها الحياة ورعايتها وإطعامها وقيادتها. لسنا لسان الأمّة بل نحن كلمتها، ولسنا فقط حُماتها بل نحن جوهرها. هذا دوركم فلا تنسَوْا كلماتي هذه أبداً فلن تسمعوها بعدي من أحد"، ثم صاح في نهاية اللقاء: "الله، الوطن، بالأمر" فضجّت القاعة بصوتٍ راعد: "الله، الوطن، بالأمر".

حصل حسام على إجازةٍ لمدة ثلاثة أيام بعد أشهر من التدريبات القاسية والعزلة العسكرية. عاد إلى المنزل ببزته العسكرية يمشي بخطًى واثقة ويصافح الجيران بيدٍ صلبة تسمح بمسافة بينه وبين المهنئين لا تشجعهم على عناقه فيكتفون بمصافحةٍ حارة.

دقَّ الباب فاستقبلَته والدته (فردوس) بزغرودة أيقظت والده من قيلولته، هرع نورالدين نحو أخيه الأصغر يحتضنه بقوة أما منيرة فظلّت جالسة في مكانها فوق الأريكة تنظر إلى السماء عبر النافذة الكبيرة، وعندما اقترب منها حسام ومسح على شعرها وقبّل وجنتها قامت ثم مسحت على بزته العسكرية وقالت له: "*قابيل لابس كفن هابيل!*".

***

جلس (بشير الأعرج) أمام محله في (وكالة البلح) ممسكاً مسبحته ذات التسع وتسعين حبة يسبّح حتى يختم تسابيحه بقول "لا إله إلا الله". بعد انتهاء وِرده الصباحي يشرب فنجان قهوته ثم يقوم بمراجعة الحسابات وتحديد الطلبيّات التي يريد شراءها والأخرى التي

حان موعد إيصالها لورش تفصيل الملابس قبل ازدحام المحل بالزبائن، حيث كان من التجار القلائل الذين لا يزالون يعملون ببيع الأقمشة بينما صارت التجارة الرائجة بالوكالة هي بيع قطع غيار السيارات المستعملة التي راجت سوقها كثيراً بعد وصول عبد الناصر لسدة الحكم بسبب إغلاقه بابَ الاستيراد. فأصبحت القطع القديمة ملاذَ أصحاب السيارات وكذلك العاملين بإصلاحها. وكثيراً ما كان صديقه (إبراهيم) صاحب أكبر محل بيع قطع غيار مستعملة بالوكالة يقول له:

أما كان أَولى بك يا حاج بشير أن تعمل بمهنتنا بدلاً من بيع الأقمشة فتبيع مثلما نبيع وتكسب كما نكسب؟

فيضحك بشير وهو يشير له بِلَيّ الأرجيلة:

يا إبراهيم عندما ينظر الناس إلى الثور الأسود لا يلفت انتباههم إلا الغُرّة البيضاء في ظهره. وأنا غُرّتكم البيضاء يا ثور الوكالة الكبير.

ككل مساء جلس بشير وإبراهيم أمام الوكالة يتحادثان، وانضم إليهما جارهما (علي المنوفي)، شاب في منتصف الثلاثينات وصاحب مطعمٍ صغير بالوكالة. تربطه ببشير صداقةٌ واحترامٌ كبيران رغم فارق العمر بينهما فقد كان بشير يكبُره بحوالي عشرين سنة ولكنه كان يقدّر كفاحه وأخلاقه الحميدة. فجعل منه أحد أصدقائه المقربين في زمنٍ كانت تُحدَّدُ فيه متانة الصداقة برِفعة الأخلاق لا بتقارب الأعمار.. حيّاهما علي ثم توجه إلى بشير بقوله:

حمدالله على سلامة الظابط حسام يا عم بشير.

الله يسلمك يا علي.. مع إني والله ماشبعت منه وأهو انهاردة آخر يوم في أجازته، بكرة راجع للمعسكر.. الله يكون في عون رجالة الجيش بقوا شايلين كل شيء على كتافهم في البلد من الحماية للصناعة وحتى الزراعة..

فتدخل إبراهيم:

ماهو دة اللي مخوفني يا حج بشير!

وإيه اللي يخوف في كدة يا ابراهيم؟!

لما الجيش يمسك كل حاجة يبقى عمر الناس ماهتبقى لهم كلمة، الجيش سيف الناس ومينفعش يبقى الدماغ اللي بتمشيهم، الجيش ناشف وبطشته غشيمة، عشان كدة بعد الثورة مكنش المفروض هو اللي يمسك البلد..

الجيش وطني يا ابراهيم، وخير مصر هييجي على إيده إن شاء الله، بلاش تشاؤم مالبلد قدامك أهي من حسن لأحسن.

فين هو الأحسن يا حج بشير وإحنا كلنا شادّين الحزام؟! بص حواليك! فين تجارتنا؟ إحنا تجار الخردة بنشتري مخلفات الجيش الإنجليزي ونفككها ونبيعها للمصانع والورش، ليه نعتمد على فضلاتهم بدل ماتبقى عندنا

حاجتنا؟ ولاّ تجار البالة، بيشتروا مخلفاتهم إن كان بطاطين ولاّ شنط وهدوم، يعني يا حج حتى بعد ماخرجوا بنتسوّل على فضلاتهم بدل ماتكون صناعتنا وتجارتنا قايمة على صلب بلادنا..

إنتو اللي معندكوش صبر، المصانع الحربية بدأت تشتغل وقريب إن شاء الله هنكون أحسن من الإنجليز، بس الصبر، يا ابراهيم "حمارتك العرجة ولا سؤال اللئيم" لحد ما البلد تصلب طولها وتقوم على حيلها.. يلا ماعلينا هستأذنكم أنا عشان ألحق الغدا مع الأولاد..

كانت هذه عادة بشير حين يدخل في حوارٍ لا يروقه فينهيه بجملةٍ واحدة ويهبّ منصرفاً بلا تردد.. أوصى العمال بالمحل ثم عدّل جلبابه وغطاء رأسه وسار حتى البيت الذي لا يبعد كثيراً عن الوكالة، كان يفكر أثناء الطريق بكلام إبراهيم متأملاً حال ابنه حسام الذي بدا على وجهٍ غير الذي تعوّده منه، فلم يعد ذلك الخجول الوديع بل تبدلت نظرته الوادعة بأخرى حازمة وبدا معتدًّا تعلوه الخيلاء قليل الكلام، ولم يعد كما كان دائم الاهتمام بأخته منيرة التي تحنو عليها الأسرة جميعها، بل على العكس من ذلك، صار يتحاشاها لا سيما بعد لقائهما الأخير، فقد أغضبته عندما قالت له "قابيل لابس كفن هابيل" فردّ عليها بقسوة "بطلي كلامك الغريب دة يا منيرة! كفن يكفنوكي بيه!"

منيرة كانت أصغر أولاد بشير وأحبهم إليه ويتفاءل بها فلا يغادر المنزل إلا بعدما تمنحه قُبلة على خده يردّها بقُبلة في منتصفِ جبينها ثم يعانقها ويقول لها: "يومنا نادي ببركة منيرة إن شاء الله".

لم تكن منيرة يوماً فتاة عادية، ومنذ حملت بها أمها وهي تتعجب من حالها فكثيراً ما أصبحت تزورها أحلامٌ عجيبة.. ذات ليلة استيقظت قبيل الفجر وأيقظت بشير تسأله:

هو مين "محمد بن سيرين "دة يا حج بشير؟

فسألها:

- وإيه اللي عرفك إنتي بابن سيرين يا فردوس؟
- والله لاعرفه ولا سمعت بيه قبل الليلة، بس شفت في المنام إني قاعدة في صحن جامع (السلطان أبو العلا)، والسلطان قام من قبره وحط إيده على بطني وقالي إنتي حبلى بروح محمد بن سيرين.

تعجب بشير من رؤياها وأخبرها أنَّ ابن سيرين هو أكبر مفسر للأحلام في تاريخ الإسلام وصاحب رؤًى مكشوفٌ عنه حجاب الغيب برحمة الله.

حملَت بها أمها حملاً خفيفاً، فكانت تقوم بكل أعمال المنزل حتى يومها الأخير من الحمل، ولم تستدر بطنها كشأن الحبالى بطفل بعد آخر بل كانت كبِكرٍ لم تكبر بطنها إلا بمقدار رمانتين.. لم تبكِ منيرة حين ولادتها ولم تصرخ ككل مولود بل كانت تفتح عينين ثابتتين كأنهما

لإنسان بالغ وليس لوليدٍ أعشى لتبدُّل حال رحم الأم برحمِ الحياة.. كبرت منيرة كأنها لم تكن صغيرة، كبرت كأنها دوماً كبيرة، كانت تأنس في الليل بالوحدة والظلام وترقد على سريرها كل النهار لا تغادره ولا تختلط بالأطفال الذين في مثل عمرها، حتى خاف عليها أبوها وذهب بها إلى (الشيخ عثمان) إمام مسجد السلطان أبو العلا يستشيره في أمرِها، تلى الشيخ على رأسها آياتٍ من الكتاب ثم أجفل منها وعلته رعدة وحوقل واسترجع، ثم قال لأبيها:

احفظها يا بشير واحفظ نفسك منها، فابنتك هذه عجيبة، والله ما وضعت يدي على رأسها حتى شعرتُ بصهيل الدماء في عروقي، ابنتك إما مبارَكة ببركة الله أو فتنة لا يكشفها إلا ربها.

اضطرب بشير لسماعه هذه الكلمات عن طفلةٍ لم تجاوز العاشرة فقال:

- أي كلام هذا يا شيخ عثمان؟ إنها طفلة لم تَجْنِ من دنياها أمراً فكيف تكون فتنة؟

فرد عليه الشيخ عثمان بحزم:

- قلت مبارَكة أو فتنة! وربها أعلم بها.

ظلت منيرة على حالها الصموت وعزوفها الزاهد عن المخالطة والانصهار حتى أتاها في نومها ما بدَّل حالها إلى الأبد، حين رأت في حلمها الشيخ الذي علَّم موسى النبي المذكور في القرآن وقد جاءها

حاملاً عباءته وعصاه فألبسها العباءة وناولها العصا ثم قال لها: "*أنتِ نور الحق، ترين حقيقةَ النورِ في المظلم وتدركين جوهر العتمة في الضوء الكذوب، من أشرتِ له بالعصا أنه هالك فهو من الهالكين ولو تدثر بستار الكعبة، ومن أشرتِ له أنه من الناجين فقد فاز ولو تعرى بين الخَطَأة وتلوثَت يده بقبائح الأولين والآخرين*" استيقظت فإذا بها وقد أصابها ما يصيب النساء فبلغت المحيض، نهضت من سريرها وفتحت باب غرفة أبويها بغير طرق ولا استئذان ففزِعَا لهيئتها وقد تلوث قميصها الصغير بدماء فاضت من نبعها، وقفت أمامهما وغمست يديها بين فخذيها وأشارت لهما بأصابع اصطبغت بروح حواء بدم الفطرة والحياة، وقالت: "*يا أبتِ الطيب سيهلكك صمتك، ولن ينفعكَ علِمك بعدما ينكشف الغطاء، فالفتنة حين تُولّي يدركها الذكي والبليد، وأنت لن تنتفعَ بكل الإشارات التي تأتيك، وكما لا تنفعُ التائب توبته بعدما تخرج الشمس من حيث الغروب فكذا لن تنفعكَ معرفة الحق بعدما يقتله الباطل.*" ثم عادت إلى غرفتها تاركةً أباها مذهولاً تكاد الحيرة أن تقتله فكيف تنطق طفلة بمثل هذا الكلام البليغ وهي التي لم تتكلم منذ مولدها إلا لِماماً ولو شاء أن يحصي المرات التي تكلمت فيها لأحصاها بغير جهد.. من يومها وبشير يبتهل إلى الله في كل صلاة أن يريه الحقَّ حقًّا والباطلَ باطلاً وصار يسترشد بابنته في كل خطوة يخطوها فقد أصبحت حبه ووجعه وبشارته التي يخشاها أبدًا!

***

اجتمعت الأسرة لتناول الغداء، جلس بشير على رأس "الطبلية" وعلى يمينه زوجته فردوس وبجوارها منيرة وعلى حجرها (صالح) ابن نورالدين ذو الأربع سنوات، وعلى الناحية الأخرى جلس نورالدين

وبجواره حسام. ابتدأ الوالد الحنون بقوله "باسم الله يا أولاد" وقام بتقسيم "الإوزة" التي ذبحتها فردوس احتفاءً بحسام فناول كلًّا منهم نصيبه واستوصى بحسام، بينما انشغلت منيرة بإطعام صالح الذي كانت ترعاه كأمه بعد وفاة والدته التي ماتت أثناء ولادته فكانت صدمة نورالدين التي لم يبرأ منها أبداً. فقد كانت عشقه القديم، أحبها منذ طفولتهما لكن القدر لم يُمهلهما الكثير لتحقيق أحلامهما، ورغم أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا أنه ظل بعدها بغير زواج.. كان صالح سبباً لارتباط منيرة بالحياة، تقضي معه كل اليوم حتى يعود والده من العمل، ولا تكاد تتركه له حتى تستعيده لحضنها، فكان سلواناً لها في غربتها الذاتية وقرة عينٍ لجده الذي يغادر حانوته كثيراً في وسط النهار ليعود إلى حفيده يستلبه من عمته ليداعبه ثم يردّ إليها أمانتها.

بعدما فرغت الأسرة من الغداء جلسوا كعادتهم يتناولون الشاي ويتبادلون الحديث، سأل بشير حسام:

- إنت هتقعد في أنشاص كتير يا حسام ولا هتتنقل لمكان تاني؟

- منعرفش والله حاجة يا بابا، بس مش متوقع إنه يتم نقلي قريب أصل سلاح المدفعية من الأسلحة اللي مفيهاش تنقيل كتير.

ربنا يوفقكم يابني، شدوا حيلكم البلد كلها أمانة في رقبتكم..

كان نورالدين يتقلب في جلسته غير مستريح لكلامِ والده الذي يرى في قادة الجيش إرادةَ الله ورحمته بهذا الشعب، فقد كان نورالدين غاضباً منذ أن قام مجلس الثورة بعزل (محمد نجيب) أول رئيسٍ لمصر بعدما أزاحوا (الملك فاروق) آخر ملوك مصر عن عرشه. انتهَوْا من نجيب لوقوفه حائلاً أمام أحلامهم اللامحدودة، فقد كان يدعو إلى عودة الحياة الدستورية والحزبية وتسليم الحُكم للمدنيين وعودة الجيش إلى ثكناته بينما كان مجلس الثورة لا يرضيه غير العرش، فمن أسقط الملك صار الملك!.. تظاهر نورالدين مع من تظاهروا عند محاولة عزل نجيب الأولى حتى تمت إعادته للحكم، لكن كملِك يملك ولا يحكم، كأسد بلا أنياب ولا مخالب، وصار كل شيء بيد مجَلس الثورة، وعندما تم عزله مرة ثانية ولم تخرج الأمّة أصاب نورالدين الإحباط وشعر بخيانةٍ عظمى من الإخوان المسلمين، لظنه أنهم قد عقدوا صفقة مع مجلس الثورة للتخلص من نجيب، وأنهم قد باعوه مقابل تأسيس حزبٍ لهم تكون له الصدارة وحق وراثة حزب الوفد المجمّد شريطَةَ أن يحجبوا الجماهير عن التظاهر، وكلما كان نورالدين يعلن عن مواقفه تلك داخل الأسرة كان أبوه يغضب أشد الغضب محذراً إياه من كلمات عمياء ستقضي على حياة أخيه العسكرية، بل ولن تسلم الأسرة كلها من الأذى، فكان نورالدين يقول له:

- خوفك دة يا حج دليل على إني محق في كلامي عشان لو كانوا فعلا خايفين على البلد مكانتش الناس تخاف إنها تقول رأيها حتى لو كان غلط.

فيرد عليه أبوه بإيمانٍ عميق وجنانٍ مُطمَئن:

- يابني لما القطيع يتفرق تاكله الديابة، وعصاية الراعي القاسية هي الضمان لسلامة الكل! الولاد لما يكبروا يلزمهم التأديب مع الرعاية وإلا ينفلت عقالهم وتاكلهم الديابة، ولولا الحزم كان يهلك الصالح قبل الطالح! إيه اللي إنت عايزه من الجيش بعد ماحرروا البلد من الإستعمار وحُكم الملوك وحواليهم مؤامرات في كل مكان؟ الجيش لو مكنش له مخلب يقطع وناب ينهش هتاكلنا كل ضباع الأرض!

هو المفروض مخلبه ونابه دول يكونوا على ولاد البلد ولا على أعداءها يا حج؟!

يابني لما الضباب ينزل مبنعرفش العدو من الحبيب، استنى لحد الشمس ماتطلع وساعتها هتعرف إن اللي بتكرهّم دول همّة حماة البلد الحقيقيين والخير هييجي على إيديهم، دة كفاية إنهم شالوا روحهم على إيدهم عشان خاطرنا..

كان صوت بشير الحنون ونبرته المخلصة تجعل نورالدين يشفق عليه فيهزّ رأسه إيجابَ المستسلم لا المقتنع، ولذا لم يتدخل في الحوار بين أبيه وأخيه واكتفى بمداعبة صالح كأنَّ الكلام لا يعنيه حتى لا تستفزه نظرة حسام المترصد لمواقفه الرافضة لحكم الجيش.

انتهوا من تناول الشاي فقامت فردوس للمطبخ لغسل الأواني وعادت منيرة لحجرتها برفقة صالح، وقام بشير إلى غرفته لينال قسطاً

من النوم قبل العودة لحانوته مرة أخرى فيما انكب نورالدين على قراءة ديوان صديقه (حكيم) الذي أهداه إياه ليبدي رأيه فيه. أما حسام فارتدى ملابسه وتعطر استعداداً للخروج لزيارة بعض أصدقائه قبل السفر للمعسكر، وكانت قبلته إلى (الأزبكية) حيث منزل جارتهم القديمة (شريفة)، التي قد تزوجت من أحد "تجار البلح" والذي يكبرها بخمسٍ وعشرينَ سنة.

كانت شريفة في العشرينات من عمرها، ممتلئة قليلاً، تميل بشرتها إلى اللون الخمري، ذات عيون نجلاء فاحمة السواد وشفاه مكتنزه حمراء بغير أصباغ، وذات دلال وتغنج لم يَخفَيا لا قبل الزواج ولا بعده، لكنها لم تتردد كثيراً في الموافقة على الزواج رغم فارق السن فقد بلغت الثالثة والعشرين وكان ذلك كفيلا في ذاك الزمان بقبول أي فتاة لأول طارق، فالزواج من شيخ معتدل أرحم دوماً من غصة العنوسة التي تسم الأسرة كلها وتزرع فأل السوء على كل بنات العائلة بالبوار. قبل زواجها كانت شريفة تسكن مع والديها بشارع (الشيخ علي)، يملؤُها العُجب بجسدها الصارخ وأنوثتها المستغيثة بيد تشبعها، وقد لمح حسام بها هذا عندما كان طالباً بالثانوية، يراها في أيام إجازته وقد استدارت واستوت على سوقها فيغمرها بكلمات الغزل الخفي فتتصنع الخجل الذي تُكذّبه نظرتها الممتنة لكلماته التي تمسح على رأس أنوثتها، تلك النظرة التي تعري شبقها إلى رجل، فلم تردّ حسام الذي زارها ذات يوم في شقتهم وكانت أمها قد ذهبت لإيصال والدها للمشفى العام وأختها الصغيرة نائمة، لم تندهش لزيارته الغريبة وكأنهما على موعد لكنها اصطنعت الحيرة أمامه وهي تسأله ماذا يريد، وعندما أجابها أنه يبغي محادثتها لفرط إعجابه بها صعدت صدرها كأنها

عفيفة صدَمتها كلمات الفسوق، لكن نظرة عيونها أبلغت حسام أن يدخل ولا يتردد، فدخل. قالت له:

- لن نمكث كثيراً فلن يغيب والدايَ أكثر من ساعة.

فأجابها:

- تكفي وزيادة..

اتجهَت إلى النافذة المطلة على الجيران لتغلقها حتى لا يشهد جريمتها أحد فقام حسام وراءها ووقف خلفها فانكمشت عندما أحست بأنفاسه على أذنها وحرارة جسده تكاد تلامسها، قال لها: "ريحة جسمك حلوة يا شريفة" فمالت برأسها نحو كتفها الأيمن فأدرك أنها جائعةٌ هي الأخرى، وأنها قلعةٌ غير حصينه مستعدة للسقوط بغير شروط، لف خصرها وضمها بقوة إلى صدره ثم سحبها إلى الغرفة الأقرب بلا تردد وجلسَا على سرير والديها وهو يحرك يده على ظهرها: "إنتي عارفة يا شريفة من يوم ماشفتك وانا بقول لولا إني عارف عيلتك كنت افتكرتك من منطقة تانية عشان لبسك دايما عامل زي ولاد الذوات"، ردّت بغنج: "أنا أحسن منهم" فقبّلها على خدها وهو يقول: "إنتي أحسن وأطعم" وتسلل من تحت قميصها إلى بطنها يتحسس أرضها الناعمة ويعتصر شهوة نهدها المنتفخ كصدر امرأة شبعت من الأيادي، ثم كشف عنها الغطاء فظهَر جسدُها ككائنٍ لم يكن يتخيل وجوده فطاش عقله، انهال عليها تقبيلًا ولعقاً ونهشاً حتى ارتخت مفاصلها وسقطت شجرتها فوق السرير وتدلّت، ففكَّ سروالها بعدما خلع ملابسه في نوبة ضمٍ طالت حتى تصلّبت كل جوارحه وهو جالس بين رجليها فقالت له "حاذر فأنا بِكرٌ لم أزل!" فتراخى عن غزوته

وعاد لتقبيلها ممسكاً شفتها يعضها ويقضمها قضْمَ الكلب الذي طال جوعه فنهش أول فريسة بغير تذوق لدمها ولا تعرُّف على طعم لحمها إنما يأكلها ليسد الجوع لا ليعرف لذة الطعام، سحَق جسدها صاعداً بشهوته إلى ذروتها حتى أفرغ حمولته فارتخى توحش روحه ثم احتضنها وأخذ يمسح عليها وهي عارية بين ذراعيه حتى غفا جفنها لفرط راحتها ونشوتها وغاصت في نومٍ هانئٍ على سرير شهوتها وصدره. استل حسام ذراعه من تحت رأسها وهي نائمة وارتدى ملابسه وغادر المنزل وقد عرف وقت زيارة والديها الأسبوعية للمستشفى فصار هو ذاته موعد زيارته لابنتهم المصون.

عندما زارها للمرة الثانية تقدم ليعانقها ويقبلها فأشاحت عنه وهي تقول له: "لستُ فتاةً التقطتها من الشارع لتغادرني نائمة وترحل" اعتذر منها بأنه خاف من عودة والديها وأنه لم يشأ إزعاج نومها فقبلت عذره وضمته وهي تضع رأسها على صدره وأعادا كرتهما.

ظل حسام على زيارته لها كلما سنحت له الفرصة حتى أخبرته شريفة بخطبتها من تاجر البلح ولم تكن تنتظر منه شيئاً فهي تعلم أنه لا يحبها كما أنها لا تحبه إنما يربطهما حبل الاشتهاء وسهولة الملتقى، بارك لها دون أن يسألها عن التفاصيل ثم اجتاحها اجتياح مودِّعٍ لجسدها. لكن القدر كان يخبِّئُ لهما لقاءات أخرى، إذ قابلها مصادَفة بعدما تزوجت وقد جاءت إلى محل والده في وكالة البلح، لم يتمكن من مكالمتها على انفراد لكنه عرف مكان بيت زوجها والعيون التي تلاقت بعد فراق قالت أنَّ ثمة لقاء سيأتي لا محالة. ولن يكون هنالك بوابات محظورة إلى القلعة الملتهبة فقد صارت زوجة ! حتى جاءت في زيارة أخرى صادفت أول أيام إجازته وكان متواجداً وحده بالمحل، فاتفقا

على اللقاء في آخر يوم من الإجازة إذ أنَّ زوجها سيكون غائباً عندها، فهو يسافر كعادته إلى صعيد مصر لعدة أيام يعود بعدها على ظهرِ المراكب التي تُقِل حمولته من البلح ليبيعها لتجار (الساحل) حيث انتقلت تجارة البلح من وكالة البلح التي سُمّيَت باسمه إلى الساحل بعدما زاحمَتها تجارة الخردة والملابس.

وصل حسام إلى بيت شريفة بالأزبكية فاستقبلته بضمة شوق تخبر أنَّ زوجها تاجر التمر نخلته معوجَّة وسيفه كالعرجون القديم لا يُشبع ولا يُغني من جوع، فأطعمها حسام حتى شبعت، وسقاها حتى ارتوت.

***

نورالدين كان أكثر المعلمين تأثيراً في الطلاب لقربه منهم وحبهم له، لم يكن يُدرِّس الفلسفة كمنهج دراسي لطلبة الثانوية العامة بل كطريقة حياة، يناقش طلابه كأنهم في ندوة أدبية فيتجاوبون معه ويحرصون على البحث في بطون الكتب لمواكبة معلمهم ويتسابقون إلى تحصيل الآراء الفلسفية من خارج المنهج حول الموضوعات المقررة، بينما ينفرون من الأستاذ حسين مدرس اللغة العربية لطريقته الغليظة وقسوته معهم بسبب وبغير سبب، لكن لم يكن الطلاب في ذلك الوقت يعرفون التذمر على الأساتذة أو إساءة الأدب في حضرتهم مهما قسوا عليهم، بل التبجيل والاحترام كانا هما سمة الدارسين دوماً نحو معلميهم..

كان حسين يستمد مكانته بين زملائه لا لقربه من المدير [illegible] بل لأن الجميع يعرف قصته مع الأستاذ (خليل الدسوقي)

الذي كان يرأس قسم اللغة العربية عندما تذمّر على حسين مرة بعد مرة لملاحظته أخطاءه المتكررة في شرح قواعد النحو لطلابه، فقرر حسين أن يتخلص منه ويقتنص كرسيه ومكانه، وكانت الطريقة يسيرة بعدما انتشرت الوشاية في طول مصر وعرضها إثر صدور قوانين التطهير بعد ثورة "1952"، كان كل مرؤوس لا يرتاح لرئيسه لا يحتاج إلا لكتابة ورقة صغيرة يخبر فيها وُلاة الأمر الجدد أن ولاءه لمجلس الثورة مشكوك فيه، فتنتهي القضية حينها بجرة قلم ويختفي المشكوُّ فيه ويتصدر الشاكي سُدَّة الأمر!.. كتب حسين وشايته التي أكد فيها أنَّ الأستاذ خليل الدسوقي يرفع من شأن العهد الملكي وهو يشرح لتلامذته أشعار "البارودي" و"شوقي"، وزاد عليها بحسٍ وطني زائف أنه يخشى أن تثير كلماته تلك حفيظة الطلاب نحو مجلس الثورة، فكانت الورقة كفيلة بإقالة الأستاذ خليل وإحالته للتحقيق الذي لم يرَه أحد بعده، ومن وقتها والجميع يخطب ودَّ حسين، فكثيراً ما يحجب الخوف مكارم الرجال وعندما يعتاد المرء الخوف تصبح الشجاعة عنده أمراً يدعو للخزي ويطعن في الشرف!

اتفق نورالدين مع زميله (أحمد عزمي) مدرس التاريخ على الالتقاء مساءً كعادتهم بالمقهى، فقد كانت تربطهما صداقة وثيقة داخل المدرسة وخارجها، وكثيراً ما كان أحمد يزور نورالدين في بيته أيامَ الجمعة والأعياد حتى أنَّ فردوس تعتبره بمثابة أحد أفراد الأسرة، كما كانت تجمعُهما دوماً سهرة الخميس على (مقهى السلامة) بالأزبكية، وينضّم إليهما حكيم الذي يلقبونه بـ "شاعر المرحلة" تقديراً مرة وسخرية مرات، ومعهم (أنس رشدي) نجل (رشدي حسن) أحد الضباط المقربين من قيادات مجلس الثورة، و(مينا قلته) نجل

إبراهيم قلته تاجر الخردة وصديق بشير الأعرج والد نورالدين، وكان لقاء الخميس لقاءً مقدساً لا يتخلفون عنه أبداً..

طلب أحمد من نورالدين أن يحضر مبكّراً لأنه يريده في أمر خاص يود مفاتحته فيه قبل مجيء بقية الأصدقاء..

وصل أحمد مبكِّراً نصف ساعة عن موعد لقائهم الذي يكون دومًا عقب صلاة العشاء فوجد نورالدين بانتظاره. طلب أحمد قهوته وطلب نورالدين شاياً ثم ابتدر أحمد بالكلام:

خيراً يا بطل ما الأمر الخطير الذي طلبت أن نعقد له لقاءنا بشكل سريّ؟

ثم ضحك وهو يضغط على كتف أحمد فغض الأخير طرفه وأخذ يحرث الأرض بقدمه وقال دونما تلعثم رغم تهدج صوته:

- أريد أن أصاهرك يا نورالدين، ويشرفني أن أتقدم لخطبة أختك منيرة.

اضطرب نورالدين لطلبه:

- لو كنت غريباً عنا يا أحمد لالتمست لك العذر، لكن أنت كفردٍ من أسرتنا وتعرف أنَّ منيرة لها ظروفها الخاصة، فهي نادرة الكلام ومنعزلة دوماً حتى عن أسرتها، ولا أحسبها تصلح لأمور الزواج وتبعاته، وأظن أنك تعرف هذا.

- نعم، لكنها سوية وليس لديها خلل يعيب عقلها، وربما سكوتها عائد لأنها فتاة وحيدة بين أخوين من الذكور أو لا أدري.. لعل الزواج يغيّر من طبعها.. لا أعرف ماذا أقول لك لكنني يا نورالدين أحمل لها شعوراً، وأرجو أن تسامح قولي هذا ولا تعتبره تعديًا مني في القول أو إساءة لصداقتنا..

هزّ نورالدين رأسه:

- لا عليك يا أحمد، أنا أتفهم ما تقوله ولا يزعجني، فثقتي بك مطلقة. لا أعرف بماذا أرد لكن على أية حال دعني أفاتح والديّ في الأمر ولعل الله أن يقدّر خيراً.

بدأ الأصدقاء يتوافدون وكان حكيم أولهم وصولاً، عندما رأى بقايا القهوة والشاي عرف أنهما وصلا قبل مدة طويلة فعضّ شفته ووقف ناشراً ذراعيه كأنه فوق مسرح وارتجل بيت شعر:

"خانك الرفاق يا قلب على مقهى السلامة

فتباً لأحمدَ تعساً لنورٍ صديقَا التعاسة رفيقَا الندامة."

ضجَّ الثلاثة ضحكاً وأكملوا ليلتهم بعد انضمام مينا وأنس يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث كعهدهم حول الأدب والسياسة ومغامرات أنس وطرائف حكيم.

***

طرق نورالدين الباب برفقٍ على والديه اللَّذان دخلا ليستريحَا بعد غداء يوم الجمعة، فأذِن له والده بالدخول. تنحنح نورالدين قليلا ثم قال:

- أريد أن أطرح عليك يا أبي أمراً لا أستطيع أن أحدد فيه رأيي.

اعتدل والده من نومته:

خيراً يا نورالدين؟

أحمد صديقي طلب مني يد منيرة، ولست أعرف ماذا أقول له.. طبعاً أنا أعرف ظروف منيرة. لكن لم يكن ممكناً أن أعطي رداً نهائيا قبل العودة إليكما.

تغير وجه بشير وتسللت بسمة لوجه فردوس حاولت إخفاءها ولم تنجح..

أيّ كلام هذا يا نورالدين؟! منيرة ربها يعلم بها ولها معه أحوال، ولا أحسبها تصلح لما تصلح له النساء، أغريبٌ أنت عن أختك يا نورالدين لأخبرك أمرها؟!

الحقيقة يا والدي أنا أعرف هذا. ووضحت له هذا الأمر، ولكنه قال بأنه ليس هناك ما يعيبها، وإن كان الأمر راجعاً لطول صمتها فلعلّ أمرها يتغير بالزواج. وبيني وبين نفسي قلت ولم لا، ربما!

- منيرة مبروكة من الله ولا تتكلم إلا ببركته فدعوها لما أراده لها ربها.

تدخلت فردوس:

وهو إيه اللي ينقص البنت يا حج بشير؟ همّة اللي اتجوزوا أحسن منها؟ إن كان على الأخلاق فإنت مربيها أحسن تربية دة حتى البنت عمرها ماشافت الشارع بعينها غير وانا معاها. يبقى ليه متتجوزش؟ وإن كان على الجمال فمفيش بنت أحلى منها لا في العيلة ولا في المنطقة كلها والكل بيشهدلها. متوقفش في طريقها يا حج! هي اللي ربها باركها يتكتب عليها تعنس؟ دي بركة ربنا فرح مش تعاسة وهمّ يا ناس! وأحمد زي ابننا وعارف ظروفها واحنا مش هنغشه والبنت زي الفل والحمدلله!

لم يلتفت بشير لكلمات زوجته وقام مغاضباً:

منيرة ليست ثقيلةً على أحد حتى تريدون خروجها من بيت أبيها! عندما أموت تحكموا فيها لكن مادمتُ حياً على وجه الأرض فلن يحملها أحد على ما تكره ولن تغادر بيت أبيها.

أشفق نورالدين على والده فهو يعلم مدى تعلقه بمنيرة فقد كانت الأقرب دوماً والأحب لقلبه. وأراد أن يُراضي كُلاً من والده المتمسك

بابنته وأمه التي تريد أن تفرح بها وبزواجها حتى لا تشعر أنها مَعيبة بين مثيلاتها فاقترح أن يأخذوا رأيها في الأمر..

- أنا لن أفاتحها في مثل هذا أبداً.. فلتفاتحها أمها التي تريد أن تتخلص منها!

بكت فردوس وردَّت:

الله يسامحك يا حج بشير، أنا أخلص من منيرة؟! دي نور عيني وفرحة قلبي وأفديها بروحي!

فتدخّل نورالدين:

اسمح لي يا أبي، أنا من سيفاتحها في الأمر.

دخل نورالدين على أخته وهي تلاعب صغيره صالح فحمله منها وسألها ببسمة حنونة:

أتحبينه يا منيرة؟

- أحبه، فهو ابن الكريم، وسأحمله وأحرسه من بعدك لكني لن أردَّ عنه قَدَره، سيصيبه ما يصيبك، ثم أحمِلُ ولده من بعده حتى يكبر ويحملني هو، ثم يناله ما نال أباه، وبعده سأحملُ الغَرس الأخير، غرس الحياة الذي سيأتي بالفرح من بعد الأحزان.

ضحك نورالدين مِلء قلبه:

- ما أكثر بشاراتكِ يا منيرة وما أعجبها! من أين يأتيكِ كل هذا يا بنت؟

صمتت وأضاءت عيونها بدمعةٍ لم تغادر مقلتها أبداً. فقد كانت المرأة التي لا تبكي عيونها بينما تسيل روحها مدامعَ ألمٍ وحنان.

- ألا ترغبين أن تصبحي أمًّا يا منيرة، ويكون لك ولد كصالح؟

أنا أمك يا نورالدين، وسأحمل كل أولادك من بعدك في رحم قلبي.

لكني أريدكِ أن تتزوجي.. أحمد صديقي يريدكِ زوجة له فما رأيكِ؟

ثم راقب ردة فعلها بعد أن ألقى بمفاجأته التي كان يظنها مفاجِئة، لكن لم يهتزَّ لها جفن، كأنه قد أخبرها بأمرٍ هي من أخبرته به أولاً:

لا لن أتزوجه، ولن أتزوج غيره.. صاحبك سيصحبك أنت حتى النهاية، وا وجع قلبي عليك وعليه!.. بَلِّغه أني أراه بعين قلبي وأنه لن يحملني إلى بيته أبداً، لكنه هو من سيحملني إلى بيتك أنت!

مسح على شعرها بحب أخٍ شفوق، فقد كان كأبيه ليس فقط في حبه لها، ولكن في الإيمان بها والثقة في صدق رؤاها التي ربما لا يفقه أغلبها لكن قلبه مملوء باليقين بأنَّ أخته لا تتحدث إلا بنور الله وأنها ترى ما

لا يرون وتعلم ما لا يعلمون.. ابتسمَ لها ولم ينطق بكلمة ثم غادر الغرفة وقال لأبيه:

أنت على حق يا أبي، لتبقَ منيرة بيننا فهي منذورة لأمرٍ لا نعلمه.

تبسم والده ودمعت فردوس وهي تدعو لها: "الأمر لله.. ربنا يسعدها ويرعاها"

***

جلس بشير أمام حانوته ساهماً وقد بردت قهوته دون أن يهتز قوامها برشفة. يدخن الأرجيلة بشراهة وعيونه مفتوحةٌ على اللاشيء، حتى أنه لم ينتبه لقدوم صديقه إبراهيم قلتة الذي حرك يده أمام وجهه ليوقظه من شروده:

- هيه! اللي واخد عقلك يا حج؟

أقعد يا ابرهيم جيت في وقتك.

خير يا حج شكلك مش مريحني؟ روّق وصلي على رسول الله..

ضحك بشير:

عليه أفضل الصلاة والسلام ياأبونا.

- أيوة كدة اضحك ربك كريم..

عاوزين يجوزوا منيرة يا ابراهيم! كأن أبوها مش هيقدر يصرف عليها.

- وهو إحنا بنجوز بناتنا عشان مش قادرين نأكّلهم يا حج بشير؟! الجواز سُترة للبنت وسنّة الحياة.

يا ابراهيم متتكلمش زي أمها.. كلكم عارفين إن منيرة لها ظروفها اللي ما يعلمها إلا ربها.

لكن البنت مايعبهاش حاجة يا حج بشير، يبقى إيه اللي مخوفك؟! إنت عارف إني بعتبر ولادك كلهم زي ولادي وأكتر واتمنالهم الخير، مايمكن الجواز يخلي البنت تختلط بالناس ويخرّجها للدنيا؟

منيرة دي زي ستنا مريم، ربنا اصطفاها لنفسه، وإحنا مش هنغبر مشيئة ربنا يا ابراهيم.

ربنا يصلح الحال ويقدرلها الخير. أنا كمان جايلك في أمر جواز بس أنا بقا وافقت عليه. الأسبوع الجاي بمشيئة ربنا إكليل ابني مينا، خطبناله (مارية) بنت (ويصا الفحام)، وإنت مش محتاج عزومة يا حج، الأحد الجاي تشرفنا إنت والعيلة في كنيسة (القديسة دميانة).. كِبروا الأولاد وكبرونا يا حج بشير!

- ألف مبروك يا ابراهيم.. مينا زينة الشباب ربنا يفرّحك به..

***

اقترب (بدري) الفراش من مكتب نورالدين ومال عليه هامساً: "سيادة الناظر عايزك في مكتبه يا أستاذ نورالدين". رفع نورالدين رأسه وسدد نظرة إلى حسين الذي كان يتظاهر بأنه منشغل في تصحيح دفاتر الطلبة فلم يبادل نورالدين نظرته المصّوبَة نحوه.

غادر نورالدين المكتب فاضطجع حسين إلى الوراء وطقطق ظهره مبتسماً بغير سبب، ثم أغلق الدفاتر التي أمامه وسأل زميله في قسم اللغة العربية دون مقدمات: "أستاذ خالد، إِعرب قول الله {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}"

طرق نورالدين الباب ثم تقدم بخطًى ثابتة نحو مكتب الناظر، وكان رجلاً نحيفاً فارع الطول له بشرة سمراء وعيون تلمع بالذكاء. لا يستطيع أحد أن يميز شخصيته فتارةً يبدو طيباً متفهماً يتجاوز حتى عن الأخطاء الجسيمة وتارةً يبدو سادياً يتصيد زلّات مَن حولَه ويُنزل أقسى العقوبات على أتفه الأخطاء، ولذلك كان كل من حوله يراقبون حالته المزاجية قبل مفاتحته في أي شيء، عدا نورالدين، فآفته أنه كان يفعل ما يفعله دائماً بذات الطريقة دون وجلٍ من العواقب، وكم يورد الرجل نفسه المهالك حين يكون مقداماً في زمن التراخي وصادقاً في سنوات الكذب وواضحاً في أوقات الالتباس إذ يبدو فاضحاً لكل ما حوله. صافح نورالدين الناظر على غير عادة زملائه الذين لا

يتجاسرون على تلك المصافحة كثيراً ثم جلس على الكرسي المقابل لمكتبه دون استئذان، فتبسم الناظر وسأله عن أخباره ثم قال له:

- ماذا تُدرِّس يا أستاذ نورالدين؟

فأجابه كأنَّ سؤاله طبيعيّ:

الفلسفة.

- وما علاقة الفلسفة بالسياسة؟

- المنهج الذي قرَّرَته الوزارة به (باب) كامل يتحدث عن علاقة السياسة بالحرية.

وهل يتحدث هذا الباب عن سياسة الرئيس عبد الناصر؟

- لا. هو باب في مبادئِ السياسة بشكل عام.

- فلماذا تُحدِّث تلاميذك عن سياسة البلد بطريقة ناقدة؟

عفواً يا حضرة الناظر. هذا لم يحدث.

لكن أحد زملائك سمع حواراً بين طلاب فصلك، وأحدهم كان يقول أنَّ "الديمقراطية تنفي أن يكون الحاكم مُطلَق الإرادة حتى لو كان الشعب قد انتخبه، وعبد الناصر لا

أحد يراجع قراراته ولا أحد يحاسبه على أخطائه". هل هذا ما تعلّمهم إياه يا نورالدين؟!

هكذا قالها دون أن يُسبقها بلقب أستاذ وهو يرمقه بنظرة غاضبة وقد ارتفعت نبرته. لم يهتز نورالدين وردّ بثبات:

أنت في مقام الوالد، ولو ناديتني باسمي مجرداً خارج المدرسة سيكون ذلك من دواعي سروري، أما وأننا في حرم المدرسة فأنا الأستاذ نورالدين.

حسنا يا سيدي. اتفضل جاوبني يا "أستاذ" نورالدين!

- أنا لم أقل كلمة واحدة عن نظام الحكم في مصر، ولا ذكرتُ [illegible] الرئيس عبد الناصر. وربما كان ما قاله الطالب قياساً منه على المنهج الذي قرّرَته الوزارة ولم أُقرِّره أنا. فدوري ان أعلّم الطلاب كيف يفكرون، وليس فيما يفكرون.

عليك [illegible] تعلّمهم أن يحترموا بلدهم وقيادتها. أليست [illegible] مهمة أساسية للمعلم؟

نعم. ولكن [illegible] طالبٍ في أمر سياسي بالتربية؟

- طالب قليل الأدب يعين كلمي، و[illegible] أفصله من المدرسة.

الشؤون الإدارية هي تخصصك وليست تخصصي يا حضرة الناظر، لكن لو سألتني رأيي فأنا لا أنصح بمثل هذا التصرف لأنَّ قمع الشباب في مثل هذه السن سيدفعهم نحو التطرف الفكري.. الأفضل أن نناقشهم ونقنعهم بما نراه صواباً، إن كان صواباً.

وهل ستقنِع تلميذك هذا بأنه على خطإٍ، وأنه أساء الأدب؟!

سأناقشه فيما قال وأفهم منه لماذا تحدَّث بمثل هذا الكلام، وسأعلِّمه متى وأين يتكلم، وأمام من.

ثم ابتسم وقال:

وما رأي الأستاذ حسين فيما حدث؟

الأستاذ حسين لا دخل له. راجع تلامذتك واحذر يا أستاذ نورالدين. اليوم قد لفتّ نظرك وديًّا أما المرة القادمة فستكون بشكل رسمي وأنت تفهم ما أقول ولا شك.

تبسَّم نورالدين دون أن تبدو أسنانه تبسُّم المغضب الكظيم وهزَّ رأسه وغادر المكتب. وعندما جاء موعد حصته دخل الفصل بوجه مشرق فقد كان في عمق نفسه سعيداً بنجابة تلامذته وقدرتهم على التفكير والقياس وإنزال ما يدرسون على واقعهم. لم يقل كلمة واحدة حول الأمر الذي حدَّثه فيه الناظر بل بدأ حصته بعد أن حياهم بقوله: "الأمم تمرض ولكنها لا تموت. وشفاء أمراضها يكمن في عقول شبابها،

فلا حرية بغير فكر مستنير، ولا يتولّد النور إلا بالاحتراق، والاحتراقُ هو ثمن الحرية يا تلامذتي فاحترقوا وأنتم أحرار ولا تحيَوْا وأنتم عبيد". ثم بدأ في شرح الدرس الجديد.

***

كعادتهم في قصِّ أهم ما يحدث معهم طوال الأسبوع في لقاء يوم الخميس بمقهى السلامة، قصَّ نورالدين ما حدث بينه وبين الناظر لأصدقائه، فقال له أحمد:

- عليك أن تكون أكثر حذراً، لا سيما في المدرسة، أنت تعرف أنَّ حسين لا يحبك ولن يتورع عن إيذائك إذا وجد فرصةً لهذا، فلا تقدمها له بالمجان.

- إذا لم أعمل على صقل عقول تلامذتي وتنويرهم لماذا أكون مدرس فلسفة إذن؟! ما حدث من الطلاب هو خير دليل أنَّ رسالتي قد وصلت وأنَّ مهمتي قد نجحت.

تدخل حكيم:

لكنك لست مسؤولاً عن نفسك فقط يا نورالدين! عليك ألَّا تنسَ أنَّ لك ابناً يحتاج إليك، فابتعد عن السياسة يا أخي على الأقل في محل عملك، وها نحن هنا نقول ما نشاء وليس بيننا واشٍ..

ثم نظر إلى أنس وأردف قائلاً:

- اللهم إلا ابن سيادة العقيد إذا فكرً في بيعنا!

فضحك الرفاق وردَّ أنس:

أنا إن شككت في إخلاصكم للدولة وولائكم لي بوصفي ممثل الدولة هنا، لأُعدمنّكم رمياً بالرصاص!

- ها قد توعَّدك الذين تدافع عنهم يا حكيم، وممثل مجلس الثورة كشَّر عن أنيابه، فماذا فعلتَ بدفاعك عنهم يا شاعر البلاط؟

أنا شاعر الثورة، ولازلتُ مؤمناً بها يا نورالدين بغضِّ النظر عما قاله هذا الصعلوك العربيد أنس.

ضحك الرفاق الأربعة بينما ظل مينا واجماً لا يبتسم ولا يتكلم، فلكزه حكيم:

وأنت يا "أبونا" ما رأيك في الأمر؟

فقال أحمد:

دعه ومصيبته، الرجل سيتزوج الأسبوع القادم وستنكشف مصيبته وسيعرف الجميع أنه ذَكر بلا ذكورة..

قال أنس وهو يقرقر بالأرجيلة:

- تعال يا مينا معي ليلة واحدة وأنا أعلّمك كيف تصبح رجلاً في ثلاث خطوات.

أراد حكيم أن يبرّد ثآره من أنس فقال له:

- ولكن مينا يريد أن يتعلّم كيف يضاجع امرأته ويُكيّفها لا أن يُكيّفك أنت يا ممثل الدولة!

تدخل نورالدين بهدوء:

حقا يا مينا مالك واجمٌ لا تتكلم ولا تشارك هؤلاء السفهاء ضحكهم؟

- بصراحة أنا فعلاً مرتبك من الأمر كله. العروس اختارتها لي والدتي، ليس بيننا أي مشاعر ولا نتلاقى في أي من الأفكار أو الاهتمامات. فجلُّ همها في الملابس والأثاث والأغاني، ودائماً ما تنتقد طريقتي في التفكير وتراها قديمة. وحتى ملابسي، بل ومشيتي أيضاً لم تسلم من النقد! حتى أني في آخر لقاءٍ قلت لها "مازلنا على البرِّ يا بنت الناس فنكِّري إن كنتُ لا أُعجبكِ ليذهبْ كل منا لحاله بدلًا من زواج لا طلاق بعده". صحيح أنها اعتذرت وبكت وقالت أنها تمازحني لكني مازلت قلِقاً من موقفها ومن الزواج كله.

ربَّت نورالدين على كتفه:

- يا صديقي أنا الوحيد بينكم صاحب تجربة الزواج هنا، وقد كان من زوجتي رحمها الله مثلما كان من خطيبتك قبل الزواج.. النساء عادة تهتم بالأمور التافهة والبسيطة التي لا تشغل بال الرجال، ولهنَّ الحق، فماذا تنتظر من ربيبة المنازل؟ يتربَّين كالدجاج لا يغادرن الحظائر ثم ننتظر أن تكون المرأة لزوجها حبيبة وشاعرة وسياسيَّة وملمة حتى بعلوم الفلك! توكل على الله ولا تخشَ شيئاً وإذا قابلتك مشكلة فاستشر ذلك العربيد أنس فهو لا يحيا إلا للنساء!

أتم الرفاق سهرتهم ثم تفرق كل منهم في طريقه. اختلى نورالدين بأحمد وأخبره بالرد الذي كان يتوقعه ولكنه لا يتمنى حدوثه، ونقل إليه رسالة منيرة بأنه "لن يحملها لبيته أبداً لكن سيكون هو من يحملها إلى بيت نورالدين". تلك الرسالة التي لم يفهمها أحمد أبداً إلا بعد سنواتٍ طوال جداً.

***

اجتمع أولاد البلد الواحد بكنيسة القديسة دميانة تغمرهم الفرحة بقلوب صادقة وعيون مبتسمة. اصطفوا على المقاعد الخشبية وبعضهم يتلفت في أرجاء الكنيسة التي يدخلها لأول مرة في حياته. يتأملون الحوائط الشاهقة الارتفاع بأحجارها الضخمة بغير طلاء تعلوها نوافذ نصف مشرعة يغطيها زجاج أزرق رُسم عليه وجه يسوع المسيح باسطاً ذراعيه في وضع احتضان لكل من ينظر إليه.. سألت فردوس زوجها بشير بصوتٍ خفيض:

- هو المسيحيين بيصلوا إزاي على الدكك دي يا حج؟ ولا في سجادة يصلوا عليها ولا قِبلة؟

ضحك بشير وقال لها:

اسكتي يا فردوس وخليكي في الفرح محدش قال لك قومي صلي ركعتين.

عندما لمح نورالدين حكيم وأنس وأحمد استأذن والده وقام إليهم ووقف بجوارهم حيث امتلأت المقاعد عن آخرها فوقف كثير من الشباب والفتيات.. همس أنس في أُذن حكيم:

البنات المسيحية زي القمر والواحدة فيهم ممشوقة كأنها تمثال منحوت، أنا مستعد أتنصر وآخد واحدة من دول!

على رأي أمي، ربنا إداهم المال والجمال، وإدانا الإسلام.

- يعني مكنش ينفع إسلام مع حريم حلوة؟! حكمتك يا رب!

بارك القسيس العروسان ثم تلا بعض الترانيم قبل أن يقول "ما يجمعه الله لا يفرقه إنسان".. فقال أحمد:

ما رأيكم لو أعلنت للقسيس أنَّ مينا نصف رجل ذكَرُه لا يصلح إلا للبول؟

قهقه أنس بصوت مرتفع لفتَ إليهم الأنظار فضربه نورالدين على ظهره وكتموا جميعاً ضحكاتهم.

توجه بشير ومعه مجموعة من تجار الوكالة إلى إبراهيم لتهنئته، أخرج بشير مظروفاً وضع فيه كل تاجر من الوكالة مبلغاً من المال وقدَّمه إليه:

- نقطة إخواتك في الوكالة لمينا يابو العريس، ألف مبروك..

تمنع إبراهيم وهو يقول:

مستورة يا حج بشير.. كفاية إنكم شرفتونا..

أقسمَ عليه التجار أن يأخذها فامتنَّ لحبهم الصادق وتناول المظروف من بشير الذي غمزه قائلاً:

- مش ناوي تجدد شبابك يا ابراهيم وتتجوز على أم مينا؟

ضحك إبراهيم:

ياريت يا حج لكن إنت عارف الجواز عندنا طريق اللي يروح ميرجعش، هي جوازة واحدة ولا فراق إلا بالموت، وعندنا الرجالة هي اللي بتموت دايما!

***

دخل مينا بزوجته مارية، كانت بيضاءَ ممتلئة فمُها صغير وشفتاها دقيقتان وشعرها أسود فاحم يصل لمنتصف ظهرها وعيونها جريئةٌ مشاغبة وبطرف خدها الأيمن شامة صغيرة تشبه الخنفساء، وتنكمش إذا ضحكت، بدت سعيدة مبتهجة بينما غاص مينا في خجله وهو يرفع عنها طرحة فستانها ويقبّلها على خدها. دلفت مارية للحمام

ثم خرجت بقميص نوم قصير لا يجاوز نصف فخذيها ويكشف عن صدرها، إذ عجز "الروب" الذي ارتدته فوقه أن يكبح جماح ذاك النهد النافر، وارتدى مينا بيجامة الزواج الحريرية ثم جلسا ليتناولا العشاء الذي أعدَّته أم العروس عامراً بالحمام وديكٍ رومي، فأكلَا كما يأكل الشبعان وشرب مينا كأسين من النبيذ فانتشرت الحيوية في عروقه وانسحب الخجل إلى غير عودة.. غسلَا أيديهما ثم اقترب منها مينا يمسح على شعرها ويقبّل عنقها وهي تتكسر تحت لسانه وأنفاسه تدغدغ أنوثتها وراحا في ضمة طويلة غاص بعدها مينا في ذاك البحر الأبيض الناهد يداعبها حتى ذابت بين يديه، مسح وجهه ببطنها وهي تتأوه تحته ويداه تقتطفان ثمرتَيْ صدرها الناضجتين، ثم هبط تقبيلاً على فخذيها يفرّج ما بينهما حتى انفتحت بوابتها فاشتبك بها، وحلَّ سرّه بسرّها، وانغرس السهم في كبد الوتر حتى بلغ الغاية القصوى. فأصابت رميته قلب الظبية، لكن دمها لم يَسِلْ.

نهض مينا عن زوجته ذاهلاً لوقع مصيبته، باحثاً عن دمٍ يخبر أنه أول الداخلين بها، يفتش عن كنزٍ أحمر قد سبقه إليه غيره وينظر إليها وعيونه قد انفتحت كطفلٍ يواجه أبشع ما خوَّفته به أمه في طفولته:

ما هذا يا مارية؟ أنتِ لستِ بكراً؟؟

اعتدلت وهي تضم ساقيها محاوِلةً استجلاب الدموع بتضييق عينيها وهي تستحلفه بالمسيح ألَّا يفضحها وإلا قتلها والدها، فهي تعلم أنَّ مينا لن يمسها بإيذاء وأنَّ الخطر قادمٌ من والدها الغيور فحسب..

كل هذا وأنتِ تخدعينني وتمثلين عليَّ دور الطاهرة البتول وأنتِ تحملين عاركِ بين فخذيكِ أيتها العاهر؟!

لستُ عاهرةً وحق مريم، لقد كان خطيبي وكنتُ طفلة في السادسة عشرة، زارني مرة ببيتنا القديم عندما كنا (بأسيوط) وكنت وحدي وحدث ما حدث وفسخ الخطبة بعدها ولم أجرؤ على إخبار أهلي.. أعرفُ أنك لن تفضحني يا منيا فأنتَ طيّب.. ألم يقل المسيح "من كان منكم بلا خطيئة فليرمِها بحجر"؟!

الآن تذكرين وصايا المسيح! أين كانت وصاياه وأنتِ تخدعينني؟!

أمسكها من شعرها وهمَّ بصفعها، لكنه كان رجلاً لا يصفع حتى من يخدعونه، فألقى بها كأنها كُرة من القاذورات وانزوى أقصى الغرفة واضعاً وجهه بين كفيه يبكي قلبُه وتتساقط روحه أمام هذه الصفعة المؤلمة.. قام إلى صورة يسوع المعلّقة فوق الحائط وجثا على ركبتيه متضرِّعاً: "إن كان يمكن أن تَعبُر عني هذه الكأس فاعبُرْها عني.. ولكن لا كما أريد أنا بل كما تريد أنت!" ثم أمسك بالمحارم البيضاء التي لم يخضِّبها دم العفة وأخذ السكين وخدش أعلى ذراعه وخضَّب المحارم بدمه المتقاطر بالوجع وقال لها: "سأخلِّصكِ بدمي كما خلَّصنا يسوع بدمه. لكن أنتِ حرامٌ عليَّ ما حييت لا تمسِّيني ولا أمسُّكِ"، دون أن يدري أنه بتلك الليلة وفي معاشرتهما الوحيدة قد قذف بها نطفته التي ستشب طفلاً دون إرادته، طفلٌ أنجبته الخديعة وإرادة الآب الساكن في أعلى السماء وظلّه في قلب مينا المؤمن.

***

على خشونة الحياة العسكرية إلا أنها لا تخلو من المباهج، لا سيما في أنشاص، حيث تم تدشين مطارٍ حربيّ بالشرقية قرب منتجعات الملك فاروق الذي كان يأتي أسبوعياً للاستجمام والاستراحة في قصره الذي أصبح الآن كبارُ الضباط يقيمون بغرفه ويعقدون في بهوه الكثير من حفلات الترفيه. وقد حظي حسام بهذه الرفقة كثيراً بعد تقربه من العقيد كمال نشأت الذي كان قد استقبلهم عند وصولهم الأول عند التخرج قبل سنواتٍ قليلة وكان مولعاً بلعبة الشطرنج التي يجيدها حسام، فكانت تلك وسيلَته للاقتراب من قائده المباشر، فكانا يقضيان عديد الليالي وهُما يتبادلان اللعب، وكان حسام يحرص دوماً أن تكون الجولة الأخيرة دائماً لكمال نشأت، فكانت خسارتُه طريقاً لمكسبه..

في هذه الليلة وقبل اللعب سأل كمال حسام:

لماذا لم تتزوج يا حسام؟ ألا تفكر في الأمر؟

أنت تعرف يا سيادة العقيد ضباط الجيش يقضون تسعة أعشار أوقاتهم لا يرون منازلهم، ولذلك أعتقد أنَّ علينا انتقاء الزوجات بدقة، فغيابنا يطول عن البيت، وأنا رجل شكاك بطبعي. ولذلك أنتظرُ حتى أجد عروساً أُربّيها على يدي فأمنحها ثقتي.

أنت لن تستطيعَ أبداً أن تميز بين اللعوب والمخلصة يا حسام، فالمرأة هي أفضل مراوغ وتستطيع أن تقنعك أنها

قديسة لا تعرف عن عالم الرجال شيئا وهي في الحقيقة عرفَت منهم ما يجاوز عدد شعر رأسك. إياك أن تظن أنك قادر على هذا الفرز، فهي إما أمينةٌ تصونك لأنَّ هذا نصيبك أو لعوب تُصيبك.. غاية ما تستطيع فعله أن تنتقي فتاة من عائلة محترمة تكون العُهدة فيها على أسرتها، هذا أقصى ضمان تستطيع أن تصل إليه، وخير فتاة تناسب ضابطاً بالجيش أن تكون هي نفسها من أسرة عسكرية فهذا سيريحك لأنها تربَّت على ظروف العسكريين ولن يزعجها طول غيابك.

ولكني لا أعرف فتاة من هذا النوع، فتقريباً أنا الضابط الوحيد في العائلة وفي حيّنا بأسره.

عندي لك عروس لو كانت من نصيبك فقد فُتحت لك طاقة القدر، إنها ابنة العقيد رشدي حسن أحد المقربين من مجلس الثورة، هو صديقي ويمكنني التوسط لك في هذا.

تهلل وجه حسام:

نعم أنا أعرفه فابنه أنس صديق أخي نورالدين، أنا لا أعرف سيادة العقيد شخصياً لكن أعرف أنس جيداً فقد زار بيتنا كثيراً.

- حسنا هذا سيسهل مهمتنا، دع الأمر لي.

ثم بدآ في لعب الشطرنج وخسر حسام كل الجولات تلك الليلة وهو مبتسم.

في أول إجازة لحسام فاتح والديه في أمر الزواج فشجعه أبوه:

دة يوم المنى يابني، توكل على الله واختار عروسة وأنا أجهزهالك من جنيه لألف.

نظر حسام إلى نورالدين:

وإنت إيه رأيك يا نور؟

توكل على الله يا حسام.. إنت دلوقتي في مكانة تسمحلك بالجواز والإستقلال بحياتك.

بس أنا عايزك إنت اللي تخطبلي بنفسك يا نورالدين.

- إنت عينك على واحدة معينة؟

أيوة. وإنت تعرفها كويس كمان، (خديجة) أخت صاحبك أنس.

ضحك نورالدين ووضع يده على كتف أخيه:

لا! ناصح فعلاً! إنت بقى عاوز تجمع بين الجواز والترقية!

الحكاية مش زي ماانت فاهم! الحياة العسكرية علمتنا إن العسكري لازم يتجوز من أسرة عسكرية.

- وهو يعني لو اتجوز واحدة أبوها موظف أو تاجر دة هيخِّل بشرف العسكرية؟

فتدخل والده:

سيب أخوك يعمل اللي شايفه يا نورالدين، هو إيه اللي فيها لما يتجوز واحدة من أسرة تقدر تفهم ظروف شغله؟

أنا مش معترض يا حج. بس فعلا نفسي أفهم ليه الحكاية دي بقت منتشرة، كل ظابط لازم يتجوز بنت ظابط؟!

فأرادت فردوس أن تحسم السجال:

خلاص يابني، شوف أروح إمتى لوالدتها واخطبهالك..

لا يا ماما إحنا مش هنزورهم دلوقتي، لما ييجي الوقت المناسب هقول لكم ونروح نزورهم.

إن شاء الله يابني واحنا جاهزين وهنشرفك.

ابتسم حسام لوالده دون أن يرد، واستأذنهم وذهب لغرفته لينام. وفي المساء ارتدى ملابسه وتعطر واتجه نحو الأزبكية وجلس على المقهى المقابل لمنزل عشيقته شريفة يراقب المنزل عن بعد وعينهُ مصوبة نحو شرفة بالدور الثاني منتظراً إشارة بأنَّ المنزل متأهب للِقاءٍ في غياب صاحبه!

***

جمعت منيرة عرائسها وصالح نائمٌ بحجرها وأخذت ترصُّهم بجوار بعضهم وتبتسم وتتحدث إليهم همساً كأنها تقص حكاية النوم على الصغار.. أمسكت بالعروسة التي ترتدي فستاناً أبيض فمسحت على فستانها والتمعت عيونها، كانت جائعةً للبكاء لكنها لا تبكي أبداً، فالروح المجروحة لا تسيل إلا حنيناً ووجعاً جافاً كأنه الرمال!

إنتي عروسة زيي، عروسة بس من غير عريس..

دخل أبوها الغرفة وهي شاردةٌ لم تنتبه لطرقه ولا دخوله، فلمح التماع عينيها التي تسجن الدموع في مآقيها للأبد..

- مال عيونك يامنيرة؟ إنتي كنتي بتبكي يا بنتي؟!

- أنا مببكيش يا بابا. روحي هي اللي عاوزة تنزل من عيوني!!

ليه بتقولي كدة يا حبيبتي؟ طول مانا عايش إوعي تخافي أو تحزني، أنا أعملك كل اللي عايزاه حتى لو دفعت حياتي! ومحدش أبدا هيقدر يزعل عيونك الحلوين.. قوليلي عايزة تبقي عروسة وتتجوزي؟ قوليلي ومتتكسفيش مني..

- لا يا بابا. أنا مش هتجوز حد. أنا هفضل معاكم عشان تشوفوا. بس إنتم بتغمضوا عيونكم ومبتشوفوش!

إيه اللي عايزانا نشوفه يا منيرة؟

- الضلمة اللي بتستخبى في النور! والموت اللي عامل نفسه حياة..

- نفسي أفهمك يا منيرة لكن إنتي كلامك دايما ألغاز يابنتي! ساعديني عشان أقدر أعمل اللي يرضيكي.

- مش عاوزاك تساعدني أنا، ساعد حسام ونورالدين، خلي حسام يحب أخوه عشان صالح ميبكيش.

بس حسام بيحب نورالدين وبيحترمه وعمره مازعله؟!

هيزعله يا بابا. هيزعله.

ربنا وحده هو اللي عالم بالغيب يابنتي.. خدي بالك إنتي من نفسك وسيبي ربك يدبر شأن عبيده وهو أرحم الراحمين..

***

غادر النوم مُقلتَيْ نورالدين وهو يتقلَّب على سريره، لا يبلغُ اليقظة فينتبه ولا يبلغُ النوم فيستريح، نهض وارتدى ملابسه وخرج ليتنسم نسائم ثلث الليل الأخير. عقد يديه خلف ظهره وهو يُقلِّب عينيه في المنازل الهادئة والظلام يلفها إلا من شعاعٍ هاربٍ من وجه القمر يلقي بضوئه الخجل على مشربيات البيوت التي نام أصحابها على الفقر القَنوع والرضا المتألِّم. فرغم انتشار الفقر في كل الربوع إلا أنَّ الأمل لم يغادر القلوب وإن جاعت البطون.. حملته قدماه إلى شارع

الوكالة الكبير وهو يتأمل أسماء المحال التي تخبر من أين جاء أصحابها، كثيرٌ منها يحمل أسماء (الإسماعيلاّوي) أو (خردة بورسعيد) أو (ملابس السويس)، فقد ارتحل سكان مدن القنال بعدما ضربتهم قنابل العدوان الثلاثي دون وجود جيشٍ يدفع عنهم العدوان، قاومت بنادق الشرطة وحدها طويلاً ثم سقطت في النهاية أمام الهجمة الغشومة. فانتقل أبناء مصر من أقصى شرقها إلى قلب عاصمتها وعاشوا فيها سنوات طويلة حتى صارت لهم منازلهم وتجارتهم الخاصة بالعاصمة.

عجزت نسائم الفجر الباردة عن إطفاء الغضب في روح نورالدين الفوارة، فقد أُجهِض حلمه بأن ينتشر العدل في أرجاء هذه الأحياء التي أثخنتها جراح العوَز، لكنه لايزال يقاتل، دوماً يبحث عن خارطة للنور تعيد لهذا البلد بهاءه القديم وترفع يدَ الفاقة عن رؤوس أبنائه.. جاوز (جسر أبو العلا) وهو يتمعن في أعمدته القوية وأركانه المتشابكة التي صارت يداً تصافح ضفَّتَيْ النهر، فعبَر من حيِّه الفقير إلى الزمالك، حيث المنازل الفخمة التي تحيط بها الحدائق الغنَّاء بأشجارها الوارفة تنبئُ عن تناقض الحال بين الضفتين، تلك المنازل التي أصبح يسكنها العسكر بعد أن أخرجوا منها أصحابها القدامى فتبدلت عصا الباشا بنياشين الجنود، لكن أشجار الطريق تشهد على أنَّ الحال لم يتبدل إنما تبدل السيد فقط.. ظلت المظالم راسخة في كل الجنبات وظلت أغصان الشجر تتدلى مظللة طريق كل عابر غير عابئةٍ أكان من أغنياء الحي أو متسللاً من أخيه الفقير، فالأشجار لا تغادر عهد الوفاء أبداً.

ارتفع صوت الأذان قادماً من الأفق البعيد، صوته ليس غريباً على أُذنَيْ نورالدين، إنه مؤذن مسجد السلطان أبو العلا يرفع نداء السماء من الضفة الأخرى بصوته الشجي: "حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح". اهتز قلب نورالدين تحت وقع النداء وحنَّ قلبه للصلاة التي توقف عنها منذ ماتت زوجته بعد قيام الثورة بسنوات فقد كان عاتباً على السماء أن نزعت منه حبيبته بعدما منحته الولد الذي يربط بين كل حبيبين، فكان رباطُهما سبباً لفراقهما.

لفَت نظره أنَّ الأذانَ يرتفع من الضفة الأخرى وهاهنا في الزمالك لم يرتفع أذانٌ.. أين المساجد التي تدعو للقيام، هل غِناهم أغناهم حتى عن الله؟ أم أنَّ المساجد لا تصلح إلا للفقراء يتعزَّون بها عن ضيق حياتهم بالأمل في الجزاء البعيد في العالم الآخر؟ هل المساجد هي الصوت الذي يستنهض الأمّة؟ أم أنها حبَّة التخدير التي يلقمها الحكام لأفواه الفقراء ليواصلوا النوم الطويل على أمل الجزاء السعيد في عالم آخر خلف هذا الوجود؟

عاد نورالدين أدراجه وعبَر الجسر من الغنى إلى الفاقة مرة أخرى، تألمت نفسه لكنها فقدت الوحشة التي أصابتها بين منازل الأغنياء وشعر بالأمان بين أمثاله. شيء فيه قد تبدل، وشعر بروحه خاوية تحتاج إلى مسحة سماوية تملأُ ذاك الفراغ الأليم الذي يستوطن نفسه، وقلبه يرتعش يبحث عن بسمة إلهية تغسل روحه والشوق يقوده نحو الله من جديد..

خلع حذاءه وتقدم نحو الميضة يغمر ساعديه ووجهه بالماء، كأنَّ الماء يطهر الأيدي من أدرانها وخطاياها ومن صمتها الخَنوع ويغسل

الوجه من رؤية الباطل وإغماض العيون، ثم مسح على رأسه، كأنَّ المسح عند كل صلاة يُذكِّر بمراجعة الأفكار ومراقبة العقول، هكذا كان يتأمَّل في كل حركة في الوضوء..

وقف في الصف خلف الإمام الذي افتتح الصلاة بفاتحة الكتاب وأتبعها بآيات خاشعات حتى وصل إلى قول الله {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} فسرح عقل نورالدين في هذا التقريع الشديد من الله لأصحاب النبيّ ﷺ الذين حملوا الديانة على مراكب الدماء ليبلغوا بها شطآن القلوب، الله يأبى زَلَّة واحدة من جيلٍ لم يعرف السكون، الله يرفض أن يُلقي أتباعه بتبعية الهزيمة على عاتق القدر حتى تستريح النفوس من الألم وتهنأ بالإيمان البليد تحت عباءة النصيب والمكتوب، فأيقظ الله ضمائرهم بحسم رادع {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}.

انتهت الصلاة وقد امتلأت روحه بأوجاع تأملاته مكللة براحة القرب من السماء وعَقدِ الصلح من جديد مع الله، عند باب المسجد أبصر أباه خارجاً وهو يسعل ويتمتم بالتسابيح، ابتهج والده لرؤيتِه وفرح بعودته للصلاة فصافحه وكأنه كان يتوقع رؤيتَه وكأنه لا يعلم أنَّ ابنه لم يسجد لله سجدة واحدة منذ سنوات، ثم سارَا معا كصديقين في شارع الوكالة الكبير..

مش ناوي تشد حيلك ونجوزك إنت كمان يانورالدين؟
محدش بيعيش راهب طول عمره، شوف واحدة يابني تربي ابنك وترعاك!

تبسم نورالدين:

- ربنا يصلح الحال يا حج.

- ربنا يهديك يابني، ويهدي أمك اللي عايزانا نشتري تلاجة مستوردة.. كلمها يا أخي شوية من الوطنية بتاعتك وعرّفها إنه عيب لما تكون لسة البلد بتشد حيلها نقوم نطلّع فلوسنا للغرب نشتري منتجاته.. بكرة مصانعنا تصنّع كل شيء ونشتري من خير بلدنا ولا إيه يابني؟

حاضر يا بابا هكلمها.

وصلا للمنزل وعاد نورالدين لغرفته لينام لكن قلبه اليقظ وضميره النابه لا يمنحانه هذه الرفاهية بيسر. فقام وقلّب في مكتبته الثرية بكتب التاريخ والتفاسير وأشعار القدامى واختار كتاب (سير أعلام النبلاء) ليطالع سيرة (أبو مسلم الخرساني)، ذلك القائد السفاح الذي هدم دولة بني أمية ليقيم دولة بني العباس والتي كان شعارها العدل، بينما نهجُها إراقة الدماء.

***

اشترى حسام علبةً فاخرةً من الشكولاتة، وارتدى بدلةً سوداء أنيقة تعكس مَلاحةَ وجهه الأبيض وعينيه السوداوين وشعره الفاحم، وفي الموعد المتفق عليه مرَّ عليه العقيد كمال نشأت بسيارته وذهبا سوياً لبيت العقيد رشدي بالزمالك.

فتحت لهم الباب خادمة أسوانيَّة وأجلستهما في الصالة الكبيرة، اقترب منهما خادم شاب يدفع عربة صغيرة عليها الشاي

والسكر والحليب فقطعا كلامهما عند وصوله وكان حسام يسأل كمال نشأت بارتباك:

- حضرتك إديت فكرة لوالدها يا سيادة العقيد مش كدة؟
- إنت سألتني السؤال دة عشر مرات يا حسام وقلتلك أيوة يا أخي، والراجل مرحب بالزيارة خليك هادي أومال يا حضرة الظابط!

بعد دقائق من الانتظار نزل العقيد رشدي وزوجته السيدة (سميحة)، صافح العقيد رشدي الضيفان ببسمة مرحبة، ثم جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث حول أحوال البلد وأحوال المعسكرات الجديدة التي يتم تدشينها في طول البلاد وعرضها، وقد بدا حسام موافقاً على كل ما يقال ويبتسم لكل رأي يدلي به العقيد رشدي، حتى تنحنح كمال نشأت قائلاً:

يا سيادة العقيد أنا بعتبر "الملازم أول" حسام في مقام أخويا الصغير، هو ظابط مجتهد وهيكون له مستقبل إن شاء الله، وأنا أعرف أخلاقة كويس، ولولا كدة مكنتش رضيت بدور الخاطبة وجيت بنفسي أخطبله كريمتك خديجة.

تبسم رشدي لكلماته ونظر إلى حسام وسأله عن عمل والده فأجابه بأنه تاجرُ أقمشة بالوكالة يعرفه كل الحيِّ بسيرته الحسنة، ثم استرسل في الكلام:

- وأخويا الكبير نورالدين بيشتغل مدرس، وبالمناسبة هو يبقى صاحب ابن حضرتك أنس.

تهلل وجه سميحة:

معقولة نورالدين يبقى أخوك؟ يا محاسن الصدف أنعم وأكرم! أخوك نورالدين أحسن أصحاب أنس وأعقلهم وأنا بعتبره زي ابني تمام ودايماً بنصح أنس يكون زيه في أخلاقه وعقله..

أنس نعم الشباب يا طنط، وتربيته لا يُعلى عليها!

استغربت سميحة طريقته في الإطراء برفعه لمكانة ابنها فوق أخيه، أما رشدي فاستحسن كلماته التي أدرك أنها ذكاء منافق ولكنه مناسب جداً، ثم سأله إن كان لديه سكن خاص، فأخبره حسام أنَّ بيتهم يقوم على ثلاثة أدوار وأنَّ الشقة التي بالدور الأخير كانت لأخيه نورالدين قبل أن تتوفى زوجته وينتقل بعدها مع ابنه للعيش مع بقية العائلة بالدور الثاني، وأنه قد اتفق مع الأسرة أن يجددها فتكون شقة لزواجه.. قطَّب العقيد رشدي حاجبيه:

- مظنش إن السكن في بولاق أبو العلا هيكون مناسب لبنتي، إحنا ممكن ندبرلك شقة هنا فى الزمالك.

اضطرب حسام في جلسته وهمهم:

- لكن يا سيادة العقيد...!!

- متقلقش، مش هنكلفك حاجة، إحنا عندنا في الزمالك شقق كتير كانت للأجانب وحاشية الملك هجرها أصحابها وممكن ندبرلك واحدة منهم..

تهلل وجه حسام:

ربنا يباركلنا في سعادتك يافندم.

ضرب كمال نشأت على كتف حسام:

- ابسط يا عم! عروسة وشقة! أومال فين العروسة صحيح يا سيادة العقيد؟

قامت سميحة وغابت قليلاً ثم عادت وهي تمسك بيد ابنتها خديجة، فتاة باهرة الجمال ورثت عن أبيها طول القامة وبشرته البيضاء، شعرها بنيٌّ يصل لمنتصف ظهرها وشفاهها دقيقة وأنفها طويل ولعيونها السوداء حزنُ الخيلِ ورِفعته. صافحت الضيفان على استحياء، واكتستها حمرة الخجل عندما قدمتها أمها: "عروستنا الحلوة".

اتفق رشدي مع حسام على زيارةٍ مع أهله في الجمعة التالية لقراءة الفاتحة، وعندما عاد حسام للمنزل وأخبر الأسرة بصفقته الناجحة اسودَّ وجهُ أبيه حزناً:

- مش كان أولى تاخد أبوك يخطبلك يا حسام بدل ماتاخد الأغراب كأنك ملكش أهل؟

- الحكاية مش كدة والله يا بابا، لكن العقيد كمال صديق لأبو العروسة ولُه عليه دلال وهو اللي رشحهالي فقلت أطيّب خاطره وأديله مكانته.

قام نورالدين مغادراً جلستهم والغضب يعلوه وهو يقول:

أيوة. إنت إديتله مكانته، وأهنت مكانتنا.

انزعجت فردوس لتوتر الجو فقالت:

- صلّي على النبي يا حج! دة يادوب ربط كلام، وهو يعني مين اللي هيقراله فاتحته غيرك؟ ماهو إنت أبوه وإنت اللي هتخطبله في الآخر.

أيوة يا فردوس. عندك حق. في الآخر!! ربنا يوفقلك يابني..

***

على مقهى السلامة التقى نورالدين بحكيم وأنس وغاب أحمد ومينا عن لقائهم المعتاد.. ابتدر أنس نورالدين فور وصوله بقوله:

أهلا أبو نسب! بقى عينكم على أختي ومتقليش ياراجل؟!

والله يا أنس أنا زيك.. ولا كنت أعرف حاجة.. وحسام فاجئنا بالموضوع بعد مارجع من عندكم.

أنا روّحت البيت ليلتها لاقيت أمي بتقول لي بارك لأختك اتخطبت لحسام أخو صاحبك نورالدين وكأني ابن البطة

السودة في العيلة دي وآخر من يعلم.. كدة مشاريبي الليلة على أخو العريس!

طيب وبالنسبة للمعازيم، يدفعوا لنفسهم؟! الليلة كلها عليك يا نورالدين، زيي زي أنس ولاّ أنا أغنى منه يا أخي؟ دة حتى عندي لكم خبر حلو أنا كمان ويستاهل عزومة كاملة مش بس مشاريب، الديوان بتاعي هيتنشر منه قصايد في الأهرام وربكم يسهل يمكن أطبعه قريب..

- أنا قريته كله يا حكيم وعجبني، قول لي استقريت على اسم له ولا لسة؟

"ميلادُ أمّة" إيه رأيك في الإسم؟

ميلاد أمَة. ولّا وفاتها يا حكيم؟

ميلادها إن شاء الله وبكرة هتشوف بعينك يا متشائم أفندي.

طيب يا سي متفائل عاوز أسألك سؤال. كلها كام شهر والثورة تكمل عشر سنين من وقت ماقامت. تقدر تقول لي إيه اللي حصل يخلينا نتفاءل؟ المدن اللي أهلها هجروها؟ ولاّ الفقر اللي في كل مكان؟ ولاّ السجن اللي مفتوح لأي حد يفتح بقه؟؟

- إنت اللي مبتشوفش غير الوحش، ماتبص للخير اللي جه على إيد الثورة، إن كان الناس اللي ملكت أرضها ولاّ التعليم اللي بقى بالمجان لأي حد..

إنت بتماطل يا حكيم وعاوز تخدع نفسك، تعليم إيه اللي بقى بالمجان؟ هو عبدالناصر نفسه مش كان أبوه موظف كحيان وهو نفسه اتعلم بالمجان؟ وبقى ظابط إزاي وهو لاكان من الأغنيا ولا من الأعيان؟! يابني دة فَضْل العصر السابق وهمَة نسبوه لنفسهم! وإذا كان إحنا نسينا واحنا شايفين اللي بيحصل في حياتنا يبقى الله يكون في عون الأجيال اللي هتيجي بعدنا وهيسقوهم الخداع والدجل ومفيش شهود على كدبهم! ثم إيه قيمة الأرض اللي أتملكها وأنا جعان؟ كل الفرق إني الأول كنت جعان وأنا أجير في الأرض ودلوقتي جعان وأنا صاحبها، إيه الفايدة إني أديلك حاجة باليمين وآخد قصادها عشرة بالشمال؟! أنا مشفتش في حياتي بلد بتتخدر زي بلدنا، عشر سنين من الكدب والخداع والعنترية ومشوفناش حاجة بتتغير!! كله كلام في كلام وخداع في خداع..

إنت ليل ونهار عمال تقول خدعوكم! كأن محدش بيفهم في البلد دي غيرك؟! إيه هو اللي خدعونا فيه؟ ياحبيبي إحنا مش فرنسا ولا بريطانيا إحنا بلد قايمة من احتلال وحروب ولازم تصبر لحد ماتشوف النتيجة!

الصبر بيجيب نتيجة لما تصبر على اللي بيبني مش على اللي بيهدم، اللي بيسجن العقول عمره ماهيبني واللي بيكدب عليك عمره ماهيبني.. أنا مستعد أصبر ألف سنة بس على شرط صبري يكون على ناس أمينة مبتخدعنيش من أول يوم جت فيه، بص كويس وإنت تشوف ياحكيم! انقلاب عسكري وسموه ثورة دة مش خداع؟ أحزاب ولغوها وكل صوت يخرسوه ويقولوا عشان مصلحة الثورة دة مش خداع؟؟ "محمد نجيب" اللي خلّوه قائد لهم ووقت مافكّر إنه يرجّع الحكم للمدنيين ويرجّع الأحزاب قعّدوه في البيت وشالوه من على الكرسي وولا حد قال لهم إنتم بتعملوا إيه وبرضو عشان مصلحة الثورة دة مش خداع؟ دة حتى الإخوان حبايبهم اللي عملوا معاهم الصفقة عشان يشيلوا نجيب من غير دوشة حطوهم في السجن من "54" لحد دلوقتي بعدما نالوا غرضهم منهم، دة مش خداع يا حكيم؟؟ النظام بتاعك ماشي وفي إيده كاس يسقي الناس منه عشان تفضل سكرانة، واللي يرفض يشرب وميسلّمش عقله يحطوله راسه تحت المقصلة لما بقينا أمّة ملهاش عقل، واللي ملوش عقل يبقى سهل تسوقه الحناجر!!

كــأس الخــــوف

[الخوفُ لا يُصيب من تُحيط بهم المخاطر،
إنما يُصيب الأرواح الفارغة حتى لو أحاطت بها المتاريس]

استوقفت الأسرة تاكسي أوصلَهم للزمالك حيث استقبلَتهم أسرة العروس بترحاب كبير. جلس رشدي يتبادل أطراف الحديث مع بشير الذي أبهره بإلمامه بالكثير من الأمور وهو يحدِّثه عن ثقته برجال الجيش وسياستهم التي يراها خلاصاً للأمّة.. نهض نورالدين من جوارهما وذهب ليجلس قرب أنس الذي استقبله بقوله:

أبوك ماشاء الله عرف يخطف أبويا وشكلهم انسجموا مع بعض.

أيوة يا سيدي، واحد عسكري والتاني دايب في حب العسكر! طبيعي ينسجموا..

نزلت خديجة إلى الجمع المحتفل بها فكبَّرت فردوس وأطلقت زغاريدها فردَّت عليها أم العروس بزغاريد أخرى.. كانت خديجة قد تخرجت من مدرسة الفنون الجميلة، وكان يراها كل من حولها سهلةَ الكسر لفرط نقائها، لكن المِحن خيَّبت ظن الجميع فكانت تُثبت دوماً أنها الأكثر قوة.

تناولوا الكعك والشربات ثم مد بشير يده إلى رشدي وقرأ الجميع الفاتحة بخشوعٍ مبتهج وفرحةٍ آمنة.. جلست خديجة يكسوها الجمال والخجل بجوار حسام الذي أخرج علبة زرقاء بها دبلتان،

فألبسته الفضة يحدوها الخوف وألبسها الذهب يحدوه طول الأمل، كانت الفرحة تغمره وهو لا يكاد يُصدِّق نفسه وقد بلغَ الحُسنيين: زوجة بالغة الجمال ونسب بالغ القوة.

بعد مرور ساعات تأهبت أسرة الأعرج للرحيل، صافحوا أسرة العروس واقترب نورالدين من خديجة ببسمةٍ محايدة وعندما صافحها لم تُفلت يده سريعاً بل تطلَّعت إليه بنظرة متأملة لم يفهم نورالدين مغزاها أبداً.

***

لاحظت شريفة تغيُّر حسام في تلك الليلة، أنفاسه متراخية يقبّلها بفتور ولا يلاعبها كعادته، وما إن فرغ منها حتى استلقى على ظهره ناظراً للسقف بغير كلام.. اعتدلت وألقت برأسها على صدره العريض تحرث شعراته بأناملها وتقبِّله..

- مالك يا سي حسام؟ مالك متغير معايا الليلة؟

مفيش حاجة يا شريفة مشغول بس بأمور الشغل..

- طول عمرك مشغول ومكنتش كدة معايا أبدا! متخبيش عليا أنا برضو بفهم قولي الحقيقة أنا حاسة بيك..

أنا مش هقدر أجيلك تاني يا شريفة.. أنا وضعي حساس ولو حد عرف بعلاقتنا هيبقى موقفي صعب، وكمان أنا خطبت وعايز حياتي تمشي سليمة.

عايزها تمشي سليمة ولاّ نضيفة يا سي حسام؟!

بلاش الكلام دة يا شريفة.. إنتي عارفة مكانتك عندي..

- لا يا سي حسام، أنا مليش مكانة عندك، ومبتجيش غير لما هواك يرميك.. بس إنت عمرك ماعرفتني، أنا مش وحشة زي ماانت فاكر ولا بنام مع أي راجل يخبّط على بابي، وعمري ماسلمت نفسي لحد غيرك.. أنا مش هكدب وأقول طول عمري بحبك لكن من بعد ماإتجوزت اتعلقت بيك مش عشان بترضي جسمي لكن عشان بترضي قلبي، وبقيت بستنى الليلة اللي تجيلي فيها ومن غيرها بكون ميتة.. صحيح جوزي عمره مازعلني لكن بشوفه زي أبويا مش راجلي اللي مالي قلبي وساكن جسمي، إنت كنت راجلي يا سي حسام حتى لو كنت بشوفك كل فين وفين ومالي عليا دنيتي وراضية باللي تجود عليا به من وقتك، أنا كنت فاكراك حنين وبتحبني بس كنت هبلة ومش فاهمة، عشان إنت مبتحبش غير نفسك، بس أنا مش زعلانة منك وقلبي صافيلك وبتمنالك الرضا ترضى ومنى عيني أشوفك زي ماتحب لنفسك، بس أمانة عليك إوعى في يوم تشوفني بينك وبين نفسك واحدة خاطية ورخيصة، أنا ملمسنيش غيرك ولا هيلمسني راجل بعدك.

ضمها حسام ومسح على شعرها:

- حقك عليا يا شريفة لو وجعتك بس غصب عني والله.. أنا عمري ماشفتك وحشة ولا هشوفك. بس هو النصيب اللي بيجمع ويفرق..

صدق حسام في عزمه فلم يزر شريفة ولا رآها طيلة سنواتٍ بعد زواجه من خديجة، حتى تبدلت الحال بعد "ليلة النكسة"، تلك الليلة التي أقام فيها مركز القيادة بمعسكر أنشاص حفلاً ماجناً ملأت فيه الممثلات والراقصات جنبات قاعدة أنشاص الجوية، وتبادل الضباطُ الكؤوس وهم يضغطون على الخصورِ لا الزناد ويقودون النهودَ وليس الجنود، وناموا سكارى ليستيقظوا على طائرات إسرائيل تحلِّق في سماء مصر من أقصاها لأقصاها لا تردها رصاصة ولا يردعها مدفع فتصب أحمال النار على معسكرات الوطن ومطاراته المكشوفة أمام جنود (موردخاي هود) فدمَّروا الطائرات النائمة بجوار أصحابها.. كانت معركةً بلا معركة! و نزالاً من طرفٍ واحد، فانكسرت نفس الجندي وفقد ثقته في كل ما هو جدير بالثقة وأصابت الهزيمة النكراء الضباط بالصاعقة التي حوَّلت بعضهم لحيواناتٍ تفترس بني وطنها وبعضهم إلى نفوسٍ فارغة لا تؤمن بشيء، وقد جمع حسام بين الصفتين.. ولم يجد له ملاذاً أمام هزيمة جيشه ونفور زوجته التي تراه شبه رجلٍ لا مبادئ له ولا نخوة، سوى العودة إلى مكمنِه القديم حيث الحضنُ الوحيد الذي يراه رجلاً جديراً بحضن عاشق، فطرق باب شريفة بعد سنواتٍ طوال بعدما سُدَّت الأبواب في وجهه وأصبح الجميع يخشونه لكن لا يحترمونه، فهُم يدركون أنَّ سطوته تُخفي تحتها عجزه المكين..

***

لم يخرج بشير وسط الجماهير التي سارت إلى بيت راعيها لتطالبه بإكمال الطريق واعدةً إياه بالصبر على خيبة الرجاء، فمهما قسا الوالد لا يملك الولدُ الخلاص من حبه ولا يقوى على مواجهة الحياة بدونه، وفي زمنٍ كان يرى فيه الناس أنه لا يمكن أن تحيا مصر بغير ناصرها خرجوا ليستغيثوا بالمهزوم: "لا تتنحَ لا تتنحَ" وحده جلس بشير يتأمل كل الأحلام التي أجهضتها الهزيمة والأمنيات التي تعرَّت أمام طائرات العدو وهي تصول في سماءٍ لا تملكها، وقد سقط الصبر أمام آلاف المآتم التي سكنت كلَّ بيت ففي كلِّ بيت شهيد ولكل أم فقيد.. لم يكن بشير وحده من تغيَّر بعد النكسة، فرغم رفض نورالدين الدائم لمجلس الثورة إلا أنه لم يفقد هدوءه يوماً، لكنه بعد الهزيمة القاسية صار شخصاً آخر سريع الغضب لا صبر له على أحد، لا مع زملائه في المدرسة ولا مع أصدقائه في المقهى ولا حتى مع والده في البيت، وكان أول ما فعله بعدما أدرك الجميع حقيقة الهزيمة المُذَّلة أن ذهب إلى والده:

هل هؤلاء هم حُلمك الذين كنت ترى فيهم طوق النجاة؟
ها قد أغرقوا السفينة كلها! أنتم سكارى ولا ترضيكم إلا خمورهم المغشوشة!!

لم يغضب بشير لكلمات ولده المؤلمة بل جلس كمُتَّهمٍ بلا رد.. تائهاً كطفلٍ فقدَ الوالد والطريق.. لا يدري إلى أي جهةٍ يسير ولا يثق بكل ما آمن به طويلاً وأصبح كارهاً لكل من خدعوه..

عندما حضر حسام في زيارةٍ إلى بيت أبيه تجهَّم بشير في وجهه:

- لن أسألك عن الهزيمة، لكن لماذا الخداع؟! كيف تكذبون علينا فنهلل لسقوط طائرات اليهود وسحق جيشهم وأنتم تخبروننا أن جيشنا أصبح على أبواب "تل أبيب" بينما العار يكلل بنادقنا؟

كان لابدَّ من رفع الروح المعنوية للناس!

الكذب يخفض ولا يرفع يا بنيّ، لكن لستم الملومين بل اللوم علينا نحن عندما صبرنا على الفقر والبطش ونحن نحسن الظن بكم، ليس لطيبة قلوبنا بل لقِلَّة عقولنا.. لقد كان أخوك نورالدين على حق...

وماذا يفعل نورالدين غير الكلام؟؟ هل وقف على الجبهة؟ هل حمل السلاح؟ هل واجه العدو؟ ماذا يملك غير الكلام؟

وهل واجهتموه أنتم؟!

***

عاد (إسكندر) من مدرسته باكياً واستيقظ مينا على صراخ أمه التي تضمه وتقول:

- متزعلش ياحبيبي همّة اللي ولاد كلب ومبيستحموش وريحتهم معفنة مش احنا.

ونظرت لزوجها:

- إنت بكرة تروح المدرسة وتشوف العيال زمايل ابنك اللي كل يوم والتاني يعيطوه، وانهاردة قالوله كل المسيحيين ريحتهم وحشة!

- أروح فين يا مارية؟ دول شوية عيال ميعرفوش حاجة.. معلش يا اسكندر دول زمايلك ولو حد زعلك متكلموش والعب مع زمايلك اللي بيحبوك..

هو دة اللي قدرت عليه؟ دة بدل ماتروح تعلمهم الأدب همّة وأهلهم؟

وأهلهم مالهم؟ دول عيال وبيقولوا أي حاجة!

لأ مش عيال، ومبيقولوش أي حاجة، ولولا إن أهلهم في البيوت بيقولوا كدة مكانوش قالوا الكلام دة لابنك.

بلاش تزرعي الكره في قلب ابنك يا مارية.. الناس طول عمرها عايشة مع بعض إخوات..

لأ مش إخوات، ولا عمرنا هنكون إخوات، دول لو يطولوا هيولعوا فينا.

ترك مينا المنزل عاجزاً أمام تلك الكراهية التي تنمو في بيته، يتذكّر أمه التي كانت ترسل الطعام لجيرانها المسلمين حتى يأكلوا مما تأكل كما كانت تستقبل منهم هداياهم وأبوه إبراهيم الذي لم يكن له يوماً صديق أقرب من الحاج بشير، ويتعجَّب كيف تولَّدت تلك

الكراهية في النفوس، هل الهزيمة هي التي أخرجت الأضغان التي لم تكن ظاهرةً فلم يكن يراها قبلًا، أم أنَّ هذه الضغائن لم تكن موجودةً أصلًا وزرعَتها الهزيمة؟ ولماذا لا تغفر زوجته لمن يسيئون لها وقد غفر لها جريمتها وحمل صليبه لسنواتٍ لم يقل لها نصف كلمة يؤنبها بها منذ ليلتهما الأولى وقدّم لها كل شيءٍ إلا جسده الذي حرّمه عليها؟ لماذا يُخبّئُ الناس القسوة في قلوبهم ثم يبحثون عن الرحمة في قلوب الآخرين!

***

دخل حسين الفصل فوقف الطلاب صامتين، أمرهم بالجلوس وخط عنوان الدرس على السبورة: "المديحُ في شعر المتنبي" ثم طلب من أحد التلاميذ قراءة قصيدة المتنبي في مدح كافور الإخشيدي، انتهى التلميذ من قراءتها فأشار حسين لأحد الطلاب أن يستخرج مواطن الجمال في القصيدة، فردَّ عليه الطالب:

لكن القصيدة تخلو من الجمال!

قصيدة المتنبي، سيِّد الشعراء، تخلو من الجمال يا أجهل من دابة!!

ما قيمة جمال التراكيب والصور إذا كانت القصيدة كلها تقوم على النفاق والطمع بأن يمنحه كافور الإخشيدي ولاية أحد الأقاليم؟ الشعر يعبِّر عن روح العرب، والعرب كانت أهم صفاتهم النبل والاعتداد بالنفس وليس التزلُّف

والنفاق! ولهذا لا أرى جمالاً لروح القصيدة حتى لو كانت صورها جميلة.

- ما شاء الله! تلامذتي صاروا فلاسفة!! من أين جئت بمثل هذا الكلام يا حماراً في مسلاخ بشر؟!

لستُ حماراً يا أستاذ! ومن حقي أن أقول رأيي فيما أدرس. وهذا رأيي الذي يراه عقلي وخرج من رأسي.

مممم خرج من رأسك.. حسناً. فلنكرم هذا الرأس الذي حشاه لك المفسدون حتى تجرأتَ على فطاحلة العرب! قسماً بربي سأعيد تنظيف رؤوسكم من الأفيون الذي يحشوه في عقولكم "الأستاذ" الذي تعتبرونه قدوة حتى أفسدكم! تعال يا ولد، اِخلع حذاءك وقِف بالمقلوب، رأسك الثمين فوق الحذاء ورجلك للأعلى حتى ننفض الغباء والتبجح عن رأسك!

نفذَّ الطالب ما أُمِرَ به وأمسك حسين العصا وأخد يضربه على رجليه:

نزِّل أفكارك على الجزمة يا حبيب أمك!

بعدما انتهى من عقاب الطالب وإذلاله أكمل شرح الدرس حتى انتهت الحصة، فدخل نورالدين الذي جاءت حصته بعد حصة حسين مباشرة، كأنَّ القدر يريد أن يجمع بينهما في حلبة..

حيَّا نورالدين تلاميذه وذهب لكتابة عنوان الدرس لكنه توقف عندما سمع نحيب أحد الطلاب، ترك الطبشور واقترب منه ومسح على رأسه الذي يخفيه بين يديه وسأله:

- لماذا تبكي يا (إسماعيل)؟

قص عليه الطالب ما حدث وأكَّد زملاؤه قصته فاشتعلَت نفس نورالدين ناراً واتسعت عينه حتى صارَ كأنَّ وجههُ كله عينٌ للغضب..

أحسنتَ يا إسماعيل، أنت على صواب، لقد نافق هؤلاء الشعراء ملوكاً طغاة ليحصلوا على ثمنٍ حرام بدلاً من أن يجعلوا أشعارهم ناراً على الظالمين، فخور أنا بك! اِخلع نعلك.

دُهش إسماعيل وبقية الطلاب لمطلب أستاذهم، فكررها بحزم:

اِخلع نعلك الكريم. لقد علمتكم أنَّ الصمت على الظلم عارٌ على الأمم ومَهلكةٌ لحضارتها، والآن سأعطيكم الدرس عملياً. اِخلع نعلك.

قالها بنبرة قاطعةٍ فما كان من إسماعيل إلا أن خلع نعله فتناوله نورالدين وخرج من الفصل متَّجهاً نحو حجرة المعلمين، مشى كإعصارٍ نحو حسين الجالس على مكتبه والذي ارتعدت أوصاله لرؤية الغضب قادماً نحوه ففتح فمه مذعوراً ينتظر ما يكره..

وقف نورالدين أمامه:

- لماذا فعلتَ ما فعلتَ؟

- لا أفهم قصدك يا أستاذ نورالدين؟!

- لماذا فعلتَ ما فعلتَ؟

هو فصلي كما هو فصلك وهم تلاميذي ومن حقي تأديبهم قبل تعليمهم.

- تأدِّبهم أم تمحو إنسانيتهم؟! هل حمَلك كرهك لي أن تصبح حيواناً فتذل طالباً نابغاً لمجرد أن قال رأيه في منافقين من أمثالك؟ إنَّ حذاءه الذي جعلته مكاناً لرأسه خيرٌ من كل شعرائك المنافقين وخيرٌ من رأسك التي تمتلِئُ بالغباء وقلبك الذي يملؤه الحقد. ومحل هذا الحذاء فوق رأسك وليس تحت رأس تلميذي!

وانهال بالحذاء فوق رأس حسين فهرع المعلمون ليفصلوا بينهما وأمسك أحمد بنورالدين حتى يبعده عنهم، وصارت جلبة وفوضى في المكان كله وأصبح ما حصل حديث المدرسة، فكان رد فعل نورالدين خير رد لكرامة تلميذه، وسبيلاً لمعاقبةِ حسين، ولهلاكِ نورالدين...

دخل حسين على ناظر المدرسة مذعوراً:

لو مجبتليش حقي يا حضرة الناظر أنا هقدم استقالتي حالا!

- خير يا حسين إيه اللي حصل؟!

قصَّ عليه ما حدث، وزاد عليه أنَّ نورالدين حين ضربه بالحذاء قال له "نعل الطالب خير منك ومن شعرائك ومن عبد الناصر نفسه!" جزَّ الناظر على أسنانه:

- هي وصلت للدرجادي!! اكتبلي تقرير باللي حصل وخلي كل زملاءك يمضوا عليه وأنا كمان شاهد معاك.

أرهب الناظر كل المدرسين الذين شهدوا الواقعة وحملهم على أن يشهدوا زوراً بأنَّ نورالدين سبَّ عبد الناصر، عدا أحمد الذي امتنع عن الشهادة وقال هذا كذبٌ ولم يحدث. فكان جزاؤه أن تم الزج باسمِه كشريكٍ لنورالدين في الاعتداء على حسين، ثم تمَّ رفع التقرير إلى إدارة التحقيق التي رفعتها بدورها للشرطة.

***

نهض بشير على إثر طرقٍ عنيف على باب الشقة كاد أن يخلعه، فتح الباب فاندفع سبعة جنود مدججين بالسلاح وفي إثرهم ضابط برتبة نقيب..

- خير يابني؟ في إيه؟ وعايزين مين؟ وليه تدخلوا على الناس بيوتها كدة في الفجر؟!

دفعه الضابط بعنف:

- فين نورالدين؟

استيقظ نورالدين على إثر الجلبة فخرج من غرفته، وما إن لمح الجنود المدججين حول أبيه حتى سارع نحوهم:

- أنا نورالدين، محدش له دعوة ببابا.

اقترب منه الضابط:

البس هدومك وتعال معانا.

صرخت فردوس وأخذت منيرة صالح في حضنها..

غيَّر نورالدين ملابسه، فوضع الجنود القيد في يديه واقتادوه، وعند الباب جرَت منيرة عليه فاحتضنَته وأحاطت وجهَهُ بكفيها كمن يعلم أنها النظرة الأخيرة لوجه حبيب: "*متخافش ياحبيبي إنت من الأبرار والرحمة هتكون ليك وزَرْعِتَك مهما قطعوها هتكبر. متبكيش يا نورالدين متخليهمش يشوفوا دموعك!*"

سحبه الضابط من بين يديها ومضى به نحو السيارة المنتظِرة أسفل المنزل واقتادوه نحو قسم الشرطة. اتصل بشير بحسام ليُبلِغه ما حدث، فقال له:

متقلقش يا بابا أنا هتصرف.

ثم اتصل حسام بوالد زوجته وأخبره الخبر، فقال له:

أنا كنت عارف إن دة هيحصل وبلغتك تحذّر أخوك أكتر من مرة لأن اسمه حواليه شكوك لحد ماودى نفسه في

داهية وكمان شبه ابني أنس بسبب لسانه اللي مبيسكتش.

- لكن يا سيادة العميد لازم نعمل حاجة دة برضو أخويا!

- يا حسام متحاولش تعمل أي حاجة، أنا بالفعل عملت اتصالاتي ولولا تدخُّلي كان زمانك برة الجيش دلوقتي، ماإنت عارف ظروف البلد اليومين دول، الحكاية مش ناقصة أي شكوك في ولاء الظباط بالذات، أنا بالعافية قدرت أقنع القيادة في المخابرات إنك ملكش علاقة باللي أخوك بيقوله. احذر إنك تضيّع اللي قدرت أوصل له.

طيب إيه اللي تنصح به يا سيادة العميد؟

أنصحك بالسكوت خالص وعدم التهور.

استيقظت خديجة على مكالمة زوجها مع والدها:

إنتو اعتقلتوا نورالدين؟!

اسكتي يا خديجة! يعني إيه اعتقلناه؟ مانا نايم جنبك أهو، أنا حذرته كتير إنه يبطل يردد كلامه الغبي في كل مكان!

أفهم إنك مش هتتدخل ولا هتعمل حاجة عشان تنقذ أخوك؟

هنستنى ونشوف التحقيق هيخلص على إيه..

تحقيق؟ إنت عارف كويس التحقيقات بتاعتكم بتكون إزاي؟! هيعذبوه لحد مايموت أو يعترف باللي عاوزينه! وأخوك مش هيفرط في مبادؤه ولا هيقول اللي هيرضيهم ماإنت عارف إن عمره ماكان زيك!

احترمي نفسك يا خديجة إنتي مش هتكوني أحنّ على أخويا مني!

إنت مبتحنّش على حد غير نفسك يا حسام! وإذا كنت مش خايف على أخوك يبقى إزاي هتطمّن على نفسي معاك؟! دة لولا مكانة بابا كنت بعتني عشان تزود دبورة على كتفك ماإنت تقدر تبيع شرفك زي ماقدرت تبيع أهلك!

همَّ حسام بصفعها لكن ذِكر أبيها في الحديث ألجمه. فترك السرير وأشعل سيجارة وسار نحو الشرفة ينفث دخانه المحموم في وجه الهواء وهو يتمتم: "تعساً لك يا نورالدين! من تظن نفسك؟!"

***

اجتمع حكيم ومينا وأنس على المقهى وقد علت رؤوسهم يد الكآبة..

- إنتوا عرفتوا يا جماعة إن نورالدين اعتقلوه من يومين؟

أيوة يا حكيم، ومش نورالدين بس، أحمد كمان اعتقلوه. أبويا اللي قالي، وكان عايز يحبسني في البيت عشان مشوفش الشلة كلها.

أبوك ميقدرش يعمللهم حاجة يا أنس؟ ماهو واصل وله اتصالاته بكل الجهات؟

كلّمته أكتر من مرة يا مينا وكل مرة يقولي هشوف، وآخر مرة قالي "ملكش دعوة بيهم، لو كان الأمر بإيدي كنت أعدمتهم بنفسي مش بس اعتقلتهم! دول عالم عايزة تخرب البلد وإحنا في الظروف دي!"

أنا ياما حذرت نورالدين ميتكلمش في السياسة على الأقل في شغله، يقوم نورالدين يضرب زميله بالجزمة ويشتم عبد الناصر كمان!!

- يا حكيم إنت عارف كويس إنه مشتمش عبد الناصر، نور وأحمد قالولنا كل اللي حصل في وجودك، هو ضربه لكن مشتمش حد، ولاّ إنت مصدق حسين والناظر ومكدب صاحبك؟؟

- حتى لو مشتمش! ليه ميسكتش والبلد في الظروف المهببة دي؟!

هو مين اللي وصل البلد للي إحنا فيه؟ هو نورالدين اللي خد قرار الحرب ولاّ هو اللي أمر الجيش ينسحب والعساكر تتوه في الصحراء واليهود يصطادوهم زي الفراخ؟ هو نورالدين اللي كان جاب النكسة للبلد ولا همّة؟

خلاص يا أنس روح قدم شكوى في أبوك ماهو واحد من المسؤولين عن النكسة مادمت وطني أوي كدة!

احترم نفسك يا حكيم. إنت إنسان بلا شرف ومش حاسس باللي أصحابك فيه. على الأقل يا أخي تعاطف معاهم بدل ماتحملهم المسؤولية!

أنا محترم أحسن منك. إنت اللي عاوز تعيش دور البطل!

خلاص يا جماعة إحنا مش جايين نتخانق إنت وهو! إحنا في إيه ولا إيه يا أخي؟! خلونا نفكر في حاجة مفيدة.

- سيبك من أبو أنس يا حكيم. قولي إنت مش بقيت شغال في الأهرام وليك اتصال بالصحفيين الكبار؟ ماتحاول تخلي حد فيهم يتدخل عند السلطات؟

أهرام مين يا عم! كانت نفعت نفسها. إحنا معانا صحفي من أعز أصدقائي اعتقلوه امبارح هو كمان بعد مانزّل مقال عن أسباب النكسة.

- يعني عرِفت إن السلطات بقت بتبطش بأي حد صوته يطلع يا حكيم؟

- عارف يا أنس! بس في الظروف دي لازم نكون كلنا حوالين الجيش والقيادة لحد مانعرف آخرها إيه.

ملهاش آخر يا حكيم. ملهاش آخر. اللي أوله ضلمة عمره مايكون آخره نور..

***

في (السجن الحربي)، بزنزانة كبيرة بلا أسرّة ولا أغطية، ينام خمسون فرداً بجوار بعضهم على الأرض الإسمنتية لعل أجسادهم المتألمة تُدفِئُ بعضها بعضاً، ولعل الخوف يُسلِّي الخوف والوهن يشد من أزر الوهن. رقد نورالدين بجوار أحمد الذي ترتعد أوصاله بعد نوبة من الجَلد استمرت لأكثر من ساعتين ونورالدين يغطيه بسترته لعله يكف كف البرد الضاربة ولا يجد ما يضمِّد به جراح صديقه ليخفف عنه..

سامحني يا أحمد أنا السبب في وجودك هنا ليتك ما عرفتني أبداً فلا تشاركني زنزانتي.

لا فرق يا نورالدين زنزانة هنا أو زنزانة بالخارج مادام السجان هو الحاكم، نحن أسرى سواءً كان القيد بأيدينا أو على أفواهنا.. جلدوني ثمانين جلدة يا نورالدين كأنني فاسق قذف أعراض الناس فأنزلوا بي حد القذف.

هم الفسقة يا أحمد! يُخرجون أمراضهم وهزيمتهم النفسية على ظهور الضعفاء ليواروا سوءتهم القذرة وينسَوْا عجزهم أمام العدو بتجبرهم علينا! أزعَجَتهم عيوننا الغاضبة التي تفضح خيانتهم وخزيهم فأنزلوا بنا سوء العذاب. اِصبر يا صديقي سيجعل الله لك فرجًا قريباً.

- إن شاء الله فرجٌ لنا جميعًا يا نورالدين، فأنا لن أخرج بدونك.

هل تعرف يا أحمد؟ الآن فقط فهمت كلمات منيرة، لقد كانت تعلم هذا المصير ولذلك أوصتني بالصبر حتى لا أُشمت هؤلاء القساة بي ولا أُفرح قلوبهم بضعفي، كانت تعلم ما سينزل بنا وكلامها يعني أني لن أخرج من هنا حيًّا.. أنا لا أخاف الموت، لكني الحق أقول لك لا أريد أن يعذبوني، ليس خوفاً من الألم ولكن كرهاً للهوان فقد جرّبت الجلد قبلك، السوط مذل يا أحمد يجعلك تصرخ كامرأة مغتصبة، كنت أكتم صرختي تحت سوطهم وأنا أرى الغيظ في عيون الضابط الذي يراقبني وينتظر صراخي ورؤية ضعفي، كان ثباتي يقهره فيأمر الجندي أن يضربني بقوة أكبر وهو يقول له: "اِجلده بقوة يا ابن الزانية وإلا جلدتك بدلاً منه!" فكان الجندي يضربني حتى أشعر أنَّ عظامي ستتفتت وما يرحمني منهم إلا الإغماء..

كم أتمنى لو يجيءُ حكيم ليرى بعينيه ما يفعله هؤلاء الذين يدافع عنهم!!

حكيم لا يؤرقه ما يحدث كثيراً، هل تظنه لا يعرف حقيقتهم؟ هو فقط يحب أن يكون مع الكفة الراجحة ويدور مع المكسب حيث دار، الذي سينفطر قلبه حقاً هو أنس، فسيشعر بالألم لأنَّ والده واحد من هؤلاء الجلادين ومثله مينا المسكين الذي سيشعر بعجزه أمام اعتقالنا..

- معك حق.. أنا لم أرَ بحياتي أحداً أكثر رحمة ولا رقة من مينا، هو دوماً مستعد لتحمل كل إيذاء الكون نيابة عن أي أحد حتى لو كان عدوه.

***

ذهبت خديجة لزيارة أهل زوجها لترى أخبار الأسرة المكلومة في ولدها، جلست بجوار فردوس تصبِّرها وتعِدها أن تضغط على والدها ليتدخل في سبيل إخراج نورالدين وهي تجتهد أن تبدو حزينة حزناً محايداً حتى لا تظهر فجيعة قلبها على ذلك الأسير الذي أسرَ فؤادها منذ سنوات عندما كان يزور أخاها عندما كانت تدرُسُ بالكلية (فلسفة الجمال)، وكان أحياناً يقوم بشرح بعض الدروس لها فينشرحُ له قلبُها قبل أن ينشرحَ عقلُها، أسرَها خُلقه الرفيع إذ كان طوال الوقت لا يرفع عينه إلى وجهها الصبوح، وعندما لامست يده مرة بخطإٍ مقصود

وهي تسحب الورق من بين يديه انتفض كالملسوع، اعتذرت منه وابتسم لها لكنه ما عاد يزور بيت أنس من بعدها أبداً..!

أنا زعلانة أوي من حسام يابنتي، إزاي يسيب أخوه في الضيقة دي وهو ظابط قد الدنيا؟! أنا عارفة إن مركزه مهم ومقدرة إنه خايف على شغله بس برضو دة أخوه!

والله يا ماما هو بيحاول يعمل كل اللي يقدر عليه وأكيد مش هيتخلى عنه بس الحكاية صعبة وممكن تاخد وقت.. أنا عايزاكي تطمني وتدعيله وإن شاء الله ربنا يفرج عنه.

نورالدين ربنا بيحبه، هو مش هيخرج لكن مش هيقدروا يحبسوه.

- يعني إيه يا منيرة مش هيخرج لكن مش هيحبسوه؟

يعني السجن مش هيسجن قلبه لإن قلبه حر حتى لو إيده ورجله في الحديد.. لسة شوية على زمن الفرح يا خديجة بس مسير القمر يظهر في السما والأخ هيحضن أخوه ولو بعد سنين!

***

جلس حسام أمام المحقق العسكري يعلو ملامحه القلق والارتباك وكثير من الخوف، سأله المحقق عن موقفه من أخيه فأكد له حسام أنه ليس راضياً عن أفكاره وآرائه وأنه غاضبٌ من مواقفه، ثم تابع قائلاً:

- ولكني واثقٌ أنه لم يتعرض لسيادة الرئيس، هو أخي وأنا أعرفه.

- ولكن زملاءه وناظر المدرسة أكدوا الواقعة.

- أنا أنقل لسيادتك ما سمعته من نورالدين، فقد أكد لي أنه لم يسبَّ سيادة الرئيس وأنَّ شهادتهم ملفَّقة.

وهل تصدِّقه يا سيادة النقيب؟

الحقيقة لا أعرف، وإن كنتُ أُدرك أنَّ أخي متهور وقد يفعل أي شيء..

حسناً هذا يطمئننا لموقفك.. وسأكون صريحاً معك.. سيادة العميد رشدي تدخَّل من أجلك وتم تأجيل هذا التحقيق ولكن إدارة المخابرات صمَّمَت على إجرائه للتأكد من موقفك. ولديَّ عِلم بأمرٍ لم يكن من المفترض أن أخبرك به بنفسي، ولكن لتعاونك معنا سأخبرك به: لقد تقرَّر نقلك إلى إدارة السجون، وتحديداً السجن الحربي.

ولكن أخي معتقل هناك وسيكون موقفي صعباً.

لهذا السبب تحديداً سيتم نقلك إليه. يجب أن نتأكد أنَّ ضباطنا ليس لهم ولاءٌ إلا للجيش فقط.. وأنت على وشك الترقية إلى رتبة (رائد)، فما قولك؟

تبسم حسام عندما سكنت أذنه كلمة (ترقية) وقال:

يا سيادة العقيد سأفعل كل ما تأمروني به وسأكون عند حسن ظنكم.

صدقني هذا الأمر له وجهان، قد يكون نهايةً لحياتك العسكرية، وقد يكون طريقاً لثقة القيادة بك إذا تعاملتَ كضابط عسكري حتى مع أخيك، وساعتها سيكون خيراً لك على كل المحاور.

حسنا يا سيادة العقيد، متى تتوقع نقلي؟

لا أعرف تحديداً، ولكن توقَّعه قريباً جداً.

انصرف حسام متجهاً إلى بيت أبيه وهو حائرٌ يفكر في الفخ الذي نصبته له قيادته، ولا يعرف لماذا وافقهم بهذه السرعة، فقد كان يتمنى ألَّا يكون بتلك المواجهة البشعة بأن يصبح سجاناً لأخيه وجلاداً لظهره، لكنه ما كان ليترك فرصة يُثبِت فيها لقادته أنه جدير بالثقة والترقِّي.. وصل إلى البيت فاستقبلته والدته بوجهٍ أكله الألم والحزن على ابنها..

مفيش أخبار عن أخوك يابني؟

معرفش يا أمي أنا بتصل بكل الجهات عشان نخرّجه من المصيبة اللي حطنا فيها كلنا دي..

- أخوك ابن حلال يا حسام ومعملش حاجة، وإنت هتقدر تخرجه إن شاء الله، إنت الخير والبركة ودول زمايلك وأكيد هيسمعوا كلامك ويعملولك خاطر!

- ربنا يسهل يا ماما، فين بابا؟

- أبوك في الوكالة من الصبح، من وقت ماخدوا نورالدين وهو بيقعد هناك لقرب العشا ومبقاش بييجي على الغدا زي عوايده، كلنا قلوبنا واجعانا على أخوك وحالنا اتبدل.. حكمتك يا رب.

ذهب حسام إلى والده يبحث عن صكِ قبول لمهمته القذرة التي صار رهانُ حياته موقوفاً على أدائها على الوجه الأبشع، جلس بجوار أبيه الكظيم الذي صافحه بيدٍ مرتخية تريد الانسحاب سريعاً من يدٍ تخلت عن أخيها، فقد كانت صدمة بشير في تخاذل حسام عن إنقاذ أخيه أشدَّ من صدمة فقدانه لنورالدين..

خير يابني..

خير إن شاء الله يا بابا، أنا عرفت أنه هيتمّ نقلي للسجن الحربي..

هز بشير رأسه كفرخ حمام تحت السكين:

وناوي تخرّج أخوك؟؟ ولا هتساعدهم في تعذيبه وجاي تاخد الإذن مني؟

أرجوك يا بابا، أنا مملكش شيء من أمري ودة قرار الإدارة مش اختياري.

عارف إنه مش إختيارك، عشان أكيد مش هتكون عاوز تشوف حقيقتك وخزيك قدام أخوك اللي بتحمّله المسؤولية بدل ماتدافع عنه حتى لو هترميلهم بدلتهم العسكرية في وشهم!!

إنت فاكرني وزير الحربية؟! أسجن اللي عاوزه وأخرّج اللي عاوزه؟؟ ومين اللي حطنا في دة كله؟ مش ابنك بتهوره وقلّة عقله؟

احترم نفسك يا قليل الأدب وإنت بتتكلم عن أخوك الكبير! نورالدين عقله يوزن ألف من أمثالك! إحنا مطلبناش منك شيء ولا عاوزين منك مساعدة. روح لجيشك المهزوم اتمسح في جزمتهم واجلد أخوك واثبتلهم إنك ندل وابن حرام وملكش خير حتى في أهلك! روح بعيد عني مش عايز أشوف وشك اللي بيفكرني قد إيه كنت مغفل لما وثقت فيكم! إنت حرام عليا ليوم الدين! لاتجيلي هنا تاني، ولا تدخل بيتي، بيت نورالدين.

انتفض حسام من مجلسه وقد اسوَّدَ وجهه:

- إنت طول عمرك شايف نورالدين أحسن مني، ودايماً بتفضله عليا وتظلمني!!

- ياريتني كنت بشوف.. طول عمري كنت أعمى وإنت دليل عمايا! روح لحالك يابني وربنا يجازيك باللي مخبيه في قلبك.

***

فتح الجندي الزنزانة قبيل الفجر ونادى نورالدين، وضع القيدَ في يديه ثم اقتاده لغرفة التحقيق التي زارها مرةً بعد مرة وأذاقوه فيها العذاب حتى عرفت الحوائط رائحة عرَقه ومذاق دمه. وقف أمام المحقق الرابض بوسط المكتب وعن يمينه يجلس حسام.

ثبَّت نورالدين نظره على حسام ووجهه يختنق بنظرةٍ أليمة ثم خاطبه وهو يتبسم:

يبدو أنَّ تحقيق الليلة سيكون تحقيقا أسرياً.

خفض حسام رأسه متصاغراً أمام عِزة أخيه فضرب المقدم (بدران) المكتب بقبضته:

لا تتكلم إلا إذا سألناك! سيادة النقيب حسام هنا للتحقيق معك فلا تنتظر أيَّة معاملةٍ خاصة.

أنا لا أنتظر معاملةً خاصة لا منك ولا منه! أنتم لا تمتلكون من أمري شيئاً بل ولا تمتلكون شيئاً من أمر أنفسكم، وغاية قوّتكم أن تستبدوا بأمثالي.

أدرك حسام أنه أصبح محبوساً في الزاوية بعد كلمات نورالدين، فهو تحت مراقبة المقدم بدران الذي يعلم جيدًا أنه يختبره هو قبل أن يحقق مع أخيه السجين، فأراد أن يثبت جدارته منذ الجولة الأولى:

- أنت متهم بترديد إشاعاتٍ حول الجيش والقيادة، وتحريض تلامذتك والاشتراك في تنظيمات تخريبية هدفها قلب نظام الحكم وزعزعة الاستقرار، والاعتداء على زميل لك وتحريض الطلاب وسبِّ الرئيس، فما قولك؟

تسألني بوصفك أخي أم بوصفك السجان؟

- بوصفي المحقق.

وما دليلك على ما تقول؟

أنا هنا من يسأل يا نورالدين.

أنا لم أردد إشاعات، وأنفي كل ما تقول. نعم قد ضَربتُ زميلي، ولكنني لست عضواً في أي تنظيم ولم أسبَّ الرئيس لا في المدرسة ولا حتى في جوفِ بيتي، وأنا أطلب شهادتكَ في الأمر، ألستَ فرداً من الأسرة يا سيادة النقيب؟

- لا تُقحم الأسرة في الأمر، وتعاون معي خيرٌ لك.

أنا لا أتعاون مع القتلة الظالمين! وها أنا أقولها في وجوهكم، أنتم خنتم الأمَّة وخدعتمونا ولم نَرَ على أيديكم إلا الهزائم! كممتم الأفواه وأدخلتم الجيش في حربٍ غير محسوبة فدمَّرتم جيش الأمَّة وقتلتم زهرة شبابها وبدلًا من تنحيّكم واعترافكم بالعار الذي جلبتموه لنا تجبرتم علينا، ولستُ أُحرِّض تلامذتي كما تقولون بل أُعلَّمهم كيف يفكرون وأنتم تريدون أُمَّة من السكارى! ولم أسبَّ الرئيس، ولو فعلت لقلتُ ذلك بلا خوف ولكني لم أفعل.

أنت تثبت أنك إنسانٌ متهور وبلا عقل، من تظن نفسك؟! ستدفع ثمن تبجحك وخيانتك للوطن باهظا!!

نعم سيدفع الخونة ثمن خيانتهم طال الزمان أو قصر.

- كُف عن هذا الكلام أيها المجرم. لقد كنت أظنك مظلوماً والآن اطمئنّ قلبي أنك مستحقٌ لما أنت فيه.

ثم نادى حسام على الجنود الواقفين أمام الباب وأمرهم بتعليقه عارياً و جَلْده فسحبوه إلى حجرة التعذيب وهم يصفعونه. ضغط المقدم بدران على كتفه وهو يبتسم فأخرج حسام علبة سجائره وناوله سيجارة وأشعلها له بنفسه، فقال له بدران:

تعال لنشاهد الحفلة سوياً.

أدرك حسام أنه يضعُه في اختبارٍ أشدَّ قسوة بمشاهدة أخيه معلقاً تحت الجلد بأمرِه، فهز رأسه:

- لنلحق بالعرض.

كان مصمماً أن يبلغ الغاية القصوى وأن يسحق قلبه بيديه حتى لا يقف عائقاً أمام أحلامه وأن يسبقهم إلى ما يظنون أنه سيتردد عنه، فكانت خطوته أسبق من خطوة بدران كأنه الأحرصُ على رؤية عذاب أخيه.

دخل الغرفة ليشهد أخاه معلَّقاً كالذبيحة من رجليه وثلاثة من الجنود يتناوبون على جَلده بسياطٍ غليظة حتى تمزق الجلد وتهشّم العظم وخانه صوته وارتخى صبره تحت وقع العذاب. أراد أن يصرخ لكنه كظم الآهات المهينة واستبدلها بكلمة واحدة يكررها: "يا رب.. يا رب.." وحسام واقفٌ وقد جحظت روح الشر في عينيه يهزمه صبرُ أخيه الذي يفضحُ دناءة نفسه وهو صابرٌ تحت العذاب الأليم بينما لم يصبر هو أمام غواية طموحه الرخيص. أشعل سيجارة نفث دخانها في وجه أخيه المعلَّق ثم أطفأها بصدره وأمر الجنود بضربه أكثر وهو يصرخ فيهم "مزّقوه يا أولاد الزنا" وهو يكاد يُجنّ أمام صبر أخيه الذي لا ينفد:

هل تحسب نفسك بطلًا؟ وهل تظن نفسك نبيًّا فينزل الله من السماء لإنقاذك؟ قسماً بحق الإرادة لو نزل ربك لوضعته في الزنزانة التي بجوارك. لا إرادة تعلو فوق إرادة الجيش.

***

لم تستسلم فردوس لكل ما يحدث، بل كانت تخبر نفسها أنَّ كل هذا كابوسٌ مقيت سيمر سريعاً ولا شك، فلا يمكن أن يمسَّ ولدها أذًى وهو البار الخلوق، وتثق أنَّ الله لا يُسلِّم الأخيار للشر أبداً فكيف يمسُّ ابنها شر وهو خير الأبناء..

كفَّت عن مطالبة بشير أن يحدّث حسام أو رشدي للتدخل منذ أن نهرها وأقسم أنه لو كانت حرية ابنه مرهونةٌ بتدخل الأنذال فإنَّ سَجن ابنه لأحبُّ إليه، وحتى لا تطالبه مرة أخرى حزم الأمر وأنهاه بقوله أنه لا أولاد له إلا نورالدين ومنيرة، وأنَّ حسام ليس ولده بل غريب، والكريم لا يستجدي الغرباء.

صارت فردوس تتحين الفرص لتزور حسام وتبكي بين يديه وتتوسله لإنقاذ أخيه الغائب منذ أشهر، فتعطف عليها خديجة ويرغي حسام ويزبد ناقماً على أخيه الذي ألقى بنفسه للهلاك وتسبب في غضب أبيه عليه، ولما يئست منه زارت بيت سميحة زوجة رشدي، ليس كندٍّ لها ولا كأم لزوج ابنتها بل كمسكينة تطلب صدقةً من وسيلة وزكاةً من شفاعة، فتبكي معها سميحة وتحن عليها:

- والله كلمته يا ست فردوس كتير ووعدني أنه هيتدخل.. صبرك بالله ربنا مش هيضرك في نورالدين دة نعم الشباب.

وعندما دخل رشدي عائداً من عمله تجهَّم لرؤيتها وحياها بغير مودة:

- أهلا يا ست فردوس. خطوة كريمة.

- أهلا يا سي رشدي، معلش أنا قاصداك وعارفة إنك إن شاء الله مش هتخيّب رجايا، وإنت ماشاء الله ليك كلمة ومكانتك عالية، قلبي واجعني على إبني، خلّيهم يخرّجوه ووالله ماهخليه يتكلم في حاجة وحشة تاني أبدا، دانا إبني عاقل بس الشيطان بيوسوس للبني آدم بالغلط.

- إبنك يا ست فردوس ضر نفسه وكان هيضرنا كلنا معاه وتطاول على الكل وحط نفسه في موقف صعب.

البركة فيك يا سي رشدي وإن شاء الله هيعقل وميعاودش الغلط تاني.

ربك يسهل يا ست فردوس. أنا مش ساكت وبحاول بكل جهدي.

ربي يخليك لنا..

عندما علم بشير بزيارتها لبيت رشدي غضب منها كمن لم يعرف الغضب يوماً وغلى دمُ قلبِه للإهانة التي ألحقتها بهم فزجرها قائلاً:

- والله لولا كرامتك عندي وعشان عارف وجع قلبك على إبنك مكنتش خليتك على ذمتي يا فردوس!

دة إبني يا بشير! ولو أطول أطلع السما وأخرجه من كربه مش هتأخر.

- إبنك اتسجن عشان راجل وعنده كرامة، وزيارتك للي سجنوه هتهد كرامته، إبنك مرفوع الراس، ولو في رحمة للسجين فمش هتكون من السجان يا فردوس. الزمي عقلك وادعي صاحب الأمر اللي قادر يرفع الكريم ويخفض الظالم.

ثم قام غاضباً وخرج قاصداً الوكالة رغم كساد البيع، فقد خلت طرقات الوكالة من الناس، بعدما أصابت النكسة النفوس بالوهن، وما عاد أحد يرغب في شراء قماش ولا ملابس، وصار تجار الوكالة يفتحون متاجرهم طرداً للملل فيُسلِّي بعضهم بعضاً، كأنَّ ترادف الفقر وشيوع الهمّ بين الجميع يسلِّي النفوس المتوجعة ويهوِّن على الجيوب الفارغة.. كلما شكى تاجر همّه لصاحبه يسمع منه شكوى أشد ألماً فتهونُ عليه بلواه، فقد اجتمعَت عليهم ويلات النكسة التي ضربت البلد كلها بالكساد، وعزوف الناس عن الاقتناء، بعدما استيقظوا على هزيمة قاسية وخديعة قاصمة لم تقصم عزة النفوس فقط بل قصمت إيمانهم بالمبادئ القديمة، فانتشرت كل الآفات التي لم تكن بينهم يوماً واهتزَّ إيمانهم واضطرب فانتشرت الموبقات في طولِ البلاد وعرضها، وأصبح الناس يهرعون لكل تافهٍ ورخيص، وكأنَّ مصر كلها في هروب جماعي من واقعها الأليم، تبدل فيهم كل شيء حتى ملابسهم، فانتشر التهتك والسفور وصار التعري سمة المجتمع فقراؤه قبل أغنيائِه، وانتشرت الأفكار التي لم يعرفها الناس من قبل فعرفوا الإلحاد وسقطت الأخلاق وما عاد للضمير من قوة تزعُ الراغب عن رغبته وأصبح العبثُ سيد الموقف فيتخبطون تخبط السكارى حتى كرِه الناس بعضهم بعضاً، وإذا فقدَ المرء ثقته بنفسه صار لا يأمن

لكل من حوله، فخوَّن الشقيقُ شقيقَه وما عاد يأمن الجارُ جارَه ولا الخليلُ خليلَه، وأصبح الكل يردد: "الحوائط لها آذان تسمع الكلام وتنقله لمن لا يرحم الأنام" أصبح الخوف ديانة الناس، فكل مخدوعٍ يخاف، ومن ذاق الخيانة أدمن الخوف.

***

بعد أيامٍ قضاها بمشفى السجن الحربي بعد حفلة من العذاب الرهيب شرب الطغاة فيها نخباً من دمه الذي أساله أخوه بيديه. خرج نورالدين وعاد إلى زملائه بالزنزانة الكبيرة.

اقتربَ منه رجل نحيل تكاد عظامه أن تخرج من ثيابه بعدما فقد لحمه تحت العذاب:

- حمدا لله على سلامتك يا أخي. هذا ابتلاءٌ من الله، يبلو به عباده المؤمنين ليعرف الصابر من الجزوع، وأنت من المؤمنين وسيجعل الله لنا فرجاً قريباً وينصر دينه وعباده الصالحين.

الابتلاء لمن صدَقَ وسط الكاذبين ولم تتلوث يده بمعاونة الخائنين. وليس لمن عقد الصفقات فدفع ثمنها.

ماذا تقصد يا أخ نورالدين؟ لماذا تتحامل علينا منذ وصلتَ إلى هنا وتتهمنا وكأننا نحن من سجنَّاك؟ يا أخي نحن معك في المحنة ذاتها!

- بل أنتم أحد أسباب هذه المحنة. لولا خيانتكم لمحمد نجيب وعقدكم الصفقة مع ناصر لما تمكنوا من البلد كله. طمعكم في وراثة حزب الوفد والحصول على الصدارة هو ما مكَّن العساكر منا ومنكم.

الإخوان لم يعقدوا صفقة مع أحد. ولسنا نعلم الغيب. وقد كنا نحسب أنَّ الرجل فيه خير. فقد كان قريباً منا على الدوام..

وتلك مصيبتكم. تحسبون أنه لا خير إلا في من يقترب منكم. ومن فضح طمعكم ونهجكم فهو بعيد عنكم. ومن ابتعد عنكم فقد ابتعد عن الله. بأي حق تختزلون الله في أنفسكم فلا إسلام إلا إسلامكم ولا حق إلا ما ترددون؟ أنتم تعاهدون الشيطان ابتغاء وجه الله وتسلكون طريق النار طمعاً في الجنة. أي خلط هذا وكذب وتدجيل؟!

- يبدو أنَّ التعذيب قد أذهبَ عقلك وأصاب قلبك بالعمى! فبدلاً من أن تقترب من إخوانك في المحنة فإذا بك تعاديهم وتدَّعي عليهم ما ليس فيهم. اِتَّقِ الله ليجعل لك مخرجاً!

- ألم أقل لك أنَّ مصيبتكم أنكم ترون أنَّ من يخالفكم يخالف الله؟! أتركني وشأني!

اقترب أحمد من مجلسهم:

- أُترك نورالدين يا شيخ (إسماعيل) فالرجل فيه ما يكفيه!

فانسحب إسماعيل وعاد إلى رفاقه وهو يدعو له بالهداية..

هوّن عليك يا نورالدين. نحن جميعاً في المحنة ذاتها ولا نحتاج لمعاداة بعضنا.

ما عدتُّ أطيق صوت النفاق! رؤية الخائنين تُظلم قلبي وتملؤه بالحزن يا أحمد.

دعك منهم وأخبرني ماذا حدث معك؟ منذ أن أخذوك ونحن لا نعلم عنك شيئاً إلا ما نسمعه من الجنود عن نقلك للمشفى حتى كاد أن ينخلع قلبي خوفاً عليك.

هل تعلم يا أحمد من الذي حقق معي؟ وأمرَهم بتعذيبي؟ إنه أخي حسام!

ثم انهار باكياً..

- ما يؤلمني ليست قسوته، وإنما أخشى أن يعلم أبي وأمي أنَّ أخي هو من يعذبني. سيموتان كمداً!

نعم علمتُ بوجوده هنا، فلقد حقق معي بنفسه، والحق أنه لم يأمر بتعذيبي لكنه كان جافاً معي للغاية، وطلب

مني أن أنصحك بتغيير موقفك وأن تعترف بما حدث وتعلن أنك نادم عليه، وهذا سيساعده في إخراجك.

لن أمنحه راحة الضمير ولو دفعت حياتي، هذا إن كان لديه ضمير.

- لماذا لا نقول لهم ما يريدون حتى نخرج من هنا؟ والله مُطلِّع على القلوب يا نورالدين، وبعد الخروج ليكن ما يكون..

هل أقنعك بكلامه يا أحمد؟

لا يا نورالدين، أنت تعرفني جيداً، والله حريتك أَحب لقلبي من حريتي!

- إنهم يريدون تصديق أنفسهم، وثباتنا يفضحهم بقسوة ويؤلمهم أشد من ألم السياط فوق ظهورنا! والله لن أنطقَ بما يريدون أبداً بل سأنظر في عيونهم وهم يعذبونني فأعري قبحهم بصبر وثبات، ولن أخون تلامذتي وأخالف ما علَّمتهم إياه فقد علَّمتهم أن يموتوا أحراراً ولا يحيَوْا كالقطعان.

***

أصبح أحمد يقضي أوقاتاً طويلة مع الإخوان الذين يرافقونه المحبس، تلتف مجموعة منهم تزيد عن العشرة حول الشيخ إسماعيل

الذي كان يبثُّهم الصبر على البلاء والثبات على الحق، يخفف عنهم وقع التعذيب الذي ينالهم يوماً بعد يوم فيقول لهم: "إنَّ الظالمين يزعجهم انتشار الحقّ الذي هو دين الله ولذلك يريدون اجتثاث الدعاة من بين الناس حتى لا ترجع الأمَّة لدينها، لكن الله يكيد لدينه ومهما تكالبت القوى على دين الله لن يطفئوا نور الحقّ"

كان أحمد يرتاح لكلام الشيخ مما شجعه على أن يطرح عليه شكوك نفسه حول حركة الإخوان المسلمين، فيرد عليه إسماعيل بأنَّ أعداء الحقّ يُشيعون حوله الأقاويل بالكذب، فيُنفِّرون الناس من الحقّ حين يَنفُرون من دُعاته، ويدافع عن موقف الإخوان القديم حين ساندوا عبد الناصر لظنهم أنه يريد نصرة الدين..

لم نكن نعلم أنه يخدعنا فلا يطَّلع على القلوب إلا الله.. صدقني هذا ما حدث يا أحمد ودعك من موقف نورالدين فكرهه للإخوان أعمى قلبه عن رؤية حقيقتنا، ولعل الله ينير بصيرته فيدرك جوهر دعوتنا، ونحن لا نحاسب أحداً، فنحن دعاةٌ لا قضاة!

أنت أيضاً تتحامل على نورالدين يا شيخ إسماعيل.. فإني لم أَرَ في حياتي رجلاً أكثر تمسكاً منه بالمبادئ ودفاعاً عن الحق، وهاهو اليوم سجين لأجل موقفه وسجانه أخوه، لكنه يرى موقفكم بشكل مختلف، وربما جانبه الصواب فكل منا يخطِئُ ويصيب..

- الحق بيّن والظلال بيِّن يا أحمد، وليس في الأمَّة سوى فريقان، فريق يدعو للهداية وفريق يدعو للغواية، وبدلاً من أن ينحاز لنا إذ به يسدد عنفه نحونا.. يا رجل إنه حتى لا يصلي معنا لفرط بغضه لنا! بل ربما هو لا يصلي أصلاً نسأل الله الهداية!

- الله يهدينا جميعاً.. نورالدين يصلّي وحده، وهو إنسانٌ نقي وفيهِ خيرلكن أنت لا تعرفه.

التفتَ الشيخ إسماعيل لمن حوله قائلاً:

انظروا لأخيكم أحمد فإنَّ فيه آية الله التي تُثبت أنَّ في كل بلاء نعمة وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم، فقد دخل السجن وهو لا يصلي وظل شهوراً مع صديقه نورالدين بعيداً عن الهداية، وهاهو اليوم واحدٌ منا يحافظ على الصلاة ويحفظ القرآن. بارك الله فيك يا أحمد وزادك هدًى..

- معذرة يا شيخ إسماعيل، صلاتي معكم وارتياحي بينكم لا يعني أني أصبحتُ من الإخوان!

دعك من المسميات مادُمتَ على طريق الحقِّ! وكن على حذريا أحمد فنحن في السجن وتحت قبضة الظالمين فلا تُردد ما نقوله أمام أحد من السجناء، فبيننا شيوعيون قلوبهم جاحدة منكِرة لله وللرسول، وأصحاب آراء فاسدة

كُثر، ولا يغرنَّك أنهم يشاركوننا المحبس فالأَسر واحد والغاية مختلفة.. بل لا تأمن حتى لنورالدين، ففي النهاية أخوه واحدٌ من الظالمين والله أعلم بحقائق الأمور ومن يدري لعله مدسوس علينا لينقل لأخيه ما نقول أو نفعل!

هذا ظلم يا شيخ إسماعيل، قلتُ لك أنا أعرفه أكثر من نفسي، وقد جئنا هنا لأنه ضرب زميله دفاعاً عن حق طالب وكرامته، ولا تنسَ أنه أكثر من ذاق العذاب من السجناء فكيف تقول عليه مثل هذا الافتراء؟

أنا لم أقل شيئاً إنما فقط أدعوك للحذر، فالخوف كم يُنجي صاحبه.

أما نورالدين فيرى أنه لا ينجي صاحبه إلا الصدق وقول الحق في كل زمان ومكان، حتى لو كان الثمن هو دمه.

عندك حق.. إنَّ بعض الظن إثم، غفرالله لنا وله.

***

قبل أن يستدعي نورالدين للتحقيق جلس المقدم بدران على مكتبه متبسماً يسترجع حوار الأمس مع حسام الذي طلب منه أن يساعده في الانتهاء من مشكلة أخيه بأي شكل لما يسببه له الموقف من حرج وسط أسرته وفي عمله، حتى أنه قال له: "اِضغط عليه بكل السبل لإجباره على الاعتراف بأي شيء كي يكون حبسُه بشكلٍ رسميّ وحُكم قضائي بدلاً من اعتقاله الذي يُحرجني، أو اِدفعهُ لإقرارٍ

يساعدنا على إخراجه إذا كان الأمر ممكناً". انفرجت شفاه بدران عن ابتسامة السُم شماتةً في حسام فقد كان يكرهه ويراه فرخاً ضعيفاً وضابطاً وصولياً بلغ منزِلتَه لمنزلةِ حموه رغم ضعفه وانعدام قدراته. كان بدران رجلاً بلا قلب يخشاه السجن الحربي كله، السجان قبل المسجون، كان يستمتع بصراخ مساجينه بين يديه وهو يجلدهم مرة ويصعقهم بالكهرباء مرات، ولا ينهي التعذيب إلا بخاتمته المفضلة دائماً بأن يعري المسجون كما ولدته أمه ثم يأمر "الشاويش عبدالفتاح" بأن يركب عليه كأنما ينكحه حتى يتوسلَّ إليه السجين: "أنا مراتك كفاية يا سي عبدالفتاح تعبت حرام عليك" فيضحك بدران آمراً بنهاية الحفلة: "قومي يا مرَة اِلبسي هدومك وارجعي زنزانتك".

كانت خطة بدران المعدة في نفسه أن يعذب نورالدين كما لم يعذبه من قبل، لا ليكسر نفسه وحده، لكن ليسحق كرامة أخيه حسام الذي يعلَم أنه لن يجرؤ على الاعتراض خوفاً على نفسه، فأراد أن يعري ضعفه ويذله بذل أخيه ويفضح صمته العاجز وادعائه الشجاعة بقدرته على تعذيب ابن أمه وأبيه.. "الآن سأعلِّمك كيف تكون الحفلة الحقيقية يا سيادة النقيب!"

اقترب الجندي من المكتب ليخبره أنَّ السجين في حجرة التعذيب فسأله بدران:

جهزتم كل حاجة؟

- كله موجود زي ما أمرت يافندم.

دخل بدران الحجرة ونورالدين مكبَّلٌ تعلوه الرضوض والكدمات ويداه ورجلاه متورماتٌ من جرّاء التقييد بالحبال وآثار الصعق الكهربيّ على كل جسده.

- أهلاً بالأستاذ نورالدين! عامل إيه يا حضرة الخوجة؟!

لم يرد عليه نورالدين وثبَّت نظره في عينيه يقَاوِمهُ بصمت عزيزٍ وبشجاعة لا تَتزعزَع.

- مش عيب لما تشتم رئيسك؟ مش الخوجة بيعلِّم العيال في المدرسة إن الشتيمة قلة أدب، وقليل الأدب لازم يتأدب؟

ثم صفعه على وجهه صفعة أسالت الدم من فمه.

أنا بقى هنا هبقى الخوجة وإنت التلميذ وهعلمك الأدب.

وأمر الجنود أن يعروه وأن يُثبِّتوا رأسه وظهره إلى الأرض ويرفعوا خصره ورجليه لخشبةٍ معدّة للغرض أوثقوه إليها بالسلاسل ليرغموه على البقاء في وضع القوس المقلوب أمام سجانه، فأحنوا بذلك جسده لكنهم لم يُحنُوهُ.

إنتم مش بتعبطوا العيال في المدرسة لما مبيعملوش الواجب؟ أنا بقى هعبطك يابن الكلب. اضربوا حضرة الأستاذ على طيزه.

أمسك الجنود بعصيِّ خيزران وانهالوا عليه ضرباً ليذلوه ويخضعوه قبل أن يعذبوه، ونورالدين يغالب أوجاعه وصراخه. أعياه الألم الذي يقطِّع أوصال روحه فيوشك جسده أن يخونه فيتهاوى تحت ضرباتهم وأن تنفلت صرخته، لكن عزيمته القوية ثابتةٌ لا تخونه فيستمد منها إرادة الصمود، وكلما تضربه عصيّهم يضربهم بصلابة صبره العظيم. استمروا في ضربه وسحله حتى أمرهم بدران أن يوقفوه:

انزل بوس رجلي وقول أنا آسف يا أستاذ.

فاستجمع نورالدين ما بقي له من قوة للكلام:

- إنت إنسان بلا شرف، ضعيف، متملكش إلا إنك تعذبني لأني سجين عندك لكن لو قابلت معركة حقيقية هتجري زي الفار، نسيت يا حقير لما سبتوا البلد وجريتوا يا أندال؟! دلوقتي جايين تتجبروا علينا!!

ثم استجمع ريقه وبصق عليه، فطاش بدران طيش النيران وأمسك برأس نورالدين كالمجنون:

- بتّف على وشي يابن الزنا!! إنت مرَة وابن حرام زي أخوك اللي لو كان أخوك مكنش عذبك بنفسه!

ثم سحبه من شعره نحو الجدار الصخري:

عاملي راجل ودماغك ناشفة؟ أنا هكسرهالك يابن الكلب!

وضرب الجدار برأس نورالدين بغير رحمة مرّة بعد مرّة حتى تهشم الرأس الحكيم وسالت الدماء الأبية، والجنود يرتعدون لهول ما يرون بلا كلمة.. رفع بدران يده عن الرأس فسقط الجسد وقد أسلم الروحَ المعذبة والقلبَ الكظيم إلى ربه، وجهه محطم لا تبدو ملامحه، يغطيه الدم الطهور والظلم الفاجر. مات نورالدين دون أن يمكِّنهم من صرخة واحدة، نالوا جسده لكنهم أبداً لم يتمكَّنوا من عزة روحه، قتلوه لكنهم أبداً لم يقتلوا الإنسان فيه، كسروا رأسه لكن أفكاره أبداً لم تنكسر ففي نسله سرت روحه لورَثةِ شجرتهِ جيلاً بعد جيل، فغلبت إرادتُه إرادتَهم! فهزمهم بموته ولم يهزموه.

***

وقف حسام أمام جثمان أخيه المسجى فوق منضدة من حديد قبل إدخاله إلى ثلاجة الموتى بمشفى السجن الحربي، ورفع الغطاء عن وجهٍ يعرفُه لكنه لم يعرِفْه، فقد غابت الملامح وغطت الدماء العيون الواثقة. مسح وجهه وحنى رأسه أمام الجسد المهيب حتى في موته ووضع الأخ القاتل رأسه على صدر أخيه المقتول وأجهشَ بالبكاء..

- سامحني يا أخي. أنت من فعلتَ هذا بك وبي. لماذا لم تصمت والجميع صامت؟ لماذا لم تبتلع الظلم كما يبتلعه الجميع؟ لماذا صمَّمتَ على تعريتنا ونحن في أمسِّ الحاجة لما يستر ضعفنا؟ حتى لو كان الحق معك لماذا صدحت بهذه القوة الفاضحة؟ ليتك سكتَّ كما سكت الناس.. أنا لم أقتلك.. أنا لست قاتلاً لأخي.. كذبَت أختك منيرة! أنا

لم أكن قابيل الذي يلبس كفن أخيه هابيل. أنا لم أقتلك.

ثم نظر لوجه أخيه فعلاه الرعب فالعيون الغائرة تبصر! عيونُ نورالدين مفتوحةٌ تفضحُه ووجهُه لازال قادراً على القتال حتى وهو محطم..

لا تنظر لي. لا تحاربني حتى وأنت ميت. أنا لست كاذباً. أنت الكاذب ومنيرة الكاذبة!! كان يجب أن تموت لتستمر الحياة. أنت من وقف بوجه الإرادة.. ماذا تريد مني؟ لماذا تنظر لي؟ هل تَراني قاتلك؟ نعم. أنا قاتلك. أنا قابيل وقد كفَّنتك وسأكفِّن كل من يحارب الإرادة! هل هذا يريحك؟ لماذا لا تموت حتى وأنت ميت؟! مُتْ يا نورالدين!

غادر المشفى واتجه نحو مكتب بدران وروحه غائبة وعيونه ميتة بلا إحساس. وأشهرَ سلاحه الشخصي في وجه بدران الجالس بلا خوف:

قتلتَ أخي أيها المجرم! ماذا سأقول لأبي؟ قتلتَه فقتلتني.

نهض بدران من مقعده واقترب منه ووضع يده فوق السلاح المسدد نحوه فأخفضَه وأخفضَ اليد الذليلة التي تحمله واثقاً أن حسام أجبنُ من أن يضغط على الزناد:

اِخفض سلاحك يا سيادة النقيب.. أنا أعرف أنك أعقل من هذه الحماقة لأنك تعرف دوماً ما الصواب وما الخطأ

وتدركُ مصلحتك، وأنت لن تهدم كل ما بنيتَ لأجل أخيك الذي كنتَ تعرف أكثر مني أنه لن يخرج حياً ولن يرى النور، إحسبها جيداً وأنت خيرُ من يحسب، هذا سيريح الجميع ويرفع عنك الحرج وستجني من المكاسب ما تعلمه أكثر مني.. ولو كنتَ عاقلاً لشكرتني.

سقط حسام على الكرسي منهاراً:

ماذا سأقول لأبي وأمي؟ لن يسامحاني أبداً.

كل شيء يتم نسيانه بالوقت، لقد انهزم جيشنا ومات أكثر من ثلاثين ألفاً من خيرة الشباب، ومع ذلك تمسكت الأمَّة بقائدها وجيشها، آلاف الآباء والأمهات نسوا أبناءهم القتلى وعادوا إلى الصواب خلف زعيمهم وجيشهم، ووالداك ليسَا خيراً من كل هؤلاء.. الناس تموت لأجل إنفاذ إرادة الحاكم أو يموتون لأنهم عارضوا إرادته، وأخوك اختار الفريق الخاسر، ولم يكن لينجو من الموت بأي حال.. لقد تحدثتُ مع الإدارة وقدمتُ لك استثناءً بأن يتم دفن أخيك في مقابر الأسرة وليس في الصحراء كبقية السجناء الذين يموتون هنا، لكن شريطة أن لا يكون هناك جنازة ولا حضور، إلا في أضيق نطاق.

- لن أستطيع أن أُخبر أبي بموت ابنه أبداً!

- أعرف هذا، ولذلك رتبت الأمر مع العميد رشدي وقد أخبرني أنه سيرسل ابنه أنس لإخبار والدك وإحضاره لاستلام الجثمان، على أن يتم الدفن الليلة ودون تأخير، وسأرسل معك سيارة عسكرية لحمل أخيك ودفنه، لكن ستكون مسؤولاً عن تنفيذ ما أمرتُك به بحذافيره: ممنوع حضور أحد. ألم أقل لك أني أقف بصفك وجدير بك أن تشكرني؟!

***

كان البرد شديداً في تلك الليلة المظلمة التي غاب فيها القمر وغابت النجوم في أفقها البعيد، ينتحب الكون على موت النبيل الذي صدح بالصدق في زمن الخداع وجهَر بالحق في وطنِ الخوف.. أيقظ رشدي ابنه وأخبره الخبر وأمرَه أن يذهب بسيارته إلى بشير وأن يوصله إلى السجن الحربي لاستلام جثة نورالدين ودفنه. صرخ أنس في أبيه:

قتلتوه يا مجرمين!

- اِلزم حدك يا قليل الأدب! هو اللي قتل نفسه، ولو أبوه مستلمش جثته ودفَنها هيدفنوه زي الكلب في الصحرا، قوم اِعمل اللي قولتلك عليه.

أخذ أنس سيارته ومرَّ على حكيم ومينا ليشاركاه المهمة الرهيبة بإخبار الوالد بقتل ولده. كانت منيرة أول من انتبهَ للطرق الخافت على الباب، وعندما رأت أنس سألها:

فين الحج بشير يا منيرة؟

خلاص قتلوه يا أنس؟!

قتلوه يا منيرة، قتلوه المجرمين.

"أخويـــاااا" صرخت بها منيرة ففزع الوالدان للصوت الصارخ بالويل النازل، وعندما أبصر بشير أصدقاء الغائب انسحقَ قلبه بالشؤم الماثل أمامه:

خير يابني؟ حصل حاجة لنورالدين؟

تعال معانا ياحج نوديك له، خده من إيدهم عشان ندفنه بدل مايدفنوه اللي قتلوه.

سقطت فردوس، وصمت الوالد ولم ينطق.

حمل الأصدقاء الصديق القتيل لنقله للسيارة العسكرية واقترب حسام ليحمل أخاه فأشار له بشير بسبابته: "إياكَ أن تمسَّه" رفض أن يضع ابنه في سيارة القتلة فلم يجرؤ أحدٌ على معارضة أبٍ يحمل جسد ولده. ركب في المقعد خلف أنس وأسند رأس ابنه على صدره ملفوفاً في كفنه يحتضنه والروح تسيل وادٍ من نيران والعينُ جامدة لا تبكي والقلب غادر صدر الوالد ليسكن كفن الولد. وراحت روحه خمسَ عشْرة سنة للوراء فتذكَّر طفلته منيرة وهي ابنة اثنتَا عشْرة سنة تدخل غرفته وتقول له: "يا والدي لن ينفعكَ معرفة الحق بعدما يقتُله الباطل".

- كلاكما كان يبصر ووحدي كنتُ أعمى. كل الناس عميان. أعماهم الخوف وأعماني الرجاء.

وقفوا أمام المقبرة ووقف اللحّاد ليفتح السكن الأخير، فأشار له بشير: "عندك". ثم نظر لحسام وناوله المعول والجاروف:

اِفتح قبر أخوك.

فحمل حسام المعول يضربُ باباً صخرياً ليعري عنه ترابه ويداه تخونانه فيعجز عن ضرب الباب:

- مش هقدر. حرام يابويا مش هقدر!

- اِفتح قبر أخوك محدش هيفتحه غيرك.

ضرب حسام الباب حتى انفتحَ القبر أمام القاتل وأمام الوالد الذي يهدر بالحزن والكبرياء. نظر الوالد للجسد ثم توضأ الجميع للصلاة على المقتول، وانتحى مينا جانباً وركع على ركبتيه وهو يضم يديه تحت وجهه يصلي ليسوع المسيح: "يا أبانا الذي في السماء إذا كنتَ أرسلتَ ابنك ليفدي خطايا الناس بدمه فإنَّ هذا صديقي قد فدى أمَّته بدمه فارحمه واقبَله في فردوسك"

انحنى بشير على ولده المسجى:

أتموت يا بكري لأصلي عليك؟ ما أنجبتُك إلا لتكرمني أنت بدفني والصلاة عليَّ. كيف يشيّع الأب ابنه للقبر؟ ليس لمثل هذا ينجب الآباء أبناءهم، فهل كان موتك هو كلمتك الأخيرة لتخبرني أني كنت على ضلال؟

ثم استندَ على عصاه وتهيأ للصلاة فاصطف خلفه حكيم وأنس وبجانبهم حسام، التفتَ إليهم ورفع عصاه ونحًى ابنه بطرفها:

- أُخرج منها إنك رجيم. أيصلي القاتل على من قتل؟!

فخرج الطريد وانتحى بحسرة الذل والهوان.. وصلى الوالد على ولده وحمله لقبره فأرقده وأَسلَمه لمثواه:

لا تعب عليك بعد اليوم يا ولدي، إنما الألم لكل من يحيا بعدك يا نوراً أظلمَت من بعده الحياة.

كأس الإيمـــان

[كلُّ إيمانٍ ياتي بالدليل فهو ضلال، وحده الإيمانُ الذي ينبع من القلوب يسكُن فيها]

كانت الأسرة سعيدة بسلوك صالح الذي يحافظ على الصلوات الخمس في المسجد، ورغم تحفّظ جده على مسجد (السُنيَّة) الذي يَؤمُّه الملتحون ومطالبَتِه له بالصلاة في مسجد (أبو العلا) أو أي مسجد آخر، إلا أنه لم يمنعه أو يتدخل بأكثر من نصيحته التي لم تزد عن قوله: "الدين يُسر يا صالح، والمسلم كالنحلة لا يأخذ إلا أطيب الرحيق، إياك والتشدد فإنه أكثر مفسدة من التحلل ولا تُعطِ عقلك لأحد يا بنيّ ولا تَقبل إلا ما يتفق عليه عقلك وقلبك وإياك أن تغرّك الكلمات مهما بدت رنانة عالية، خذها نصيحة ممن خذلته الحناجر: إنَّ أعلى الناس صوتاً أفسدُهم حجة"

لم ينسَ صالح أباه أبداً فقد كان واعياً بكل ما حوله عندما مات أبوه وهو في الرابعة عَشَر، فقد كان نورالدين يصحبه في كل مكان يذهب إليه، ويصليان الجمعة في مسجد السلطان أبو العلا، ولازال يذكُر عندما سأل أباه: "لماذا لم ندرس السلطان أبو العلا في التاريخ مع من درسنا من الحكام؟" فضحك أبوه وقال له: "السلطان أبو العلا لم يكُن سلطاناً على العروش بل على القلوب يا صالح، لقد كان رجلاً زاهداً يدعو الناس إلى ترك الحياةِ الفانية والطمع فيما عند الله وحده، واتَّبعه كثيرٌ من الناس الذين آمنوا بدعوته فكانوا يأتمرون بأمره حتى لقَّبه الناس بالسلطان، أي سلطان الصوفية"

لكن صالح لم ينهل كثيراً من أبيه، ليس لصغر عقله وقتها فحسب، ولا لموت والده المبكر، ولكن لأنَّ صالح كان بطبعه أقرب لعمته منيرة، يميل إلى العزلة ويخاف من مواجهة كل شيء، وعمَّق هذا الشعور ولادَته يتيم الأم ثم فَقْده لأبيه وهو يطرق باب مراهقته وحِرص جده وجدته عليه الذي أصبح مبالغاً فيه، ولم يكسر ذلك الحرص إلا حكمة بشير الذي تخلص من خوفه وأراد أن يفتح الأبواب أمام حفيده ليتعلم مواجهة الحياة التي لن يبقى له فيها ليحميَه منها، ولذلك ارتاحَ قلبه عندما كان اتجاهُ حفيده الأول نحو بيوت الله.

لم يخالف صالح جده ولم يختلف معه إلا عندما أراد ترك الجامعة، غضب جده أشد الغضب وأخبره أنه" لو كان أبوه حياً لتبرأ منه ومن فعلته". كان صالح أضعف ما يكون أمام ذِكر أبيه لكنه لم يستطع أن يتوافق مع حياة الجامعة بكلية الهندسة، فدوماً ما كانت تزعجه رؤية الفتيات عرايا والشباب يقلدون الغرب، فيرى أنها فتنة وتركُها أَولى، لولا الشيخ (محمد) الذي كان يحفِّظُه القرآن والذي شجعه أن يحصل على شهادته وأن يصبر على البلاء وأن لا ينسحب منه، فالمسلم القوي أَحب إلى الله من المسلم الضعيف والشهادة الجامعية قوة، وطالبه بدلاً من ترك الجامعة أن يسعى لنشر الهداية في من حوله. ظل صالح طويلاً بعد تخرجه بلا عمل، لا يستجيب لرجاء جده بأن يدير الوكالة بدلاً عنه ويردُّ عليه دوماً بأنَّ الأسواق مليئة بالمفاسد التي تُظلِم القلوب.

***

- أربعُ سنواتٍ يا إبراهيم وكأني لم أدفنه إلا بالأمس! لقد كسر نورالدين ظهري بموته.

- الولد مجد أبيه يا حاج بشير، وسيرَته من بعده، لقد ابتلاك الله بأعظم ما يُبتلى به الرجل وعزاؤنا أنه قد مات رجلاً وها قد مرت السنوات ولم ينسَه الناس، كل من عرف ابنك لم يذكره إلا بالخير، وملكوت الله خير من ملكوت الأرض وسيجد عند الله الرحمة. قد كان خير الشباب وقد انتقم الله ممن آذوه، فها قد رأيت (السادات) سجنهم جميعاً وألبسهم الطرح كالنساء، ومن أفلت من السجن سرَّحه من الجيش.

- ما عادت لي ثقة بأحد وحقي لن يرده لي إلا الله، إليه أشكو مصابي، سأقاضيهم جميعاً أمام الله من عبد الناصر إلى أصغر عسكري عذَّب ابني أو ظَلمه.

قد ذهب عبد الناصر إلى ربه ولا تجوز عليه إلا الرحمة.

هل تعرف يا إبراهيم؟ رغم كل شيء لم أَدْعُ على عبد الناصر ولو مرة واحدة رغم أني دعوت على كل من ظَلم ابني وأولهم أخوه حسام، إلا عبد الناصر، كلما هممت بالدعاء عليه انعقد لساني وقلت: "مكنش العشم يا ريس"، فرغم كل ما تسبب فيه من بلاء لازلت أراه الرجل النظيف الذي أراد الخير للناس.

- عبد الناصر لم يكن ظالماً لكن تدبيره كان بلا حكمة، وترك أمر البلاد للأنذال ووثق في من لا ثقة به، ولا أحسبه كان يعرف كل ما يحدث من ورائه.

- لكن حتى لو لم يكن يعرف، ليس هذا بعذرٍ له، "إن كنت تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت لا تدري فالمصيبةُ أعظم". ثقة الناس غالية يا إبراهيم، ومن وثق بك فإنه وضع حبلاً حول رقبتك وإذا لم تكن أهلاً للثقة فإنَّ الحبل يخنقك، وأنا كنت أثق به وأحبه، ويوم موته حزنت وبكيت، ليس لأنه مات، لكن لأنه لم يعتذر عن قتل ولدي.. كنت أتمنى أن يُثبِت أنَّ رهاني عليه لم يكن حماقة، وثقتي به لم تكن قلة عقل.. لقد كان حزيناً هو الآخر، هل تعرف يا إبراهيم؟ أنا لا أصدق كلام الناس أنه مات مسموماً.. لم يَقتُل عبد الناصر إلا كسرة نفسه بعد الهزيمة فقد كانت له نخوة صعيدي، والكريم إذا عجز عن الوفاء بما وعَد ماتَ مقهوراً.. "الله يسامحك كنت ممكن تراضيني بحاجات كتير أوي أقل من موتك يا ريس".

***

ترك أحمد التدريس بعد خروجه من السجن وصار يعمل بالمعمار بعدما انخرطَ في جماعة الإخوان التي أمدَّته برأس مالٍ يبدأُ به عمله الجديد الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً فأرسلوا له من يساعده

ويرشده في ذلك المجال الغريب عليه.. أشياء كثيرة تغيرت بعد الحرب واسترداد سيناء، صار هناك حالة من الرضا بأنَّ هذا يكفي، لا مزيد من الحرب ولا مزيد من العروبة باهظة الثمن، لم يعد لدى المصريين ما يقلقهم فقد استردوا كل ما فقدوه، استردوا الأرض واستعادوا هيبة جيشهم الذي لازال عظيماً بأعينهم رغم كل ما مر بهم من مخاوف على يده، لكنه غسل في أيام قليلة كل آثار الألم، ودماءُ الجنود والضباط التي سالت لتحرير سيناء اعتذرت لكل من سُفك دمه في السجن الحربي، وعادت البندقية حاميةً للأحلام لا مجهضةً لها. فتفرَّغ الناس لأمرٍ لم يفرغوا له من قبل. كانوا عطشى للحياة التي انفتحت أبوابها مع الانفتاح، فما عاد الفقر صديقاً أليفاً ولا مألوفاً، وما عاد الفلاح على ديانة الأرض القديمة فالأرضُ تَصلح لأشياء أخرى غير الحرث والحصاد! تصلح للحفر وحشو رحمها بالإسمنت ورفع الأثقال طابقاً فوق طابق فتدرَّ الثروة، وهنا كان أحمد للقيام بالمهمة.

ارتفعت ثروة أحمد مع كل عمارة ترتفع وأصبحت شركته المعمارية تكبر كل يوم، فيقتطع جزءًا من دخلِه لجماعته التي ساندته بعدما ثبُت ولاؤه لهم في سنوات عجاف قضاها خلف جدران السجن الحربي، فأعطوه المال وأعطاهم العهود، وصار خُمس دخله لصندوق جماعته، وكبر الصندوق وأنفق في كل اتجاهٍ من إعانة الفقراء في النجوع والكفور إلى إعانة الطلاب في الجامعات ومنحِهم الكتب بالمجان ودفْعِ نفقاتهم، والمال كم يُلين النفوس ويزرع الولاء وأحياناً يزرع الحب ولو إلى حين، فدخل الناس في كنف الجماعة أفواجاً فكبرت كما لم تكبر من قبل واستقوت كما لم تعرف القوة يوماً، وأمدَّها السادات بركنه الشديد فأووا إليه وارتكنوا حين طالبهم

بمجابهة خصومه الذين يسعون إلى فتح عقول الأمّة ورفض انفتاحٍ يمنحُ ثراءً أجوف يملك فيه الناس سُبل الرفاهية لكنهم يعجزون عن صنعها بأيديهم، حتى أصبح الشعار: "يمكنك أن تستورد أي شيء فلماذا تصنع أي شيء؟!"

تذمرت العقول التي تعقل على إسكار أمّة أعمتها خمر الدولة المغشوشة لتنام عيونهم عن فسادٍ صار يضرب في كل الأنحاء فانتشرت الرشاوي ووسِّد الأمرُ إلى غير أهله. انتفضت هذه العقول على ذاك الأُفول فكان لابدَّ من إسكاتهم وإخماد نارهم، لكن لم تعد الطريقة القديمة صالحة. قديماً حطموا رأس نورالدين لأنه فكَّر، وتحطيم الرؤوس اليوم لم يعد يصلح بضربِ الرأسِ بالجدار، لكن هناك ضربةٌ أشد بأن تقول أنَّ صاحب الرأس من أهل النار! ومن أقدَرُ على منح صكوك الجنة وأختام الجحيم خيرٌ من جماعة تحمل راية الدين؟ فكان الإخوان هم ضالة السادات التي استغلها للقضاء على خصومه، فأطلق ذئابها التي طال عقالها وفك اللجام عن نابها الناهش وأزال القيد عن ظفرها القاطع، فانتشروا في كل مكان يُحذِّرون الناس من عقولٍ ظاهرها الفكر وباطنها الكفر وأنهم دعاةٌ للنار ومن أجابهم قذفوه بها، فشرب الناس كأسَ الإيمان المزعوم وكرهوا هؤلاء الذين يدعونهم إلى الإفاقة واليقظة ورأَوْا فيهم دعاةَ ضلال، وكل ضلالة في النار، فأذمنوا آيات التخدير الجديد واستمعوا إلى الكهان وأطاعوا الحاكم المؤمن! فاستوى له عرشه وصارت للإسلاميين حظوة عنده بعدما خلَّصوه من كل عدو يعلو صوته، وظن أنَّ الأمر قد استتبَّ ونسيَ أنَّ من زرع الشوك خدشه وأنَّ من ربَّى الذئب في بيته أكلَه، فحصد بعد حين زَرْعه وعلى يدِ الذئب لقي رب البيت حتفه.

***

لم يفهم صالح أبداً سرَّ معاملة عمه حسام الجافة له كلما زارهم بالزمالك، ولم يعرف أبداً أنَّ عمه هو من عذَّب أباه فقد أخفت الأسرة كلها السر البغيض عنه، وكلما استفهمَ من جدته فردوس لماذا لا يزورهم عمه حسام أبداً رغم أنَّ زوجته خديجة دائمةُ الزيارة لهم، كانت تقول له:

ربنا يهدي النفوس، جدك بشير أصله واخد على خاطره منه عشان زعلوا مع بعض زمان، ملكش إنت دعوة بزعلهم وزور عمك زي مابتعمل، يمكن ربنا يلم الشمل على إيدك يابني!

ورغم هذا إلا أنَّ حسام تضطرب في نفسه كل الذكريات كلما رأى صالح، يود أن يعتذر لأخيه بالحنوِّ على ابنه، ويريد أن يعاقبه لخسارته لوالده ولشعوره الدائم بالهوان فيود أن ينفثَ غضبه بوجه صالح، ولذلك كان يلقاه مرة بالترحاب ومرات بالجفاء، ولولا تعلق خديجة به لأنهى أمره ومنعه من دخول بيته، فمنذ موت أبيه وخديجة تهتم به وبمذاكرته وتعتبره كابنها وهو يعاملها كأم فقدها، غير أنها أصبحت تنزعج أحياناً من كثرة ملاحظاته عليها، إذ أصبح يطالبها بارتداء الحجاب وعدم الاستماع للغناء، فترد عليه بأنَّ الإيمانَ محلُّه القلب وأنَّ الدين أصله حسن الأخلاق والمعاملة وكم من أناسٍ ظاهرُهم التقوى وباطنهم الفساد، فيجيبها بأنه يحبها كأمه ويتمنى أن تجمع بين تقوى الجوهر والمظهر..

كانت وجيعة حسام أنه يشعر بانتصار نورالدين عليه حياً وميتاً. ففي حياته فضحَت مبادئُه انتهازيتَه وأهانَ صدقُه كذِبَه، وبعد موته منح خديجة ابنه ليعوضها عن ولدٍ عجز هو عن إنجابه. كل الفحوصات تؤكد سلامة خديجة فلابدَّ أن العيب فيه والعيب كان رفيقه على الدوام، فلم تعد له من سلوى إلا زياراته لشريفة التي مات زوجها وورثت عنه تركة كبيرة مكَّنَتها من شراء شقة بالزمالك فصارت قريبةً من عشيقها القديم، يجمعها به الوحدة والحاجة لأنيس ويجمعه بها شعور الهوان والحاجة لمن يقدِّره، فرغم بلوغه مرتبة عالية بالجيش بعد نصر أكتوبر واقترابه من القيادات العليا إلا أنَّ شغفه بالعسكرية لم يعد كما كان. صارت الحياة العسكرية رتيبة تقتل نفسه وتخنق روحه، وأصبحت الجائزة الكبرى التي سعى إليها بدم أخيه أمراً هيناً لا يساوي أبداً ذاك الثمن الباهظ، ولا شيءَ أشدّ حسرة من خسارة الأحلام واكتشاف أنَّ الأشياء التي سعينا خلفها طويلاً لم تكن تستحق، فيضيع الماضي هباءً ويُظلم المستقبل ويبقى الحاضر بليداً بلا معنى، ولذا كثيراً ما كان يفكر في تسوية معاشه مبكراً وهو لم يزل على رتبة (مقدم)، غير أنَّ القيادة كانت تتمسك به دوماً لأنه كان واحداً من رجال حرب أكتوبر، تلك الحرب التي لم يُطلِق فيها رصاصة واحدة ولم يشارك في نصرها الباهر، فلقد حرَمَته يدُ القدر من المشاركة ولم تشأ السماء أن تمنحَه ذاك الماءَ الطاهر ليغسل به عاره الرديء إذ ضربته الحمى قبل الحرب بأسبوع وظل طريح الفراش يصارع المرض لمدة شهر ولم يغادر فراشه إلا بعدما وضعت الحرب أوزاها، ولم يعلم أحد هل طولُ مرضه كان لعنةَ ماضيه أم أنه جَبُن عن خوض الحرب، فتمارض فوق المرض حتى لا يجابِه الموت في ميدان مفتوح. لم تعد له أحلام كبيرة في السلطة ولا المال، بل صارت حياتُه

رهينةً بالحصول على الولد. يأتي زوجته بلا حب ولا عشق وإنما يأتيها كناهبِ أرض يبحثُ في جوفها عن الكنز فتستقبله استقبال الدخيل الكريه وهي تقدم له حلوى الضيافة لكنها لا تدلُّه على سر الكنز أبداً.

ظل أمرُهُما كذلك حتى قالت لها منيرة أنَّ نورالدين زارها في المنام وطلب منها أن تخطب له ابنة خديجة. تعجبت خديجة من رؤيا منيرة ولم تفهمها. فتبسمَت وقالت لها: "ستستدير بطنك على نسلٍ يُصلح ما أفسده الزمان. ستحبلين يا خديجة" صمتت خديجة أمام البشارة الحية بذِكر نورالدين بها. والميتة لأنَّ نوالها لا يكون إلا بنطفة حسام الرديء. وحملت البشارة في رحم النسيان وتناست حتى نسيت إلى أن ضربتها مواجع الحبل الذي زرع أثمارَ الحياة بروحِ حسام من جديد. وأَثمر الخوف في قلب خديجة التي كانت تشاهد العالم من بعيد فإذا بالبشارة تقذف بها في قلب الحياة من جديد. ومَضَت أشهر الدهشة سريعاً حتى انفتح الرحم عن ولدٍ سماه أبوه (كمال) تيمناً بقائده القديم. وتمنَّت أمه أن لو كان اسمُه نورالدين.

***

السنواتُ تمر وكل الأشياء تتبدل من حوله وهو ثابت لا تتغير الأحزان بداخله. وفيٌّ لوحدته قابضٌ على آلامه مُخلِصاً لعهد قطعه منذ سبع عشرة سنة بأن لا يمسَّ امرأةً خدعته. لم يَغْشَها إلا مرةً واحدة أنبتت ولداً يشبه أمه. له ملامحها الجميلة وقلبها القبيح. تنمو الكراهية بقلبه وتكبر كلما كبر ككل ما حوله. فقد صارت البغضاء شعارَ أمَّة جعلت من القداسة طريقاً لنفيِ الحب. فمساجدٌ تقاتل

الكنائس، وكنائسٌ تعلن أنَّ أصحاب المساجد أحفاد غزاة، وكل من يستمسك بدينه يبغَض دينَ غيره ويؤذيه..

آلمه أشد الألم حين ألقى التحية على صالح ابن أعز وأحب أصدقائه فردَّ تحيته بشكل مهين: "وعلى المؤمنين السلام". آه لو تعرف يا ولد أنَّ أباك مات ليحل السلام على المؤمنين وغير المؤمنين.. لماذا ترفضني يا ابن الصديق وأبوك كان يفدي الكل بدمه؟

كَره الحياة، وكَره العالم، وطرَق باب الدير البعيد يطلب "رهبنة" تقيهِ شرور العالم ليتوحد مع يسوع المسيح الذي كانَ ركع يوماً أمامه ليخلِّص امرأةً فاجرة بشرفه كما خلَّص يسوع العُصاة بدمه، لكن الكهان أغلقوا الباب دونه: "لا رهبنةَ لمن ذاق امرأة"، لكنه لم يذقها بل جعلها شجرةً محرمة! وهو لم يهتك شرفاً ولا سفكَ دماً ولا غدرَ بعهد، فماذا يريدُ المسيح من فَرْجه إن كان ولج بامرأة أو لم يفعل أبداً؟! هل سيقبَله إذا كان عزباً بينما يضاجع القديسات في مخدع الأحلام؟ وهل سيكتشف الرهبان عندها أمْره؟ ماذا يريد الدير أكثر من قلبٍ نظيف لم يخطِئْ أبداً؟ لماذا رجال الله يحولون دوماً بين العاشق وبين الله؟ لماذا تعاليمهم قداسة ومخالفتُها هرطقة؟ أي آية جاؤوا بها ليحجبوا روحه عن التوحد مع يسوع؟ إنهم رجالٌ كذَبة وأتقياءٌ دجاجِلة في كل الأديان!

عاد من الدير الذي رفضه وجعل "قلّايته" في جسده وديرَه في عالمه، يحيا بينهم مفارقاً لهم، يختلط بهم جسدُه وتعافهم روحُه، فيعزفُ عن حكيم الملتاث بحقارة النفاق وعن أحمد الذي صار يحدِّثه كذمِّي ونصف إنسان وليس صديق العمر، وأنس الذي عاد من الغربة

لا همَّ له إلا جمع المال، وزوجته الحاقدة حتى على نفسها وابنه الذي تنمو أثمار الكراهية بقلبه.. لم يبقَ له سوى أبوه إبراهيم الذي أرشده كما كان يرشده على الدوام ويستشعر وجعَ روحِه دون كلمة.

ألقى برأسه على صدر والده الرحيم:

كرهتُ العالم يا أبي. لا أريده ولا يريدني.

اِحمل صليبك للنهاية يا بنيّ! أدِر لهم خدك الأيسر أيضاً، اِحتمل صفعاتهم وامنح حبك لكراهيتهم ولا تُشبِهْهم أبداً! نارك تحرقني ووجعك يسحقُ قلبي فاصطبر وكن مع المسيح إذ صار الجميع مع يهوذا.

ومسح على رأسٍ حائر وصدرٍ وجيع وباركه لكنه لم يردَّ عنه ضربة الخذلان التي لا تنجو منها القلوب الطاهرة. فما مرت أيام حتى وجدوا مينا مسجى على وجهه ميتاً وعيونه تسحُّ دموعاً.

"الأموات لا يبكون فلماذا يبكي مينا؟" هكذا قال إبراهيم أمام جثمان ولده. "لم يُغمِض عيون الموت بل نظر لها. اِبكِ لتفضح حقارة القُساة..! يموت دون أن يعترف أمام قسيس.. جديرٌ بهم أن يأتوا جميعاً أمام جسده ويعترفوا بخطاياهم وحقارتهم. جديرٌ بهم أن يأتوا إلى موته ليغتسلوا من حياتهم البغيضة. جديرٌ بهم أن يمسحوا على قلبه الصامت لعله يُطهّر قلوبهم الصاخبة بعهر الحياة".

مات مينا حاملاً سره الدفين لتبكيه امرأةٌ رخيصة خدعته في ليلة فرحه وأسلمته جسداً مستباحاً فتعفف عن الرخص وجعل

شرفه ستراً يُواري جسد الدناءة، وسار في طريق الآلام حتى نهايته مغادراً وطناً يتقلب تقلب القدور فوق النار ومغادراً كل العبث. مات ليلحق بصديقه الوفي وخلِّه الأمين (نورالدين) لتجتمع في حضرةِ التراب الأرواحُ المخلصة والقلوبُ الصادقة.

***

كان بشير دائم الإلحاح على صالح في أمر الزواج، فقد كان راغباً في أن يطمئن أنَّ شجرة نورالدين لم تُقطع وأنَّ نسله سيستمر، ولم يقتنع بحجة حفيده بالتفرغ لطلب العلم الشرعي بعدما انتهى من دراسة الهندسة وحصل على البكالوريوس في العمارة وتفرغ بعدها لحفظ القرآن ودراسة الحديث.

استغربَ صالح طلب جده بأن يذهب معه إلى مسجد السنية للصلاة وقد كان يحذِّره من الصلاة فيه. بعدما فرَغَا من صلاة العشاء سأله جده عن شيخه الذي يحفِّظهُ القرآن فوجده شاباً لم يبلغ الأربعين، عيونه ثاقبة ووجهه مريح لا تغادره ابتسامةٌ مطمئنة. عرَّفه به صالح فرَّحب به الشيخ محمد بودٍّ كبير:

- أهلاً يا حاج بشير، حدثني صالح عنك كثيراً وعن صبرك وثباتك. رحم الله ولدَك وجعَل صالح عوضاً لك.

العوض عند الله، ولكني جئت لأشكو إليك صالح، كلما جئت له بعروس يرفض الزواج، وهاهو في الثانية والعشرين من عمره حصل على الشهادة ولا يعوزه المال ولا ينقصه شيء، أليس الزواج نصف الدين وسُنَّة نبيّنا؟!

نعم يا حاج، ومن رغِب عنه فقد رغِب عن سُنَّة النبيّ..
لا يجوز تأخير الزواج لشاب قادر..

والتفت إلى صالح:

لماذا لا تطيع جدك وهو يأمرك بالخير؟

كان صالح أضعف ما يكون أمام شيخه ولو أمَره بالموت لفعل بقلبٍ مطمئن.

يا شيخ محمد أنا لا أرفض الزواج إنما فقط أريد تأجيله حتى أجمع العلم الشرعي.

العلم بحرٌ وافر يا صالح ولن تستطيع امتلاكه ولو عشتَ ألف عام، فتزوج ولعل الله يرزقك بالزوجة الصالحة التي تُعينك على طلب العلم. توكل على الله واجمع بين الحُسنيين!

أغضى صالح طرفه حتى لا يجادل شيخه وهز رأسه إيجاباً، مما شجع بشير أن يستثمر قوة تأثير ذاك "الشيخ" الشاب في حفيده، فأراد كسب المزيد من الوساطة:

- وهناك أمرٌ آخر يا شيخ محمد أريده منه..

فتبسم الشيخ محمد مستمعاً:

- كما تراني فقد بلغت من العمر عتيًّا، وما عادت صحتي تحتمل إدارة الوكالة وهو وريثي من بعدي، فلماذا لا ينزل إلى تجارته ويتعلم كيف يديرها وهي له في الخاتمة؟ ألم يكن رسول الله يعمل ويتاجر؟ وأصحاب النبي كانوا جميعاً من التجار؟ فلماذا يرفض العمل معي وكأني أتاجر فيما يغضب الله؟!

يا جدي حاشا لله، تجارتك حلال خالصة! ولكني أكره الأسواق التي يختلط بها الناس وتكثر بها المعاصي، كما أني أريد أن أعمل بشهادتي.

حسناً يا حاج بشير دعه يعمل بالهندسة، وسيعينك الله، أسألُ الله أن يبارك في عمرك فدَع أمر الوكالة للأيام يقضي الله فيها بما يشاء، ولا ندري لعل الله يجعل بعد ذلك أمراً..

رضيَ بشير بما وصل إليه، فقد فاز بنصف مراده وظفر بإقناع حفيده بالأمر الأهم وهو الزواج، ولذا عاجله في الأسبوع التالي حتى يضرب الحديد وهو ساخن:

- علي المنوفي جاري بالوكالة منذ أكثر من عشرين سنة، وهو نِعم الرجل وزوجته سيدة فاضلة، فما رأيك يا صالح نخطب لك ابنتهم (سميّة)؟

فانفرجت أسارير فردوس:

- ونعم النسب! سميّة بنت مؤدبة وحلوة ومش هيلاقي عروسة أحسن منها.. اسمع كلام جدك يا صالح وفرّح قلوبنا يابني دة زمن الحزن طال، اسمع كلامه يابن الغالي!

- حاضر يا جَدتي. هل تصلي يا جدي؟

هل تظن أنك وحدك المؤمن يا صالح؟ البنت من بيت طيب الأصل وأبوها لا تفوته صلاة وقد حج بيت الله مرتين، والشجرةُ الطيبة ثمارها طيبة..

تفاءل صالح بما سمع، وطرقَت الحياة أبوابَ قلبه الشاب بعدما زاروا علي المنوفي وشاهد جمالَ سميّة الأخّاذ فتحركت في نفسه رغباتٌ طال سكونها وانطلقت خيولٌ طال كُمونها. رأى جده فرحته فعجل بأمر الزواج الذي رحب به علي المنوفي وزوجته فرحاً بنسب الحاج بشير المشرّف، وفرحاً بصالح الذي يشبه أباه نورالدين، متمنياً أن يكون لزوج ابنته أخلاق أبيه ورجولته، لولا ما كدَّر الأمر اشتراط صالح بأن تترك سميّة الجامعة فلا تكمل دراستها بكلية الآداب، فاعترضت الأم على هذا وجادل بشير حفيده في شرطه المجحف لكنه استمسك به وقال له: "كيف أرضى أن تختلط زوجتي بالغرباء؟" ولولا موافقة سميّة في الخاتمة لفشلت الزيجة، فأحبها صالح لموقفها وراحت خيالاتُها تداعب قلبه لا جسده فحسب.

بعد إتمام الزواج بشهر حصل صالح على عقد عمل بإحدى الشركات الهندسية بالسعودية، فلم يجادله جده كثيراً في أمر السفر

وإن كان يكرهه، وهناك وجدَ صالح عالَمَه فكانت حياته بين العمل والتتلمذ على يد مشايخ الحجاز وبين بيته الذي صار أكثر دفئاً بعدما حبلت سميّة ووضعت ولدهما (باسل).

***

زار أحمد صديقه القديم أنس في مكتبه لشراء سيارةٍ من معرضه بعدما أصبحَ صاحبَ أكبر توكيل لبيع السيارات في مصر. تعانقَ الصديقان واسترجعَا أحاديث الماضي وترَّحمَا على أنبل شخصين في جماعة الأصدقاء: نورالدين ومينا، وتأسفَا لتبدل الحال وتباعُد الرفقاء واتفقَا على الاتصال بحكيم الذي أصبح واحداً من أهم المحررين بالأهرام واستعادة جلستهم القديمة كل خميس، ولم يفُت أحمد أن يستفيد من اللقاء فاشترى السيارة بسعرٍ مخفَّض جداً لم يكن ليحظى به في أي مكان آخر، فقد تعلَّم في جماعته أن يتمسك بمبادئه ما لم تتعارض مع مصالحه.. أنس الوحيد الذي لم يتغير، ظل مُخلِصاً لمبدَئه بأن يستمتع بالحياة دون أن يؤذي أحداً، ليس له انتماءٌ لطائفة أو لفكر، يكره الظلم ولا يشارك فيه ولكن لا يقاومه أيضاً. كبرت ثروته بعدما سافر إلى فرنسا وأنشأ مكتباً سياحياً لتصدير السياحة الأوروبية إلى (تونس) و(المغرب)، فجمع ثروةً طائلة مكَّنَته من العودة إلى مصر بعد الاستقرار والانفتاح بعد الحرب بتوكيلِ سيارات ليصبح به من صفوةِ أغنياء مصر، دون أن تشغلَهُ تجارتُه عن حياة العربدة التي اعتادها طويلاً ولم يتوقف عنها إلا بعدما انخرطَ في الحزب الوطني الذي أسسه السادات حديثاً.

التقى الأصدقاء الثلاثة في مكتب حكيم الذي فرِح بهم غاية الفرَح. سأله أحمد:

هل لازلت تكتب الشعر يا حكيم؟

الشعر يحتاج إلى قلب بريءٍ يا أحمد! وقد علمتنا السياسة أن نتوحش في غابتها وإلا أكلتنا الوحوش! لقد نسيت الشعر والشعراء فنحن هنا في معركة أشد من معارك الصحراء وكل يوم تظهر تياراتٌ وأفكارٌ خطرة، ودورنا مواجهتها.

ولكني لا أرى مقالاتك موجهة إلا لصدر الإسلاميين؟! ولم أَرَ لك كلمة واحدة موجهة ضد أحدٍ سواهم؟

- الإسلاميون يريدون إعادتنا للعصر الحجري، لا يستطيعون أن يفهموا أنَّ للحرب وقت، وأنَّ للسلام وقت آخر، وهم يعترضون على كل شيءٍ ويرفضون التعايش وسط المجتمع.

كيف ذلك وها أنا أجلس في مكتبك وأرتشف من قهوتك؟

- يا عزيزي الإخوان لا يمثلون خطراً حقيقياً على الدولة! ليس لأنَّ أفكارهم معتدلة ولكن لأنهم دائماً مستعدون لعقد الصفقات، ومن يطلب الثمن يمكن دوماً كسبه! الخطورة في الإسلاميين السلفيين، فهؤلاء لا يتفاوضون

إلا على تطبيق أفكارهم كاملةً، وإن كان عليكم أن تعترفوا أنكم أنتم من خلقتم هذه التيارات وخرجت من عباءتكم!

- لا يا حكيم. إنما صنعهم عبد الناصر وسجنه الحربي! القسوة لا تلد إلا التطرف، ولقد بالغ ناصر في عداءٍ كل ما هو إسلامي فكانت هذه الجماعات رداً عليه.

هكذا أنتم يا أحمد! دوماً تلقون بالمسؤولية على كل أحدٍ وتخرجون منها ملائكة.

- لا ملائكة ولا شياطين! إنما هذا هو الواقع الذي ترفضون الاعتراف به واليوم تحصدون ثماراً زرعتُموها بأيديكم.

ضرب أنس بقبضته على المكتب:

كفى سياسة ما جئنا لأجلها!

ولماذا انضممتَ للحزب الوطني يا أنس ما دمتَ تكره حديث السياسة؟

لم أَنْضَمِمْ للحزب يا أحمد لأجل السياسة وإنما لأجل تسهيل أعمالي.. فلِي تجارتي ولهم سياستهم!

يا تُرى لو كان نورالدين حياً، هل كان سيظل كما هو أم أنه مثلنا سيتغير؟

فقال حكيم:

- نورالدين مات لأنه رفض التغيير يا أنس، ففي هذا العصر المتقلب لا يحيا إلا المتقلبون..

***

حجز صالح أول طائرة لمصر بعدما علِم أنَّ جده بشير في مرض الموت، ونفسُه تتساقط قطراتٍ من ألم غير قادر على مواجهة موت أبيه مرةً ثانية، فقد كان بشير أباه الذي رباه بعد موت أبيه نورالدين، فَقَدَ صالح أحدهما طفلاً وهاهو يفقد الآخر شاباً.

رفض بشير أن يذهبوا به إلى أي مستشفى، وأخبرهم أنها النهاية وأنه يريد أن يموت في بيته بكرامةٍ على سريره بين يدَيْ أهله لا على الأسرّة البيضاء بين يدَيْ الغرباء. ولولا أنَّ الموت طارقٌ لا ترده الأبواب الموصدة لردَّته فرحة بشير برؤية شجرة نورالدين تثمر وتنمو. ضمَّ إليه حفيد الشهيد الذي لم يجاوز عامه الأول وباركه وقال لأبيه:

- لماذا لم تُسمِّه على اسم جده نورالدين يا صالح بدلاً من باسل؟

- ومن قال أني لم أُسمِّه على اسم جده؟ من كان أكثر من أبي بسالة؟ لقد سميته بصفة روحه يا جدي.

انتزعَ بشير بسمةً من فكِّ الموت راضياً عن منطق حفيده، وحملت منيرة باسل من بين ذراعَيْ أبيها لتريحه ولتَشبع من ذلك الوافد

الجميل الذي يحمل ملامح أخيها الفقيد، ولولا انشغالهم بذاك المغادر لانشغلوا بذاك الداخل من أبواب الحياة.

دخلت خديجة دامعةً محزونة، تقبِّل رأس حموها ويدَه وهو يرمقها بعين رحيمة ويهز رأسَ الموت مرِّحباً بتلك البتول الطيبة. همست بصوتٍ مخذول:

- حسام بالخارج ويريد أن يطمئن عليك، فهل تسمح له؟

امتقع وجه بشير بموتٍ أشد من الموت الذي ينازع، واستجمع ما بقي له من قدرة على الكلام:

لا يدخل علَيّ ولا أرى له وجهاً مادمتُ حياً، وإن وقف على غُسلي فقد خنتموني وخنتم ولدي.

خرجت فردوس وخديجة لحمل الرسالة الرهيبة التي ستوصد أبوابَ الرحمة في وجه حسام للأبد..

حتى وهو يموت لا يغفر لي، كلكم تظلمونني، كلكم تقتلون روحي. أنا لم أقتل نورالدين، وإن قتلتُه مرة فقد قتلني ألف مرة.

الموت كأسرابٍ من نمل تسرح في أطراف بشير، وجسده خاضعٌ لسطوةٍ كبرى تكبِّله، البرد يسري في عروقه وجبالٌ تجثم على رجليه وتزحف نحو صدره، عيونهُ شاخصة ترمق سقف الخوف وذكرياتُ سبعينَ سنة تُمطر عقله، يتبدَّى له وجهُ فردوس عروساً جميلة ومنيرة تنظر له بعيونٍ واثقة وتمد يدها تجذبه نحو الجسر الذي يغطيه

الضباب ووجهُ نورالدين يتجلى كنقطة من ضوء خلف الأفق.. روحُه تبتسم لِلقاءٍ طالَ شوقه إليه ثم تبكي فزَعاً من مجهولٍ يُطبق عليه.. أنفاسُ الملائكة باردةٌ تمسُ وجهَه وسيفُ الموت سارقٌ لا تراه العيون.. يريد أن يُغمِض أجفانه لعل الموت ينام وتستيقظ الحياة ولكن الأجفانَ مشدودة بسلاسل فلا ترتخي.. يريد أن ينادي يداً تستنقذه من تلك المواجع ولكن تاه الصوت.. الموتُ جِدُّ مخيف ومهما طالت السنوات تبدو قصاراً عند بلوغ الهاوية الأخيرة، والرحلةُ مفزِعة والخاتمةُ مبهَمة، يخاف من لقاء وَلدِه ويخشى أن يسائله: "أَعلمتَ أنكَ كنتَ على ضلال حتى قتلني من كنتَ تسبح بحمده؟" وتجيب نفسه: "أدركتُ يا بنيّ وكفرتُ بهم فاغفر لي" يريد أن يبكي لكن ضاعت الدموع في لُجَّة السكرات.. يريد أن يصرخ لكن لا صوتَ في قبضةِ الموتِ الصموت.. لماذا لا يُنهي الموت مهمته سريعاً طالما قد جاء؟ أين أنا ولماذا كل هذا الألم؟ أيتها الملائكة اِنزعي روحي أو اِرحلي بسلام.. ومنيرة تبصره وترى روحه الفزِعة فمدّت يدَ الرحمة تمسُّ جبينه المكسو بحباتِ عرق كالجمان، ابتسمَت روحُه فتلكَ يدٌ تعرفُها، همسَت في أذنه: "لا تخف" فسرى صوتها كأصابع تمسح على رأسِ القلبِ الوجيب: "اِرحل يا أبي أنت طيب فلا تخف، سيغفر لك الحبيب، أنت مسكين غرَّتكَ الفخاخ لكن لن تصيدكَ الذئاب، قد توَّجعتَ سنوات طوال ودفعتَ الثمن وسقطَ الدَين، أنت حرٌّ فأسلمهم روحك ولا تخف أنت مع الأبرار النادمين. نورالدين وحيدٌ هناك يا أبي فاذهب إليه ليزول البرد ويتباعد الظلام، قل له أنَّ الشجرة لازالت تكبر والجذور تضرب في الأرض البعيدة لكن لم يَحِن وقتُ الحصاد، أَبلِغه أنَّ مِنجلةَ الحطاب ستنكسر والحياة لازالت تزحف والغيوم تنتظر زوال المساء وسيأتي الصباح ويهطلُ المطر. مُت يا أبي الوديع، أنا

أُمسك يدك. لست وحدك." فهدأَت الأنفاس وأضاءت العيونُ الخائفة بقبسٍ من أمان وتجلَّت الشفاهُ عن بسمة وأزاح اللسانُ الجليدَ وشهق: "لا إله إلا الله"، ثم مات.

رنَّ الهاتف في بيت حسام وجاء صوت صالح: "مات جدي وأنا غسَّلته وسنصلي عليه في الصباح". سقط الهاتف من يد حسام وانقطع حبل الأمل فالأموات لا يمنحون غفرانهم عندما تنغلق عليهم القبور.

أحكمت اللعنة قبضتها حول عنقه فلا فِكاك. حتى أمه الرحيمة لم تحتضنه وقد مات أبوه، حتى فردوس أرادت إيلامه دون أن تهتز يدها وهي تغرس السيف حتى المقبض: "أبوك مات يا حسام، مات وهو غضبان"

عيونهُ مفتوحةٌ لا يشعر بشيء.. اليأس يقتل الرجاء ويمحو الشعور.. الغرباء يحملون جسد الوالد الغاضب على خشبة الأموات ويدلفون نحو المسجد للصلاة والطريدُ يدرك أنه طريد فلا يجرؤ على مُجاوزة الباب، الغرباء يصلّون على أبيه ووحده منبوذ خارج المحراب، صالح يؤمُّ الناس ويصلي على جده وصالح نسل نورالدين، نورالدين لازال يهزمه في كل ميدان، فيتمتم: "ماذا يا نورالدين؟ يالك من ميت لا يموت".

رحلة أخرى نحو القبور.. مات أخوه فمنعه أبوه من الصلاة، ومات أبوه فمنعه ثأرُ أخيه من الصلاة، قدَرُه أن يشاهد اللعنات ترجُمه ثم تختفي تحت التراب..

صارت روحه كجلمود، واستحال إلى حيوان يكفُر بالرحمات، أقسمَ أن يعاقب كل الكون وأن يأخذ ثأرَه من الحياة، فأَولى القبرَ ظهره وغادر جسداً خالياً لا قلبَ له وظِلاًّ يتحرك بلا روح، ظِلٌّ لا بردَ فيه. ظِلُّ النار.

***

سألَت فردوس حفيدها:

مش ناوي تقعد معانا يابني وكفاية سفر؟ مبقاش لنا راجل غيرك يا صالح، أُقعد معانا يابني وافتح وكالة جدك!

إن شاء الله يا جدتي، هستقر هنا أراعيكي وأراعي عمتي.. وأوعدك هفتح الوكالة، لكن مش هتاجر فى القماش.

ليه يابني؟ مالها تجارة القماش ماطول عمرنا عايشين من خيرها؟

يا جدتي الستات بتشتري القماش وتفصّله فساتين وهدوم عريانة! وأنا مش هشارك في اللي يغضب ربنا.

إنت بتبيع القماش يا صالح، وكل واحد بيتحاسب على نيّته.

دة قراري وإنتم عارفين الأمر دة من زمان.. أنا هفتحها مكتبة إسلامية، هتاجر في كتب الدين فنربَح ونُؤجَر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. اعمل يابني اللي إنت شايفه وربنا يهديك للي فيه الخير والصواب.

***

صورة السادات وهو يهبط مطار (بن غوريون) واليهود يصطفّون على الجانبين يحيُّونه أصابت المصريين بضربة في صميم القلب، وهم قابعون أمام شاشات التلفاز يشاهدون رئيسهم البطل الذي أخذ بثأر المصريين واسترد أرضهم وركعَت أمامه "نجمة داوود" وهو يُسِّلم كرامتهم على طبقٍ من فضة لإسرائيل، وبدلاً من أن يدخل تل أبيب غازياً على ظهر دبابة إذا به يدخلها كزائرٍ يعترف بكيانهم ودولتهم.. قلة قليلة كانت مؤمنة أنَّ الحرب لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وأنَّ مصر لن تقاتل نيابة عن العرب على طول الخط، وأنه حان الوقت لبناء مصر بعيداً عن طبول المعارك لتزدهر الحياة بدلاً من حصاد الموت المرير، غير أنَّ سواد الأمَّة الأعظم كان رافضاً لهذا السلام المُهين، وإذا كان على الحرب أن تقف فليس هذا مبرِّراً لنسيان الماضي ومسالمة العدو المتربص، وصالح كالعادة حائرٌ على مفترق الطرق خائف من الاختيار متردد أمام كل قرار، كارهٌ لمسالمة اليهود لكنه لا يدري أين الصواب فلم يكن يوماً مكترثاً بالساسة وسياستهم، كان عازفاً عن عالمٍ ملتاث يتصارعُ على فُتات الحياة التي يزهدها، وقد كان في موت جده بداية لطريقٍ ترتاحُ له نفسه في مكتبته الجديدة التي يبيع فيها الكتب التي تعيد الناس إلى طريق الله، فلا يذهب لأي مكان إلا لمكتبته والمسجد وبيته، وعندما طلب منه الشيخ محمد أن ينتظر بعد صلاة العشاء لأمرٍ هام استجاب لشيخه القديم الذي بدأ حديثه مترحماً على جده:

- رحم الله الحاج بشير، لو كان حيًّا وشاهد هذا العار لماتَ حسرة، قد رحمَه الله بأن اختاره لجواره قبل شهور من هذه المصيبة.

ترحّم صالح على جده ولم يعقّب..

ما رأيك أنت يا صالح في هذا الأمر؟

اليهود أعداء الله والرسول، وهم أعداء أمَّة الإسلام على مدى التاريخ ولا أعلم لماذا يسالمهم السادات، لكن أنا أجهل أمور السياسة وتعودت أن لا أتدخل فيما أجهل وأهل مكة أدرى بشعابها.

هذه سلبية يا صالح! إذا تركنا الظالمين يرتعون في شرف الأمَّة الإسلامية فإنَّ عذاب الله سينزل بالصالحين قبل الفاسدين، وقد قال الله في كتابه العزيز {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}، أُنظر! لم يقل و"أهلها صالحون"، لأنَّ الاكتفاء بصلاح الذات دون إصلاح ما حولك لا يُغني عنك من الله شيئاً فلابدَّ من مواجهة الظالمين ولو كانوا حكامنا.

لكن ما الذي يدرينا أننا إذا واجهنا الدولة فإن هذا إصلاح؟ قد يكون فتنة، والله قال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} فقد يرتكب الإنسان أسوء المفاسد وهو يظن نفسه مُصلحاً!

- لا يا صالح. الحق بيّن والضلال بيِّن. والسادات ما عاد من جماعة المسلمين وقد حكَّم غيرَ شرع الله، ووالى أعداء الله وأبعدَ أهل الدين وقرَّب الفاسدين، أُنظر إلى العري الذي صار في كل مكان والغناء ومفاسد الأخلاق التي انتشرت حتى أصبحتَ لا تفرِّق المرأة المسلمة من النصرانية ولا المسلم من الكافر! أنا أحبك يا صالح وأحب لك الخير.. لابدَّ لك من جماعة الإسلام، فكن فيها واعتصم بها وتبرَّأ من غيرها.. قد انقسمت الأمَّة إلى فسطاطين: فسطاطُ إيمان لا كفرَ فيه وفسطاطُ كفر لا إيمانَ فيه، فكن مع الفرقة الناجية تسلمْ بدينك.

وماهي تلك الفرقة يا شيخ محمد؟ جماعة الإخوان مثلاً؟

الإخوان؟ لا فرق بين الإخوان والنظام فهم معهم على طول الخط، ولا تغرنَّكَ اللِّحى والصور فتسعُ أعشار ما ترى بقر. لقد أصبحوا جزءًا من النظام الذي يحتكم إلى شريعة الطاغوت ولن يستنكروا الكفر البواحَ منهم. إنهم فاسدون ولو طالت لحاهم إلى ركبهم. لقد تغيَّر الإخوان ومرّوا من الدين مرور السهم من كبدِ القوس.

لا داعي لتكفير الناس بغير دليل يا شيخ محمد فالحُكم بالكفر أمرٌ عظيم!

- أنا لا أكفِّرهم، ولكن مواقفهم كلها ضلال. أنا أدعوك للانضمام إلينا فنحن أسّسنا مع الإخوة الأخيار (تنظيم الجهاد) ولا غاية لنا إلا إعلاءُ كلمة الله.

الجهاد؟ ضد من؟ ضد المسلمين؟

من حكَّم غيرَ شرع الله لا يكون مسلماً حتى لو صلّى وزكّى وصام.

- وكيف سيكون هذا الجهاد؟ هل نحمل السلاح ونقتل الجنود الذين لا ذنب لهم في شيء؟ أم نقتل الضباط الذين يطيعون الأوامر التي يتخذها غيرهم؟

{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِين}. لا عذر مطلقاً لأحد في طاعةِ مخلوقٍ في معصية الخالق..

لا يا شيخ محمد. اِفعل ما شئت وسأعتبر أني لم أسمع شيئاً لكني لن أشارك في أمرٍ عاقبته الخوض في الدماء.. فلئن ألقى الله وأنا رجلٌ مقصِّر لم أقتل ألف رجل مستحق للقتل خيرٌ من أن ألقاه وفي رقبتي دمُ قتيل واحد قُتِل ظلماً.

***

أراد صالح أن يؤكّد حياته الجديدة وأن يمحو كل أثرٍ لما كان قبله، فقرر أن يبدأ عمله بتغيير اسم مكتبته التي كانت لا تزال تحمل

اسم الجد. أراد أن يُعلنَ تمسكه بالشريعة ولو بيافطةٍ تحمل كلمة التوحيد ليعوض بها عن رفضه الانخراط في تنظيم الجهاد، ويعطي نفسه الراحة بأنه قادرٌ على المواجهة والتمسك بالدين، وإن لم يكن هذا في ميدان الرصاص فليكن في ميدان العناوين الكبيرة والأسماء المقاوِمة، فأنزلَ اسم جده ليرفع اسم الله!

وقف إبراهيم دامعاً وهو يرى يافطة (وكالة بشير الأعرج) يتم إنزالها.

ليه يا صالح بتشيل اسم جدك يابني؟

أنا هفتح مكتبة إسلامية ياعم ابراهيم وهسميها (منارة التوحيد).

افتح اللي إنت عاوزه يابني بس سيب اسم جدك.. خليها مكتبة الأعرج! دي الوكالة ميبقاش فيها خير لو غاب عنها اسم الحج بشير، بلاش تحرمنا من ذكرياتنا يابني، إحنا في أرذل العمر ومبقاش فاضل لنا غيرها..

كلمة التوحيد أعز علينا من أسامينا يا عم ابراهيم. ودة شأني.

- عندك حق يابني، دة شأنك، وزمنك. إحنا خلاص زمانّا راح مع اللي راحوا.. الله يرحم الأموات ويريحنا من الدنيا.

وكفكف دمعهُ وولَّى.

قسَّم صالح مكتبته إلى قسمين، قسم لبيع الكتب والآخر لبيع ملابس المتحجبات، وقد أضافَ لهُ نوعاً من الملابس نسيَه المصريون منذ خمسين سنة: (النقاب).

كانت زوجته سمية من القليلات اللواتي يرتدين النقاب الذي أمرها به منذ أن سافرَا إلى السعودية فامتثلَت لأمره دون مناقشة، ودون اقتناع أيضاً، لكنها تعودت أن تطيعه على الدوام، فقد صنع اليتم وقتلُ أبيهِ في نفسه مزيجاً من الخوف والغضب جعلَا منه رجلاً مرتاباً في كل من حوله وصلباً إذا اتخذَ قراراً لا يتزحزح عنه ولا يناقش فيه، وقد علِمَت هذا زوجته وجدته فردوس فكانتا تصمتان أمام كل قرارٍ يتخذه ولم يكن أحدٌ يجرؤ على مناقشته إلا عمته منيرة وخديجة التي ربَّته مع عمته عاماً بعد عام. عندما زارته خديجة في مكتبته الجديدة اشترت مجموعة من الكتب وأصرت على دفع الثمن، فقدم لها حجاباً وقال لها:

هذا هدية لكِ لعلّ الله أن يهديَكِ وترتدينه فأنتِ تقية مؤمنة ولا ينقصكِ إلا الحجاب.

فابتسمت له:

- نعم يا صالح، ربما ينقصني أن أرتدي الحجاب على رأسي، وينقصك أن تنزع أنتَ الحجاب عن عقلك لترى الناس في جوهرهم لا مظهرهم.

***

لم يتمالك صالح دموعه عندما رأى صورة (الشيخ محمد) الذي علمه القرآن والحديث وطالما أرشده وكان قدوته ومثاله وهي تتصدر الصفحة الرئيسية بالجريدة الرسمية تحت عنوانٍ مكتوب بالخط العريض: "الحكم بالإعدام على قتلة السادات". وسط الخمسة المحكوم عليهم بالإعدام كان محمد هو المدني الوحيد والباقون ينتمون للجيش، لم يُطلق رصاصةً واحدة نحو الرئيس المؤمن بل شاهد مقتله أمام التلفاز ككل الجماهير التي تشاهد لأول مرة حاكماً مصرياً ينزف دماً. لم يعرف المصريون قتل الحكام منذ عهد المماليك الذين كانوا يقتلون بعضهم بعضاً، واليوم يقتل رجالٌ من الجيش قائدَ الجيش الأعلى، قتلوه باسم الإيمان وهو الملقب بالرئيس المؤمن.. سقط الخديوي إسماعيل بمِنجَلة الديون الثقيلة ونُفي الملك فاروق بدعوى الخيانة وعُزل نجيب بتهمة الضعف ومات عبد الناصر بقهر النكسة، لكن لم يُقتل منهم أحد، وحده السادات الذي قال "أنا رئيس مسلم لدولة إسلامية" قُتل باسم الإيمان بعدما أصبح الدين كأسَ خمر يرفعُها الحاكم إلى فم الرعية ليقودَهم بالطاعةِ الصامتة والوعي الغائب، ويرفعها الطامحون للحكم تحت شعار (الإسلام هو الحل)، ويرفعها القتلة في وجه الجميع بإسم الجهاد.. فخمرٌ للحكم وخمرٌ للصدارة وخمرٌ للقتل، وغاية كل الكؤوس أن تجلسَ في الخاتمة فوق العرش.

كان الشيخ محمد العقلَ المدبر لتنظيم الجهاد الإسلامي منذ أن خرج من السجن الناصري بعد أن أطلقه السادات مع رفاقه ليقضوا على خصومه من الاشتراكيين، فأكلوهم، ثم لما لم يجدوا طعاماً أكلوه.. تربوا على أفكار (سيد قطب) منارة الإخوان ثم كفروا بالإخوان وكفروا بالدولة، وقام الشيخ محمد بتأليف كتابٍ أصبح هو

المرجع الوحيد لجماعته، يعودون إليه لتبرير القتل وسفك الدماء ودليلُهم دوماً جاهز في طيات كتاب أستاذهم (الفريضة الغائبة).

وجدوا حجتهم في مسالمة السادات لليهود فأعلنوها حرباً على الجميع بِاسم الإيمان، فالإيمان هو أبشعُ سيفٍ في يد الخاوية قلوبهم من الإيمان، يملَؤون قلوب أتباعهم بوهم الإيمان وليس حقيقته، فكلُّ إيمان يصنعُه الدليل هو زيفٌ وضلال، وحده الإيمانُ الذي ينبع من القلب يسكنُ فيه، فمن عرف الإيمانَ الحق لا يحمل الناس عليه.. ووسط الجنود سقط رب الجنود، ليتولى عسكري جديد، فكلما سقط هرقل قام هرقلٌ آخر، والبندقية لا تزال تأبى مغادرة العرش.

كـأس الضبـــاب

[ليست العلامات دوماً دليلاً على الطريق.
حين يلتبس كل شيء لا تتَّبِع إلا الإشارات التي تخرج من قلبك أنت]

فتحَ صالح الباب وهو يتلو دعاء الدخول إلى البيت، فأتمَّه مبتسماً لرؤية جدته فردوس بجوار عمته منيرة وزوجته وخديجة زوجة عمه..

ما هذا الاجتماع النسوي؟ هل هذا اليوم العالمي لحقوق المرأة؟

أُقعد يا صالح يابني.. إحنا مستنيينك من بدري كلنا.

خير يا جدتي؟ حصل حاجة؟

- أيوة يا صالح، إنت عارف يابني الظروف، الدنيا اتغيرت وعلى رأي المثل "الباب اللي يجيلك منه الريح سدّه واستريح" وإنت شايف كل يوم بيمسكوا حد، دة أول امبارح المباحث خدت حسن ابن أم محمود جارتنا.. إحنا مبقاش فينا حيل للكلام دة يا صالح، احلق دقنك يابني والإيمان في القلب مش بالدقون!

تغيَّرَ وجه صالح:

- متخفيش يا جدتي، أنا مليش دعوة باللي بيحصل عشان يخدوني.

اسمع كلام جدتك يا صالح وبلاش عند. إحنا كلنا خايفين عليك وقتل السادات مش هيعدي بالسهل! هيعتقلوا كل اللي بيشتبهوا فيهم وحلني على مايعرفوا مين المتهم ومين البريء!

لم يعقّب صالح على كلمات خديجة ونظر لزوجته غاضباً:

- طبعاً إنتي صاحبة الدعوة دي يا سميّة؟ وجمعتيهم عشان يضغطوا عليا؟

يا صالح أنا خايفة عليك! أيوة أنا اللي اشتكيتك لهم عشان عمرك ماهتسمع كلامي! علشان خاطر ربنا احلقها لحد ما الأزمة دي تعدي وابقى ربيها تاني بعدين. بلاش علشانك ولّا علشاني عشان إبنك باسل وعشان الجنين اللي في بطني.

وإنتي رأيك إيه يا عمتي؟

محدش هيرّد عنك المكتوب يا صالح، وخوفي عليك مش من دقنك، خوفي عليك من حيرتك قدام الطريق. إنت مش شايف طريق النور من العتمة وحيران طول عمرك يابن الحبيب.. اسأل قلبك يا صالح وهو يدلك، الأنوار بتعمي عيون العقل ومبيعرفش يشوف لكن القلب ساكن في الضلمة وعيونه بتشوف وسط العتمة.. اسأل قلبك يهديك!

إوعى يا صالح تكون مع الجماعة اللي قتلوا السادات؟ دة الدم غالي عند ربنا وإنت مؤمن يابني!

أنا مليش دعوة باللي حصل يا جدتي ولا موافق عليه.. السادات حتى لو غلط بإنه راح لليهود وسالمهم فدة ميكونش جزاؤه القتل!

- ربنا يكملك بعقلك يا صالح، أنا خفت عشان عارفة إن الشيخ محمد كان صاحبك والناس بتقول إنه هو اللي قتله..

- الشيخ محمد مقتلش حد، ولا عمره مسك سلاح، لكن الأفكار ساعات بتقتل أكتر من الرصاص! ربنا يهدينا للحق ويعصمنا من الفتن.

- أنا معرفش قتلوه ليه؟ دة حتى السادات كان أحسن من عبد الناصر وخرّج الناس من السجون وساب كل واحد يقول اللي هو عايزه..حسام من وقت ماإتقتل السادات وهو زي المجنون لا بياكل ولا بيشرب وعلى طول بيقول لازم السجن الحربي يرجع وإلا الإرادة هتموت ولازم الكل يتعاقب!

عمي حسام اتربى في مدرسة عبد الناصر ومبيفهمش غير لغة القتل والإعتقال ربنا يهديه..

اِسوَدّ وجه فردوس لما تسمع متذكِرَةً سنوات الألم الرهيب، ولكنها اليوم وحيدة أمام مواجهة الماضي الذي ينتفضُ من مقبرة الذكريات، تفتقد حكمة زوجها وحزمه بعدما تركها وحيدة أمام تركة ثقيلة لأسرة ممزقة، تحمل السر الرهيب فتُخفي عن الولد أنَّ عمه هو قاتلُ والده، تتمزقُ بين رغبتها في رحمة ابنها حسام ولَمِّ شمل أسرتها وبين ولائها لوصية بشير بأن يظل حسام طريداً بعيداً.. وهاهي تسمع من خديجة موقفه الذي يدُّل أنه لازال يحمل القلبَ الجحود واليدَ الباطشة.. كل شيء يمر ويتغيرِ إلا حسام ثابتٌ على قسوته الأبدية وولائه للبندقية الذي لا يتزعزع.. لم تستطع أن تنطقَ بكلمة فسالت دموعها واتكأت على ابنتها لتعود بها إلى غرفتها، وليفعل صالح ما شاء فما عاد قلبها يحتمل المزيد.

***

سارعَ الإخوان للتبرُّؤِ من حمَلة السلاح فأعلنوا أنَّ سلاحهم الدعوةُ والكلمة وليس القنبلة والبندقية، ولكن الدولة رفضت دعوتهم إذ أنَّ القتلة قد خرجوا من عباءتهم، وفرح المسيحيون بمقتل الرئيس الذي عزل كاهنهم الأكبر (البابا شنودة) والذي عاد لكرسي البابوية بعد مقتل السادات بعدما تصالحت الدولة مع الكنيسة، وترددت كلمةُ المسيحيين في كل مكان "السادات حبس البابا في الدير ستة عشر يوماً فحبسه الرب في القبر" فأصبحت مقولة تتردد في جنبات الكنائس بعد ذلك لسنواتٍ طوال، يُعلِنون بها انتصارَ الصليب على الهلال، لينتفضَ الهلال للرد على الصليب، فانفصلَ عناقُهما إلى غيرِ عودة، ونازعت اليدُ اليمنى أختها اليسرى في حربٍ صليبية وجهاد إسلامي، وكلما خمدت النار أوقدَتها يدٌ في الخفاء، وفي رحى الحرب المقدسة ظل

العرش آمناً يَغفل عنه الجميع، تارةً يبطش بالهلال والصليب معاً وتارةً يقوم بدور المصلح بينهما ليقبِّل الشيخُ القسيس على الشاشات والنار لازالت ترقد تحت الرماد، وظلت الأحقاد بينهما سنوات بعد سنوات ولم يعودا لعناقهما القديم أبداً إلا بعد عقود، عندما اجتمعَا على إزالة البندقية من فوق العرش، فصبَّ الصليب الوضوء على يدِ الهلال ووقف الهلال ليحمي ترانيم الصليب في ميدانٍ عرفه كل العالم، ليحققا معاً الحلم القديم بعودة العرش لحمَلة القلم لا حمَلة السلاح.

***

استغربَ أحمد اتصال الدكتور (عصمت) عضو مكتب الإرشاد الذي أخبره برغبة المرشد في لقائه على عجل، فتأهب لذلك اللقاء الغريب، فرغم أهمية أحمد كعضو بالجماعة لكنه لم يكن له يوماً أي دور في اتخاذ القرارات داخل الجماعة أو تحديد سياستها، وصل أحمد إلى بيت المرشد العام الذي كان في استقباله مع الدكتور عصمت في مكتبه، وبعد حديث ودي سريع سأله عن رأيه في مقتل السادات:

مما لا شك فيه أني أرفض إزهاق أي نفس يا فضيلة المرشد، ورفضي لقتل رئيس الدولة أشد لأنه سيُحدث من الفتن ما لا يعلمه إلا الله، لا سيما وأن الرجل منح التيار الإسلامي فرصةً لم يحظى بها في تاريخه.

لهذا تحديداً طلبتك يا أحمد فالأمرُ بالغ الخطورة، فقد يتِّم الزج بالإخوان في القضية. الدولة تعامل الإخوان

بوصفهم كبارَ البيت الإسلامي ورُعاتَه، وسيحمِّلوننا نتيجة ما حدث، وسنوات المحنة أيام عبد الناصر ليست ببعيدة ولقد كلفتنا الكثير، ونحن لسنا مستعدين إلى العودة إلى الزنازين والعودة تحت الأرض من جديد.

وما المطلوب مني فضيلتك وأنا مستعدٌ لتقديمه إن شاء الله؟

معلوماتنا تقول أنَّ لك أصدقاءَ مقربين من النظام يمكن أن تنقل موقفنا إليهم.

هل أنا مراقب يا فضيلة المرشد؟

لا داعي لهذه الحساسية يا أحمد.. أنت أخ كريم وثقتنا بك مطلقة، ونحن ندرك ولاءك للجماعة وأنت تدرك أننا دعمناك لسنواتٍ طوال. غايةُ الأمر أننا نهتم بمعرفة أفكار إخوتنا ليس إلا!

نعم تربطني صداقةٌ قديمة بحكيم الصحفي بالأهرام وأنس رشدي عضوًا الحزب الوطني إذا كنتَ تقصدهما.

نعم هما من أقصد بالتحديد، وأرجو أن تلقاهما في أقرب فرصة وتنقل موقفنا إليهما، ولن نحدد لك ما تقول فنحن نثق في حكمتك.

***

حمل أحمد الرسالة إلى رفيقَيْ العمر عندما التقى ثلاثتهم بمكتب أنس بعدما نظم أحمد اللقاء، وكان حكيم الأكثر حدة:

- تقتلون الرجل والآن تريدون التنصل من الأمر برمته؟!

يا حكيم أنت تدرك أنَّ مصر أصبحت تعج بالتيارات الإسلامية المختلفة ونحن لا سلطانَ لنا إلا على أفراد جماعتنا، اِرجع إلى كتب الجماعات المتشددة وستجد أنهم يُخالفونَ الإخوان على طول الخط، حتى أنَّ بعضهم يكفِّرنا لمجرد أننا نتحاور مع الدولة! وأنت سياسي وتدرك هذا.

ولأني سياسي فإني أعرف جيداً أنَّ هذه التنظيمات تربَّت على أيديكم وخرجت من عباءتكم.

الصواب أن تقول انشقَّت عنا وخرجت عن صفنا، فنحن لا ننتهج إلا الدعوة إلى الله بالحسنى.

هذا الكلام يمكنك أن تخدع به البسطاء لتضمّوهم إليكم ولكنه لا ينطلي على من مثلي..

- الأمر ليس شخصياً يا حكيم.. لو حمل الإخوان السلاح ضد الدولة لخسر الجميع، فأنت تعلم أن حجم الجماعة ليس بالهيّن، إنما الجماعة ترفض العنف، وترى أنَّ الإصلاح لا يكون إلا بالمشاركة وليس المواجهة.. ما الذي

سيفيدنا من قتل السادات والرجل كان منفتحاً على الجميع بل وقريباً من الإسلاميين؟!

- وتلك هي غلطته التي دفع ثمنها باهضاً يا أحمد.

- ليس الأمر كذلك يا أنس، المتشددون موجودون في كل مكان، من الذي قتل "غاندي" ومن الذي قتل "كيندي" إلا أمثال من قتلوا السادات؟

- السادات كان مُصلحاً وعلى يده تطورت مصر، وكانت الحرية للجميع، وعلينا أن نتمسك بمبادئه بدلاً من نَصْبِ المقصلة للجميع المذنب والبريء على حد سواء..

- وهذا ما نريد نقله للنظام الجديد، فلا داعي لفتح مواجهات الجميعُ سيخسر فيها، لا سيما وأننا لسنا طرفاً في الحدث.

هل هذا تهديدٌ للدولة يا أحمد؟؟

ليس تهديداً يا حكيم وإنما دعوةٌ للحوار وتجاوز الأزمة.

رغم أني غير مقتنع بما تقول لكن سأنقل كلامك لقيادة الحزب، وإن كنت شخصياً أرى أنَّ الإخوان لو لم يكونوا شركاء في قتله فلقد كانوا أحد أهم الأسباب، وثِق يا أحمد أنَّ شيئاً لن يعود كما كان قبل (السادس من أكتوبر 1981).. أنا كصحفي قبل أن أكون سياسياً أعلمُ

جيداً أنَّ المثقفين في مصر لم يكونوا راضين عن فلسفة السادات السياسية التي حملت الطابع الديني خاصةً في السنوات الأخيرة، وكذلك معظم السياسيين ورجال الجيش.. لقد ارتكبَ الإسلاميون أكبر حماقة وأعطونا السبب الكافي لإخراجهم من المشهد كاملاً.

- لا أحد يخرج من المشهد يا حكيم صدقني، كلنا نرقص على ذات المسرح، ولو فعلتم هذا فلن نخسر كثيراً، غايةُ الأمر أننا سنغادر الخشبة لنجلس وسط الجماهير، وساعتها سنكون نحن الأقرب إليهم فنسمع نبضَ قلوبهم وندرك مخاوفهم وآمالهم، ربما سيكون الضوء مسلطاً على من فوق الخشبة لكن هناك في القاعة المظلمة يمكث الجمهور، وساعتها سيكون معنا، ونحن لا نريد أكثر من هذا، فإذا كانت بأيديكم إرادة الدولة ستكون بأيدينا إرادة الجماهير.

***

أرادت خديجة أن تكسر الصمت وهي تعدُّ طاولة العشاء بعد عودتها من السينما مع ابنها كمال:

- هو مش أحمد مظهر كبر على أدوار الرومنسية دي؟ أنا دخلت الفيلم وندمت حتى كنت هخرج من نصه بس اللي خلاني كملت إني لاقيت كمال مبسوط بالخروجة.

- إنتي فاكرة الممثلين دول إيه؟ مصلحين يعني؟ الحكاية بالنسبالهم أكل عيش والدور اللي يلاقوه يشتغلوا فيه وخلاص الأفكار اللي عندهم خلصت فبيمثلوا أي دور.. أنا نصحتك تخرجوا تتعشوا وتتمشوا شوية أحسن من السينما وبعدين كمال صغير على الكلام دة، كنتي خليتيه يشوف حاجة مفيدة أحسن!

- يعني هو إيه اللي مفيد في البلد دي؟ أنا قولت نشوف حاجة جديدة ونغير جو ومرضيناش نتعشى من غيرك، وأنا مش عايزة الولد يفضل محبوس في الشقة.. أنا هاخده وأزور ماما فردوس أتطمّن عليهم وأشوف منيرة وبالمرة كمال يلعب مع باسل.

عاوزة تروحي يبقى تروحي لوحدك وسيبي كمال مع الشغّالة. صالح دماغه متخلفة وأكيد إبنه هيكون زيه ومش عايز كمال يتعلم منهم حاجة!

يا حسام دول أهل الولد ولازم يتعرف على عيلته ويكون قريب منهم، إنت حر في نفسك لكن مش حر تحرم كمال من أهله!

الموضوع دة اتكلمنا فيه كتير يا خديجة، وقراري مش هرجع فيه، أنا معنديش في الدنيا غير إبني، وانا أعرف أربيه إزاي! الجو في بولاق أبو العلا هيفسد أخلاقه..

هو إنت مش من بولاق أبو العلا برضو ولاّ أنا فاهمة غلط؟

ألقى حسام الفوطة المعلّقة على صدره فوق المائدة ونهض منهياً الحوار، فوضعت خديجة مزيداً من الطعام في طبق كمال وهي تقول له:

- كمّل أكلك يا حبيبي. أنا هاخدك عند ماما فردوس وهتلعب مع باسل.

فابتسم كمال وأكلَ بشهيةٍ مفتوحة.

***

ورث إسكندر تجارة جده إبراهيم التي انتعشت على يده كثيراً بعدما أصبح يتاجر في قطع غيار السيارات الحديثة والتي أدرَّت عليه ربحاً كبيراً، فقام بهدم البيتِ القديم ليبني عمارة كبيرة. جعل الدور الثاني والثالث لأسرته الصغيرة: أمه مارية وزوجته وأبنائه (ريمون) و(سوزان)، وجعل بقية البناية للإيجار، وكان بقية الجيران يتندَّرون عليه لأنه جعل بيته مثل كنيسة وليس عمارة سكنية فهو لا يؤجِّر الشقق إلا للمسيحيين ويرفض سكن المسلمين ببيته.

انقطعت الصلة القديمة بين وكالة بشير الأعرج ووكالة إبراهيم قلتة بعدما ورث الأول صالح وورث الأخير إسكندر، ورغم تجاور الوكالتين إلا أن الجفاء كان مخيِّما بينهما.. صالح يُعلن عن هويته ببيع

الكتب الإسلامية وملابس المتحجبات وإسكندر يضع صورة (البابا شنودة) فوق مكتبه بالوكالة وأعلى الصورة صليب كبير.

تجلت صورة الجفاء عندما رأى صالح ابنه باسل يلعب مع ريمون أمام المكتبة فأمسكه من شعره وجذبه:

أنا مش قلتلك متعلبش مع الواد دة؟

خرج إسكندر عند سماعه الجلبة وسارع إلى ابنه وصفعه بقسوة:

أنا مش قلتلك لما تيجي معايا متلعبش مع عيال الشوارع؟

وكادت أن تقوم معركة كبيرة بين أحفاد الصديقين القدامى لولا تدخل التجار، لا سيما كبار السن الذين نهروهما معاً وهم يترحمون على إبراهيم وبشير اللَّذان كانا لا يفترقان أبداً ويحمل كل منهما سر صاحبه، أما الآن فتبدل الحال ليرثهما أحفادٌ نمَت الكراهية في صدورهما وأثمرت عداءً مستحكماً لا يعرف أحد أي يدٍ أثيمة ألقت ببذوره.. ودارت رحى الدائرة المقيتة، فصار الأبناء يرِثون حقد الآباء ويبُثونه في أنفس أطفالهم جيلاً بعد جيل.

لم يفهم باسل لماذا يمنعه أبوه من اللعب مع صديقه الصغير، ولم يدرك ريمون لماذا ينهره أبوه كلما رآه مع باسل، فاتفق الصغيران على اللعب سرًّا بعيداً عن المكتبة والوكالة لتنشأ بينهما صداقة وطيدة لم تستطع الكراهية فصل عُراها، لكن النساء استطعن أن يفعلن ما عجزت عنه كراهية الآباء، فقطعَت يدُ الحب صلة الرفيقين التي عجزت عن قطعها يدُ البغضاء.

***

فوق وسادة الليل، وبعدما تهدأ كل الأصوات تنهضُ الذكريات والأحلام وتتزاحم أصواتها حول القلب. الذكرياتُ تخبرنا أننا كبرنا جداً فنسترجع الماضي السحيق حين كنا ساذجين نحمل براءتنا الوديعة دون كراهية ودون خططٍ لمستقبل لا نعبأ كيف سيكون. والأحلامُ تتحداها سنوات العمر التي لم يبقَ منها الكثير فتبدو الأحلام مجرد حماقة حين ندركُ حقيقةَ أننا أصبحنا قريبين جداً من مقصلة الموت. على تلك الوسادةِ الباردة يضع أحمد رأسه المرهَقة بأفكارها وقد شارف على الخمسين من عمره، يسترجع ماضيه البعيد عندما كان أستاذاً للتاريخ تحدوه فورة الشباب ولا شيء يشغل باله إلا ساعات العمل وأحاديث الأصدقاء، يتجلى له وجه نورالدين صديقه الأحب ورفيق السجن وصورة الشهيد الأول في خاطره فيسائل نفسه هل خنتُ نورالدين حين أصبحتُ واحداً من (الجماعة) التي كان يراها شريكاً فيما وصلت إليه مصر؟ هل خنتُ أحلام النضال؟ لكن أنا لم أكن مناضلاً يوماً ولم أشارك نورالدين آراءه.. غاية الأمر أني رفضت شهادة الزور ضده لتنقلب حياتي بعدها رأساً على عقب وأجدَ نفسي عضواً في جماعةٍ لم أفهمها يوماً ولا أدري لماذا صار كل ولائي لها؟! تُراه هل هو فراغُ الروح ما فعل بي هذا عندما رأيت نفسي رجلاً لا ينتمي إلى شيء كشجرةٍ غير مثمرة تقف وحيدةً وسط الصحراء تصفعها الرياح وترجُمها حبات الرمال، فقرّرتُ أن أنتسب إلى أول واحةٍ فتحَت لي ذراعيها؟ هل أنا مؤمنٌ حقاً ونذرتُ حياتي للدفاع عن الدين ونصرة الإسلام؟ وما هو الخطر الذي يهدد الإسلام لأدافع عنه، وإذا كان الإسلاميون حقاً غايتهم نُصرة الإيمان فلماذا قتلوا الرئيس المؤمن؟

وإذا كانت الدولة حقاً تعادي الدين فهل جماعتي تسعى لنَصره؟ لماذا لا يرون نُصرة الدين إلا بسيادتهم وتمكينهم؟ لماذا لا نقدم نصر الإسلام بالمجان؟ لماذا نشترط أن نقبض ثمن الفداء لو كنا حقاً صادقين؟ لماذا لا ندعوا الناس للعودة إلى مبادئ الشريعة الطيبة ونحن محايدون بدلاً من دفعهم دفعاً للانضمام إلينا؟ هل جماعتنا هي الإسلام ودونها الضلال؟! أين حقيقة هذا القول ونحن لا نرفع إلا شعاراتٍ لا قلبَ لها، جوفاء بلا جوهر، خاويةٌ لها دوي كدوي الطبول لكن حقيقتها الفراغ والخواء؟.. "الإسلام هو الحل"!.. ثم ماذا؟ لا شيء.. نشارك الدولة سياستها ونقاتل لنكون بجوارهم في المجالس النيابية ولنصطف معهم في قيادة النقابات.. هل طالبنا ولو لمرة واحدة بتطبيق الشريعة، بل هل طبقناها نحن على أنفسنا؟ لا شيء غير الكلام.. الدولة تتكلم ونحن نتكلم وكل التيارات تُرغي وتُزبد.. قعقعةٌ ولا طحن.. سيوفٌ مشرعةٌ بغيرِ قضية تقاتلُ من أجلها.. الكل يتحرك ولا يدري لماذا ولا إلى أين.. هل نحن من يتحرك أم أنَّ هناك يداً خفية تحرك الجميع وهم سكارى لا يشعرون بشيء؟ وأين المفر وأين الطريق الصحيح وسط هذا الضباب الذي بات يلُف كل شيء فإذا أَخرجَ الحق يده لم يكَد يراها؟ متى سينقشع هذا الضباب وتُرى عن أي وجهٍ سيسفر؟ لربما حين تسطع الشمس وتزول خيوط الضباب المقيت نجد أنفسنا في الخندق الظالم ونرى حقيقة أنفسنا الرديئة ونكتشف أنَّ كل ما فعلناه كان محض عبث! ألا ليت الضباب لا يزول أبداً إذا كانت تلك هي الحقيقة! فكثيراً ما يكون الظلامُ الأعمى أرحم من الضياء الفاضح لزيف أوهامنا.

وسط هذا الصخب بدا له وجه (منيرة) فنَمت بسمةٌ يتيمة على شفاهه.. "لماذا رفضتِ أن تكوني لي يا منيرة؟ لو قبلتِ الزواج مني لرأيتُ بعينيكِ التي تُبصر كل شيء ولأدركتُ حقيقة الحياة ولجعلتكِ رسولاً أهتدي به وسط غابات الظلام الذي يعميني.. قد وفيتُ لكِ بكل وصاياكِ فبقيتُ مع نورالدين حتى ساعته الأخيرة فمن سيكون معي يا أخت الصديق حين تحين ساعتي؟! لازلتُ أحبكِ وزهدتُ في كل النساء دونكِ فلم تمس فراشي امرأة قط! متى يجتمع الغرباء وأبناء الوحدة المتفردين؟ أم أنَّ قدرنا أن نرحل واحداً بعد واحد دون رفيقٍ مؤنس ولا حبيبٍ شفوق! هاهو حالي قد تبدل إلى ثراءٍ بعد الفقر ومكانةٍ بعد الضياع ولازلتُ وحيداً لا أملك .إلا ذكرياتي وأحلاماً لن يحققها سواكِ!"

***

انتشرت الإشاعة كالنار في الهشيم حتى أصبح الجميع يتساءل هل ستجعل الدولة فترة تجنيدِ الأمن المركزي خمسَ سنوات بدلاً من ثلاث فعلاً أم أنها مجرد أقاويل؟! تَحوُّلُ النظام الجديد إلى الاهتمام بجهاز الشرطة أعطى تلك الإشاعة مصداقيةً كبيرة. فقد عمد النظام إلى رفع تسليح جهاز الشرطة وزيادة معسكراته لمواجهة الجماعاتِ الإسلامية التي تُزعجه في صعيد مصر وأطرافها، ولإرهاب كل معارض، وليصبحَ قبضةً من حديد على عنقِ الجميع. أصبح الجميع تحت رقابة الدولة ورحمتها وصارت يدُ وزارة الداخلية هي اليد العليا. فانزعجَ رجال الجيش لسحب البساط من تحت أقدامهم لكنهم لم يعلنوا عن غضبهم لأنهم لازالوا يحصلون على كل المزايا، وحدهم الجنود الذين سيدفعون من عمرهم سنينَ إضافية في التجنيد أعلنوا عن غضبهم

لمضاعفة سنوات التجنيد، فانفجرت براكينٌ كادت أن تحرق كل شيء فليس أحدٌ أعلى صوتاً ممن صمت طويلاً.

خرج الجنود كالمجانين إلى الشوارع يحطمون كل شيء كسيلٍ جارف لا يألو على شيء ولا يخشى عاقبة. ولأنه لا يفلُّ الجنود إلا الجنود أمرَ النظام الجيشَ بالتدخل فأُوكلت المهمة إلى "العميد" حسام الذي كان مشتهراً بأنه واحدٌ من صقور العسكريين القدامى لا يتردد ولا يرحم أبداً إذا تم التجاوز في حق الحياة العسكرية، والذي وجد فيها فرصة وهو الذي يحمل ميراثاً قديماً يمتد لثلاثينَ سنة من الحياة العسكرية الحاسمة بأن يُثبِت للشرطة أنه لا يدَ تعلو فوق يد الجيش. فوضع خطة حاسمة لحملةٍ تأديبٍ وعقاب، عقاب للجنود الذين أرادوا زعزعة الدولة والتطاول على الإرادة، وتأديب للنظام نفسه الذي أراد أن يساوي بين الجيش والشرطة بتسليحها بما يجعلها موازية للجيش. أطلقَ جنود النخبة في الجيش لحصار مراكز وثكنات الأمن المركزي الممتدة في طول البلاد وعرضها، وأعطى الأمر لجنود الصاعقة بالتعامل مع كل جندي أمن مركزي يقف مقاوماً حتى لو كان اعتقاله ممكناً.. كانت مواجَهة لا نصر فيها إلا للإرادة الغاضبة.. لم يستطع النظام أن يعترض ولم يملك إلا الإذعان أمام صولة الجيش الحاسمة مستقبِلاً الرسالةَ شديدة اللهجة بالشكرِ والامتنان وقد أدركَ أنه لا استقرار للدولة ولا بقاء للعرش إلا برضا البندقية التي تحمي العرش وتجلس عليه جهراً أو من وراء حجاب.

***

بعدما انتهى الحفل الذي أقامه حسام بمناسبة ترقيته إلى لواء، جلست خديجة بجواره:

- لم أرَكَ سعيداً في حياتي مثل اليوم، ولم تفرح بترقيةٍ أبداً مثل هذه، فما السر يا حسام؟

- لأنَّ هذه ترقيةٌ منحتُها أنا للجيش ولم يمنَحْها لي، وهذا هو الفرق.

لا أفهم قصدك؟

لقد أعدتُ للجيش هيبةَ الإرادة، وهذا أهم حتى من الانتصار على عدو مثل إسرائيل.. فالجيش إذا فقد مكانته بوصفه المهيمن على كل شيء لن يعود جيشاً. الجيش يعني القوة، والقوة هي التي تحرك كل شيء، فإذا سكَنَتْ ماتت وماتَ كل شيء.

لكن الضحايا كانوا بالمئات يا حسام! ألم يكن ممكناً أن تعلنوا أنَّ الأمر مجرد إشاعة وتحاولوا تهدئة جنود الأمن المركزي المساكين بدلاً من قتلهم في الطرقات كالكلاب الضالة؟

- الغاية لم تكن تأديبَ الجنود، بل تأديب النظام الذي أعطاهم الحظوة وأصبح كل اعتماده عليهم. أنتِ ككل الناس لا تفهمين حقيقةَ اللعبة يا خديجة..

- وماهي حقيقتها؟

- الدولة مثل "السيرك" الذى تسكنه الأسود والحاكم هو مروّض تلك الأسُود، يمسكُ سوطاً يضرب به الأرض تحت أقدام الأسود فتقف وتجلس وترقص حتى إذا شاء.. والسرُّ ليس في قوة السوط بل السر أنَّ كل من بالسيرك يدركون حقيقة الأسود إلا الأسود أنفسهم فهُم سكارى غافلون عن قوة الزئير وقدرة الفتك، وجهلهم هو سرُّ الطاعة، فيبقى السيرك قائماً والجمهور يضحك.. لكن السوط أحياناً قد يخون يد المروض فيضرب بقسوة، والقسوة تفتح العيون، وقد يتألم أسدٌ بشدة فيفيق من سُكرِه وحينها يفتحُ عيونه على حقيقة الفتك الكامنةِ بروحه، وينتفضُ لقطع رأس المروض الذي في حقيقته ليس سوى مُهرجٍ ضعيف لا حول له ولا قوة إلا بالحارس الصامت خارجَ القفص والذي يضع السلاح بجنبه ويدُه دوماً فوق الزناد، حينها يتدخل الحارس بهدوء ليُردي الأسدَ بطلقةٍ واحدة، ليس لأجل حماية حياة المهرج الذي يمسك بالسوط ولكن حتى لا تنتقل العدوى إلى باقي قطيع الأسود فيفيق، فلو أدركَت جميعُ الأسود حقيقتها فإنها ستهدم السيرك على رأس الجميع.

وهل قتلتم جنود الأمن المركزي حتى لا تفيق وتدرك أنها أسود؟

- الأمن المركزي أسود؟! من قال هذا؟ الأمن ليس سوى السوط الذي يمسكه المروض المهرج وقد طال السوط في يده فلسع رجليه، فقمنا بتقصيره له حتى لا يؤذي نفسه. الأسود هم الناس يا خديجة.

***

لم تعد حياة آل الأعرج كما كانت منذ موت الحاج بشير الذي كان يوفر لأسرته الحياةَ الكريمة ويمنحُ الجميع بسخاءٍ لا يعرف قبضَ اليد بل يجود بماله على كل محتاجٍ ومعوز. لمّا آلت الوكالة إلى حفيده، وجعلَ الكتب مصدر رزقه في زمن كف الناس فيه عن القراءة وانتشرت الجهالة في كل مكان وانتهى عصرٌ كانت تلد فيه مصر كل يومٍ أديباً وعالماً فما عادت مساجلات النبهاء تحتل مساحات الجرائد والمجلات واحتلت مكانتها ومكانها صور الفنانات وسيرتهن وصراعاتهن، فتلك "معبودة الجماهير" وهذه "نجمتهم" وما عادت قضايا الثقافة والسياسة تشغل بال الناس، وما عاد لكتبُ الدين من روّاد فما عاد طلاب العلم الشرعي يبحثون عنه بِهمَّة في بطون الدواوين فيأخذون منها عن العلماء في شتى علوم الشريعة، بل أصبحوا يكتفون بالسماع من الشيوخ بدون تصفية ولا غربلة، فقد أصبح للدين نجومٌ و ظهر له أبطالٌ من مشايخ السلفية الجدد.. ومرة أخرى تفسح لهم الدولة مكاناً، وهذه المرة ليس لمهاجمة الشيوعيين والناصريين بل لمواجهة الإسلاميين أنفسهم. أرادت الدولة أن تضرب إسلامَ الجهاد بإسلامِ الزهد في الحياة، فالسلفيون الجدد لا يحثُّون أتباعهم على تغيير الواقع ومجابهة الظلم وإنما غاية دعوتهم إزالة القبور من المساجد وإطالة اللحى وارتداء الجلابيب البيضاء، فناسبَت دعوَتُهم مزاجَ الدولة

في ممارسة تخدير الأمَّة: يضعون حبَّة الإيمان في كأس الحياةِ ليذهبَ الناس في نومٍ عميق يحلمون فيه بالجنة السعيدة ويغفلون عن واقعهم التعيس. وثقَ بهم كثير من الشباب المتدين الذي يجمع بين الجهل والطاعة فاجتذبوهم وصنعوا جيوشاً جديدة من الدراويش الذين لا ينفعون أحداً ولا يضرُّون، إنما يجتمعون كما تجتمع الأصفار بجوار بعضها ومهما أضفتَ إليهم صفراً جديداً يبقى الناتج لا شيء!

تسلل الفقر للأسرة الكريمة بعد كساد تجارة صالح التي لم تكن تدُّر الكثير حين رواجها، فناشدت فردوس حفيدها بأن يعود لتجارة جده..

- يابني طول عمرنا تجار قماش وعشنا من خيره سنين.. سيبك من الكتب ورجّع الوكالة ومتحرّمش اللي ربنا حلله.. دة فقر الكريم بعد العز فتنة!

- الفتنة يا جدتي أن لا نصبر على قضاء الله. إنَّ الله يختبر المؤمنين بالصبر فإن صبروا فتح لهم أبواب السماء.

***

كانت عودة حسام إلى البيت هي لحظته الأكثر سعادة، ليس لافتقاد الراحة ولا شوقاً إلى زوجتة التي ماتت المشاعرُ بينهما منذ سنواتٍ بعيدة، ولكن لأنَّ سعادته تكمُن في الجلوس مع ابنه كمال، ذلك الولد الذي تأخر قدومه سبعة عشَر عاماً حتى كاد أن يفقد الأمل في أن يحمل ولدٌ من صلبه اسمه من بعده، فكان حسام يبالغ في تدليله وتلبية طلباته ولا يرفض له أمراً إلا اختلاطه بباسل ابن صالح،

ليس خوفاً من أخلاق حفيد نورالدين فهو يعلم جيداً أنَّ تربيته فوق مستوى المخاوف، لكنه في حقيقة الأمر أراد عقابَ الأسرة التي أبعدَته عنهم، أراد أن يمنحهم حرماناً بحرمان بأن يحرِّم عليهم ولده كما حرَّموا عليه الانتماء إليهم، غير أنَّ خديجة وقفت سداً أمام رغبته الدفينة في تحقيق انتقامه الدفين واصطحبت ولدها في كل الزيارات الأسبوعية التي لا تخالفها كل جمعة.

لم تتغيب خديجة أبداً عن أسرة زوجها، لراحتها في مجالسة فردوس ومنيرة، ولشعورها القديم بالأمومة تجاه صالح الذي تربى على يديها وانتقل حبها له إلى ولده، أو هكذا كانت ترى الأسرة جميعها غافلين عن السر العظيم الذي انغلقَ عليه قلبُ خديجة منذ أكثر من ثلاثين سنة، لما كان نورالدين يزور أخاها أنس ويذاكر لها (فلسفة الجمال)، والجمال الوحيد الذي عرفَته في حياتها كانَ الجلوس قربه.

غزا نورالدين قلبها دون أن يعلم، لتنتهي زوجةً لأخيه المقيت، راضيةً بتلك الصفقة الخاسرة، مقنعةً نفسها بأنَّ وجودها بأسرة نورالدين فيه العزاء لتراه على الدوام، لكن حتى تلك الأمنية أجهضتها يد القدر والسياسة ليموت نورالدين بعد سنوات لم تطل، تاركاً حبه في قلبها شجرةً من نارٍ لا تطفئها أمطار السنوات، تَحرق ولا تُدفئ.

حملت ذكرياتها القليلة بقلبها في رحلة عمر غادرَته السعادة بعدما رحل الحبيب وأُجبرت أسرتها على مغادرة بيتهم العامر ليموت أبوها وأمها بعيداً عنها، ولم يبقَ لها إلا زوج لم تَرَ فيه يوماً حبيباً عاشقاً ولا زوجاً مخلصاً، ولا يحمل سمةً واحدةً للرجولة، ولولا قدوم كمال للحياة لتخلصت من حياتها منذ زمن، لكن جاء ولدها حاملاً لها

معانٍ جديدة للحياة وأسباباً للبقاء وسط واقعها الرديء الذي بشرتّها منيرة بأنه سيصبح سعيداً، وكثيراً ما ناوشت منيرة أنَّ بشارتها بأنَّ نورالدين سيخطب ابنتها قد خابت لأنها لم تضَعْ فتاة بل ولداً!

***

بعد سنوات من الهدوء استراحت فيها البنادق فلم يَنطق لسانُ الرصاص حتى كادَ أن يصيبه الخرس جاءت التسعينات بحِملٍ ثقيل ليكسِرَ صمتاً طال زمانه. أصابت حُمَّى القتل الجميع، وتزاحم الوطن على نافذة الموت من جديد، فقد تنوعت المهالك: الإسلاميون الذين كانوا يبحثون عن الموت وذهبوا يجاهدون السوفييت في أفغانستان التي تحررت من وطأة الروس بعد عشر سنوات من الجهاد عادوا إلى مصر فوجَّهوا البنادق التي كانت مصوبةً لصدر الروس إلى صدور إخوانهم في الوطن.. واشتعلت حربٌ جديدة في أرض مسلمي البوسنة حيث أحرَقت مذابح الصرب قلوب المسلمين في كل مكان من العالم، وصور المذابح وتحبيل نساء المسلمين التي كانت غاية في الإذلال جعلَت الآلاف من شباب مصر ينتفضون راحلين نحو أرضٍ لا يعرفونها ليدافعوا عن شرفِ أمَّة لازالوا يرون أنها أمَّة واحدة.. وفي صعيد مصر أدارت وزارة الداخلية رحى الحرب لسحق الإسلاميين المتمردين..

جنون الحرب أصاب الجميع، ورحى الموت تحملُ غوايةً لا يَرُدُّ طلَبها أحد، الدماءُ أصبحت تغطي كل المساحات وانسحب اللون الأبيض أمام الأحمر القاني، ووسط الموت الصائل فوق الرقاب لازال صالح يقف حائراً لا يدري إلى أي فريق ينتسب، تؤرقه جراحات الأمَّة النازفة في كل مكان وتؤلمه صور الضلالات التي أصبحت تتلبس الجميع

لكنه يعجز عن التفريق بين الحق والباطل، وإذا عرَفَ الحق فلا يعرف كيف ينصُره وبأي سلاح: سلاحُ الكلمةِ الطيبة والدعوةِ إلى سواء الصراط أم سلاحُ الموت والدعوةِ إلى سواء الرصاص؟.. نفسُه مضطربة يشعر بالعجز والتقصير على الدوام: أيرتحل نحو (البوسنة) يجاهد مع من جاهدوا؟ لكن لمن سيدع أسرته وابنه باسل لم يجاوز السادسةَ عشَر من عمره ومريم طفلة في الثانيةِ عشَر ومن سينفق على زوجته وعمته وأمه؟.. تَرِكَتُهُ ثقيلة والفقر يقتلُ حق الاختيار، فاختار أضعف الإيمان وراح يجمع التبرعات لإرسالها إلى المسلمين المستضعفين في (سراييفو).

ملأَت الراحة قلبه وشعر بالرضا، فقد تعاطف الناس مع صور القتلى والمشردين، واهتزت نفسُه وهو في المسجد يدعو الناس للتبرع عندما قام شيخٌ هرم ملابسه تدل على حال الفقر ورغم عمره الطاعن ووهنِه المستحكم وفقرِه البادي صاح في الناس: "المسلمين بيتهانوا وانهاردة مش مفروض تتبرع بزيادة مالك وإلا تكون معدوم النخوة، أنا بقول لكم اتبرعوا بقوتكم وقوت عيالكم، والله جوعنا أرحم من جوعهم وسترهم أولى من سترنا". بكى الناس لكلمة الشيخ فقد كانوا لا يزالون قادرين على البكاء رحمةً وشفقة، ولازالت ضمائرهم تتنفس ولو بضعف شديد! فانهالت التبرعات حتى استطاعَ صالح أن يجمع في أسبوع واحد أكثر من مئتَيْ ألف جنيه حملها إلى نقابة الأطباء لإيصال الطعام والدواء إلى المشردين في الأرض البعيدة والذين غفلت عنهم أوروبا التي تحمل مبادئَ الإنسان وحرية العقيدة ولكنها أغمضَت عيونها عن الفظائع التي يرتكبها (الصرب) فمادامَ الضحيةُ مسلماً يمكنُ دوماً تفهُّم موقف القتلة!

لم تكن عودة المجاهدين من أفغانستان سهلة، فقد عاد هؤلاء بأفكارهم المتشددة وهم مدربون على القتال فكانوا ناراً تحت الرماد وقنبلةً تنتظر ساعة التفجير، وقد استباحوا دم الجنود بغير وازعٍ يردُّهم ولا ضمير يوقفهم، فخشيَت الدولة أن تتكرر المأساة بعائدين جدد من (سراييفو) فحزمت أمرها بمعاقبة كل من يمد يده إلى مسلمي (البوسنة) ولو بجمع المال، فشنَّت حملة اعتقال واسعة على جامعي التبرعات، وكان من بينهم صالح الذي نجا من محنة السادات لكنه لم يَنْجُ من جريمة التعاطف وإثم القلب الحي في وطنٍ لم يعد يؤمن إلا بالضمائر الشائهة والقلوب التي ضربها الموات وغطاها السواد.

لم تحتمل فردوس اعتقالَ صالح كما أُعتقِلَ أبوه من قبل، فهي تدرك أنه طريقٌ لا يعود منه الذاهبون فيه، كانت صدمتها كبيرة ولم يحتمل القلبُ العجوز ضربة الفجيعة من جديد، فجاءها الموت لينهي ألمها الطويل أو ربما هي من جاءت به فالموت قرين اليأس، إذا سكنَ اليأسُ في القلوب استحكمَ القنوطُ في الروح فترحل بغير جلبة.

لم يعلم صالح بموت جدته وهو رهين الاعتقال ولم تعلم أسرته مكانه في زمنٍ ضربه العماء فكل معرفة جريمة تستحق العقاب!.. ومنيرة يتساقط أحباؤها واحداً بعد آخر وكأنَّ موت نورالدين كان قطْعاً للعِقد الذي صار ينفرط حبة بعد حبة، تدرك حقيقة المأساة بعيونٍ فتحتها إرادة السماء لترى كل ما كان وكل ما سيكون وهي عاجزةٌ عن رد المصائر التعِسة وإيقاف سوط القدر الأليم.

***

ذهب باسل إلى مدرسة (السعيدية) في أول يوم في (الثانوية العامة) كسيرَ القلب لغياب أبيه، وكان استقبالُه في اليوم الأول غير حميد، فقد كشَّرت له المدرسة عن أنيابها من الساعة الأولى لعدم ارتدائه الزي المدرسي، فتلقى على يده عشرينَ ضربة بخيزرانة مدرس الألعاب ثم تمَّ تحويله إلى مدير المدرسة المعروف بصرامته مع الطلاب والذي سأله بنظرةٍ غاضبة:

لماذا لم تَرْتَدِ زيَّ المدرسة؟ ألا تعرف نظام المدرسة وأنت في السنة الثالثة من الثانوية فتخالِف من يومك الأول؟ ألا تعلم أني أستطيع فصلك من المدرسة فلا ترى الجامعة بعينك أبداً؟!

أنا لم أخالِف أوامر المدرسة ونظامها ولكن أسرتي تمر بضائقة فلم أستطع شراء الزي المدرسي، وجئت إلى مدرستي حتى لا تفوتني الدروس، وكنت أتوقع أن تتفهم المدرسة ظروف طلابها لا أن تعاقبهم عليها.

تأمل المدير ملامحَ باسل الثابتة وكلماته الواثقة وسأله عن اسمه:

باسل صالح.

قل اسمك كاملاً يا ولد..

- باسل صالح نورالدين الأعرج.

نزل عليه الاسمُ كصاعقة ضربَت جسده فارتعدَ أمام الاسمِ المهيب، فوجه نورالدين لازال يطارد (حسين) منذ ثلاثينَ سنة عجزت عن محو شعوره بالخزي والعار، فقد كان اليدَ الأُولى التي دفعَت (نورالدين) نحو الموت يوم وشى به وزعم أنه سبَّ عبد الناصر. حاول جمع شتات نفسه ولكن بدت الرعشة في صوته وهو يسأل:

- هل تعرف ماذا كان يعمل جدك نورالدين؟

- أعرف أنه كان مدرساً لكني لا أعرف تخصصه.

- أين تسكنون يا باسل؟

- في بولاق أبو العلا.

سطعت الحقيقةُ بازغةً: الاسمُ القديم والنظرةُ في عين ذلك الصغير والثباتُ العجيب والوجهُ الهادئ والقادرُ دوماً على المواجهة والذي يحمل ملامح الجَدّ. إنه حفيد نورالدين الذي ضربه بالحذاء فوق رأسه منذ ثلاثين سنة أمام الجميع وهاهو يرسل حفيده ليذكِّره بأنَّ الجريمة لم تُنسَ حتى لو أنَّ العقاب لم يقَعْ.

لم يعرف ماذا يفعل وكل مخاوفه تقف ماثلةً أمامه، أخرج ورقةً ليفصله أسبوعاً لكنه عجز عن الإمساك بالقلم والماضي يقف هازئاً من ضعفه الذي يُخفيه بصرامةٍ كاذبة، فقام واقفاً ووضع يده على كتف باسل واعتذر له بصوتٍ مبحوح ثم قال له:

اِذهب إلى فصلك وإذا ضايقكَ أي أحدٍ كان طالباً أو مدرساً، فلتأتِ إلى مكتبي فوراً ولا تخشَ أحداً فجدك كان صديقي المقرب!

- أنا لا أخشى شيئاً يا سيادة الناظر، وإن شاء الله لن أفعل شيئاً يستدعي قدومي إلى مكتبك مرة أخرى.. وسأشتري الزي المدرسي في أقرب فرصة.

أوجعته الكلمات العزيزة وعرَّت ذُلَّه الكامن وفضَحت هوَانه ورِخص معدنه أمام نفسه، فتمتم بعدما خرج باسل: "نورالدين ينبعث من قبره ليضربني بالحذاء مرة أخرى ولكن هذه المرة بيدِ حفيدٍ ورث عنه كل شيء لا بيده"

***

هل ستتخلى عن صالح كما تخليتَ عن أبيه من قبل؟ أمك ماتت بحسرتها على حفيدها كما مات أبوك بحسرته على نورالدين.. أمامك فرصة يا حسام لتكفِّر عن ذنوبك القديمة بإخراج صالح من المعتقل، وأنت الآن في آخر سنة لك بالخدمة العسكرية فاستخدم بدلتك التي تركتَ لأجلها أخاك وأخرج بها ولده من محنته.

اِلزمي حدَّك يا خديجة! من قاد نورالدين إلى الموت سوى جنونه وتهوره؟! وابنه مثله ورث غباء أبيه فأهلكَ نفسه، أنا لن أُحامي عن الإرهابيين حتى لو كانوا من أهلي!

- صالح ليس إرهابياً وأنت تعلم هذا يا حسام، ولكنه الحقدُ الذي في قلبك يجعلكَ تريد أن تنتقم من أخيك حتى وهو في قبره. نورالدين لم يحرمك من أبيك إنما فعالك هي من فعلت هذا بك.

أشعلَت كلماتها نار الغضب في نفسه:

اِخرسي يا خديجة! من قال له أن يجمع التبرعات لقوم لا يعرِفهم ولا يعرفونه؟! إنه كسولٌ أحمق ترك زوجته وأبناءه يمضغهم الفقر وراح يجمع الأموال من أجل الغرباء بدلاً من أن يجمعها لأسرته، هل يظن نفسه مصلحاً للعالم؟! لم يرث عن أبيه إلا التكبُّر وإدعاء المثالية وهو كاذبٌ مزيف مثله!

لم أرَ في حياتي رجلاً مزيفاً أكثرَ منك، أنت الذي تبيع شرفك لأجل أقل مصلحة! نورالدين كان بطلاً. وابنه يدفع ثمن الإنسانية التي حُرمت أنتَ منها.

- أقسم بالله سأطلقك ونحن في هذا العمر لو نطقتِ بكلمة أخرى، وسأوصي بنفسي رجال الشرطة أن يؤدبوا ذلك الذي تدافعين عنه!

- وهل تظن أني أتمسك بك؟ والله لولا كمال ابني لتركتُ لك العالم منذ سنوات!

كانت تتعمد إيلامه، وتعلم يقيناً أنه أضعف من أن ينفِّذ وعيده، فأرادت أن تعري قبحه بقسوة وتضعَ وجهه الزائف في المرآة ليرى خزيه بغير أقنعةٍ تحميه من رؤيةِ حقيقةٍ يدركها في عمق نفسه، فما كان منه إلا أن ارتدى ملابسه وغادر المنزل وهو يتمتم بشتمٍ وسبابٍ غيرِ مسموع.

***

السجنُ لا يحبِسُ الجسد فقط، إنما يخنق الروح التي تسكنه فيتضاعفُ عليها القيد فترزح تحت أسرِ الجسد وأسرِ الجدرانِ والسلاسل. عندما تُحبس الطيورُ الحرة تموتُ أسراً وعندما تُحبس قطة تستحيل وحشاً وعندما يُحبس بريءٌ يغدو مجرماً. لم تستطع كل الحُجج أن تجُّر صالح نحو التطرف لكن استطاعت سنوات من الاعتقال أن تصنع منه متطرفاً شرساً.

أصبح يرى وطنه موطنَ كفر وأهلَه أعداءً لله، يُبيح كفرهم سفكَ دمهم وتبرِّرُ قسوتُهم قسوتَه عليهم، وكان اختلاطه بكثير من الإسلاميين المتشددين سبباً في أن يزرع فيه جنوحه الناشئ نحو التطرف البغيض، والذي تشبَّع به حتى أصبح لا يلتفت لتلك المناظرات السفيهة بين المعتقلين من حوله والذين ينتمون (للتنظيم الجهاد) مع نظرائهم من الذين ينتمون (للجماعة الإسلامية)، إذ قرَّرَت الفرقة الأولى أنَّ أميرهم هو (عبود الزمر)، فرفض ذلك أنصار الجماعة الإسلامية مدللين أنه لا ولايةَ لأسير وأنَّ الأَوْلى بالإمارة هو الشيخ (عمر عبد الرحمن)، فيرد عليهم أتباع تنظيم الجهاد بأنَّ ولايتَه باطلة لأنه لا ولايةَ لضرير..

رفض صالح الانتماء لأي من الفريقين جاعلاً همه في إزالة النظام الحاكم وبعدها لتكن الإمارة حتى للشيطان نفسه! لم يعد له همٌّ إلا محاربة النظام الذي حبسه وعذّبه بجناية التعاطف مع المسلمين المستضعفين في البوسنة، فوجَّه غضبه المحموم نحو الوطن ومن فيه غير مفرِّقٍ ين مجرمٍ وبريء.

خرج من المعتقل وقد صار رجلاً غير الذي دخله، فلم يتردد في ضرب زوجته سميّة التي غادرت البيت لتفتح أبواب المكتبة لعلها تدرُّ عليهم شيئاً يعيشون منه بعدما انعدَمت منابع النفقة إلا بما كانت تجودُ به عليهم خديجة كل شهر لتساعد أسرةَ زوجها التي تخلى عنها كما تخلى عنها القريب والبعيد. وتضاعف غضب صالح عندما علِم أنَّ أحمد هو من اشترى ملابس المدرسة لمريم ودفع مصاريف الجامعة لباسل بوصفه صديق جدهم نورالدين، فطاش فيهم طيش النيران وقام إلى الملابس فمزقها وهو يقول: "لن نقبل هبة من رجل ينتمي لجماعة الإخوان أصحاب الضلال الذين كل همّهم أن ينتموا لمجلس الكفر الذي يشرّع من دون الله".. ومنيرة تشاهد ابن أخيها يصبُّ الحزن في قلوب كل من حوله، وتَراه يسيرُ بخطواتٍ حثيثة نحو مصيره الموعود الذي أبصرَته قبل مولده فلا تأمره ولا تنهاه، ولم تتدخل إلا يومَ عاد من المكتبة حاملاً نقاباً وجلباباً لمريم وأمَرها بارتدائه، فقال له باسل:

يا والدي مريم لسة صغيرة على دة.

فلطمه صالح:

- ماإنت تربية نسوان، جدتك منيرة وأمك وخديجة خلوك ديوث.

نهضت إليه منيرة بخُطًى ثابتة، ثم صفعته على وجهه وهي تنظر في عينيه:

- ربيته زي ما ربيتك يا ابن نورالدين.

رغم تغيره وقسوته البادية لم يكن صالح يجرؤ على الرد على عمته منيرة التي ربَّته صغيراً ولم يرَ له أمًّا سواها، فما كان منه إلا أن كمشَ يده على لحيته ودخل إلى غرفته دون كلمة، وسميّة تحتضن ابنتها مريم تبكيان معاً وباسل ذاهلٌ أمام رؤيةِ جدته وهي تصفع والده على وجهه، غير راضٍ ولا غاضبٍ لتلك الإهانة.

***

أمسك صالح بالجريدة الرسمية التي جاءه بها (عبد الرحمن) أحد الشباب الذين جنَّدهم وأقنَعهم بفكرِ الجهاد وقتالِ الدولةِ الكافرة مع كثيرين غيره، وقرأ العنوان الكبير: (التصالح بين الدولة والإسلاميين بعد "مراجعة" أفكارهم)، فقد أعلن قادة الإسلاميين من داخل السجون "مراجعة" أفكارهم ونبذ القتال لتُسقِطَ عنهم الدولة صفة الإرهاب في صفقةٍ لم يعرف أحدٌ أبداً ماذا كان ثمنها، فأصبح عام "1997" بعد مذبحة الأقصر هو آخرُ سنوات الدم والمواجهات بين الجهاديين والنظام.

طوى صالح الجريدة وألقى بها في سلة النفايات قائلاً: "الجهاد أمرُ الله وليس قراراً يتخذه هؤلاء الخونة الذين باعوا دينهم بدنياهم ويريدون إيقافَ الجهاد ضد الظالمين، وإذا كانوا خانوا عهد الله فنحن لم نزَل عليه أوفياء".

وضع صالح خطته للرد ليُثبت لنفسه ولأتباعه قبل أن يُثبت للنظام ولأصحاب تلك المراجعات أنَّ الجهاد ماضٍ ولن يوقفه أحد، فأمرَ (إبراهيم) أحد أتباعه والذي كان طالباً بالسنة النهائية بكلية العلوم أن يُعِّد قنبلة حتى لو كانت بدائية، فغايته لم تكن إحداث تدميرٍ كبير بل إيصالَ رسالةٍ للنظام أنَّ هناك من لم يزَل يغرِّد خارج السرب. نفّذَ إبراهيم ما أمره به صالح، وكان الهدف سهلاً: إلقاءُ القنبلة على إحدى الحافلات التي تُقِّل السائحين إلى (مسجد الحسين). أراد صالح أن يقوم بالأمر بنفسه لكن عبد الرحمن أصرَّ أن يفعلها هو فهو الأصغر سناً والأقدر على الهرب، وأمام إلحاحه قبِل صالح إسناد المهمة إليه.

كانت العملية صفعة على وجه الدولة وتحدياً أمام وزير الداخلية الجديد (حبيب العادلي) رئيس أمنِ الدولة السابق والمعروف بقبضته الحديدية الذي أطلقَ كل طاقاتِ وزارته وقدراتها للوصول إلى الجناة في أسرع وقت. راحت أجهزة الشرطة تبحث في كلِّ مَن حولَ عبد الرحمن الذي قُتل قبل أن يتمكن من الهرب، حتى توصلت إلى صديقه إبراهيم، فتمَّ القبض عليه وفي غرفته الأدوات التي استعملها في صنع القنبلة، وتحت آلة التعذيب الرهيبة لم يكن حتى للصخر أن يصمد ولا للجبل ألاّ يصرخ، فباح بكل ما عنده وعرفَ رجال أمن الدولة من هو مدبِّر العملية.

سارَ القدرُ حاملاً رايةَ الموت إلى الأسرةِ الموعودةِ بالدماء والمنذورةِ للآلام، والليلُ غطاءٌ لستر كل الجرائم، وقد صارت الشرطة هي القضاء ورصاصها هو الحاكم الوحيد، وكانت فلسفة الوزير الجديد تصفيةُ الإسلاميين في أماكنهم لا تقديمَهم للمحاكمات، فكانت الفرقةُ مُعدَّةً للإعدام، لا للضبطِ والإحضار.

طرقَت اليدُ الثقيلةُ الباب ففزعت سميّة التي كانت نائمة بجوار زوجها وهرولت خلفه عارية الرأس فنهرها أن تحتجب وألا تصرخ لكي لا تفزع العمة والأبناء، لكن منيرة مبصرة لا تنام فاقتربت منه محذرة:

لا تفتح لهم يا صالح.

- لا تخشَيْ شيئاً يا عمتي، سأرى ما الأمر..

فتح الباب فأرقدته ركلة الجندي أرضاً، وتقدم الضابط نحوه فوضع قدَمه فوق صدره مُثبِّتاً صالح ومُثبِتاً ولاءه للنظام الجديد وأنه ما عاد للقضاء وجود، فالقضاة هم الجنود.

نظر صالح في عين الجاثم فوقه وفوهة البندقية مسددة نحوه، لا يبدو عليه الجزع ولا يقترب منه الخوف، بل يتنفس في هدوء وصورة أبيه نورالدين ماثلةٌ أمامه حين جاء جنودٌ يشبهونهم منذ ثلاثينَ سنة واقتادوه ليحرمونه الوالد إلى الأبد، لينشأ بين اليتم والخوف لا يعرف له سبيلاً يهديه ولا طريقاً يؤويه ولا يداً ترحم ضعفه حتى قادته الحيرة نحو الهلاك فصار الطفلُ البريء قاتلاً وأصبح الرجلُ المؤمن قاسياً قد هتكَت يد النظام الغليظة رداء رحمته الوادعة، فاستحال الظبيُ إلى ذئب.

سأله الضابط سؤالاً واحداً وقدمه القاسية لا تزال مثبَّتةً فوق صدره:

إنت صالح نورالدين؟

فأجاب بلا خوف وهو ينظر في عينيه متحدياً:

- أيوة. أنا صالح نورالدين بشير الأعرج.

فأطلق كل ما في جعبة البندقية من رصاص ليموت صالح كما مات أبوه، وتسقط منيرة سقطتها الكبرى فما عاد القلب الجسور يحتمل..

صبرَت على موت نورالدين لتسقي شجرته التي تعلم أنَّ أغصانها ستتهاوى غصناً بعد آخر فتبصر الموت على كل الوجوه: مات الأخ الحبيب ومات الوالد الرحيم وماتت الأم الطيبة وهاهو ولدها الذي لم تلده يسقط في منزل الأحزان. حتى الجبال لا تحتمل كل هذا البلاء، فإلى متى ستنتظر زمن الفرح الموعود فتُزهِرَ الثمار التي لا تطالها الأيدي الآثمة والقلوب التي ملأها الحقد والفساد.. بعد الموت ستولد الحياة وبعد الظلام سيشرق الضياء هكذا يقول العهد القديم! لكن متى والقلبُ أدمَته المواجع والأملُ تغتاله يدُ القسوة كلما رفعَ رأسَه ليتنفسَ الحياة؟ تَرى حلمها القديم حين جاءها الشيخ المهيب ليخبرها أنها دليل الحق تعرف الهالك حتى لو كان وسط الطيبين وتعرف من ينجو حتى لو كان وسط الهالكين.. أكانت رؤياها محنة أم منحة؟ أي بلاء وأي ألم أن تبصر المصير؟ الجهالة نعيم.. إنه لعذابٌ أليم حتى على تلك الصابرة العجيبة.. فسقطت لا تنهض ولا تتحرك ولا تتكلم كأنَّ صمتها صرخةٌ في وجهِ الوجود: يكفي ما عدتُ أحتمل.

إهــراقُ الخَمــر

[لا يمكن أن يصنعَ الثوارت إلا العاشقون.
من لم يعرف الحب فأبداً لن يثور]

منذ تلك الليلة التي سقط فيها أبوه مضرجاً بالدماء أمام عينيه ليسكن قبره وسقطت جدته التي ضربتها الفجيعة فسكنت سريرها خمس سنوات لا تتحرك ولا تنطق بكلمة تبدّل عالمه الهادئ، ورغم صخبه الدائم إلا أنه في جوهر نفسه كانت روحه حبيسةً مكظومة، تهدُّها الآلام، لا يدري كيف سيخطو على الطريق المجهول.. لم يحاول باسل العمل في أي مؤسسة حكومية لأنه يدرك أنَّ تاريخ أبيه وميتته ستطارده ولن يسمح رجالُ أمن الدولة لنجل مَن هدَّد الدولة بأن يعمل في إحدى مؤسساتها، لذلك كان قراره بعد تخرّجه أن يعيد فتح المكتبة، ليس لبيع الكتب وإنما قرر أن يعيد إليها سيرتها الأولى كما كان الحال أيام جده الأكبر بشير، لكنه قرر أن يعمل ببيع الملابس المستعملة لا الأقمشة، وبدأ بإعادة اليافطة القديمة ليمنح الماضي حق الحياة مرة أخرى، فارتفع اسم الجد الكبير من جديد: "وكالة بشير الأعرج".

عندما أراد الزواج بالفتاة التي أحبها قررت أمه أن ترتحل إلى بيت أبيها العامر ومعها أخته لتفسح له المجال، فما كانت الشقة لتحتمل الأم وابنتها والجدة المقعدة مع باسل وزوجته. رفض باسل خروجهما وسعى إلى استئجار شقة تجاور بيتهم حتى يطمئنَّ عليهم على الدوام، لكن الأم رفضت وأصرت على قرارها وأخبرته أنها كانت ترغب بالعودة إلى بيت أبيها منذ مات زوجها صالح لكنها صبرت لأجله، وأنَّ

هذا خيرٌ لها ولأخته التي قد تصيبها لعنةُ الدم بالبوار فيحجِم الخطاب عن الزواج بفتاةٍ تسكن بشقة سال فيها الدم فيَروْن فيها قدم شؤم، وأمام إصرار والدته استجاب باسل لما أرادت..

تزوج (إشراق) التي كانت قرة عين له ونورَ حياة، ترعى جدته الصامتة وترعاه، حتى كانت تلك الليلة العجيبة، عندما نهض الموت من سرير الرقاد باعثاً ضوء الحياة، حين قامت منيرة من رقدتها الطويلة تتوكأ على عصاها حتى بلغت سريره وتلت ترنيمتها الأخيرة على رأسه وهو نائم في سريره بغرفةٍ منفصلة بعدما أصبح لا ينام بحجرة نومه، فهو دائم التقلب والحركة وزوجته قد باتت في أيام حملها الأخيرة وخشي أن يضربها ضربة أثناء نومه عن غير قصد فيؤذيها أو يؤذي الوليد المنتظر وهو الذي يفور بالحياة حتى وهو نائم. فتح عينه على مرأى جدته أمامه فأدهشَته المفاجأة وطاش قلبه فرحاً وبشرى، أعادت عليه نبوءتها الرهيبة فحار عقله في فهمها، لكن الصباح كان عهداً جديداً للحياة، فكان نهوض منيرة مصاحباً لقدوم الوليد المنتظر!

وضعَت إشراق مولودها فاجتمعت الأسرة على الفرحة الكبيرة، وفرحتهم الأكبر كانت بقيام منيرة. جاءت أمه وأخته وحضرت خديجة بصحبة ابنها كمال يهنئون بقدوم الوافد الجديد إلى شجرة آل الأعرج، كلٌّ منهم يقترح اسماً لذاك الوليد الجميل، لكن باسل أخبرهم أنَّ الطفل جاء ببركة جدته منيرة ونهوضها وكأنها قامت لأجله أو كأنه غادر رحم الأم لأجلها، ولذلك لن يسميه إلا جدته منيرة.

حمله إليها فتبسمت والتمعت عيونها كأنها ستبكي، لكنها أبداً لم تعرف البكاء، قالت له:

- سمِّه بإسم جده يا باسل.

والله دة اللي كنت ناوي أعمله فعلا، خلاص هيكون اسمه "صالح".

لا يا باسل قصدي تسميه على اسم جده الكبير "نورالدين".

وليه مسميهوش بإسم أبويا يا جدتي؟

- الله يرحم أبوك. جدك الكبير نورالدين كان نور للحق، وابنك هيكون نور للحياة.. أنا عشت طول عمري بستناه!

- خلاص يا جدتي يبقى اسمه نورالدين.

مالت على الصغير وقبَّلت جبينه الغض بشفاهها العجوز، ومسحت على رأسه: "طال العمر في انتظارك يا حبيبي! قطعوا الشجر عشان إنت متجيش أبداً لكن الشجر الأصيل عمره مايموت. كل شجرة تورثها شجرة تكمل طريقها للحياة، والشجر العريان من الغصون على إيدك هيطرح وتضحك الحياة.. اشتقتلك واستنيتك كتير يا ثمرة الحبيب!".

***

استيقظ باسل عند الفجر لاستقبال "بالة" الملابس القادمة من بورسعيد، والتي يقوم بتقسيمها مع العاملين معه بالمحل، يفرزون معه البناطيل والقمصان حسب حالتها، فمنها ما يحتاج للغسل والكي قبل البيع ومنها ما هو جاهزٌ للعرض مباشرة، وكلها ملابس مستعملة قادمة من أوروبا وتركيا، ثم يقومون بفصل الماركات الشهيرة عن العادية، الماركات منها تتراوح بين السبعين والمئة جنيه أما العادية فبين العشرين والخمسين جنيه، فكانت الوكالة قِبلة الأثرياء والفقراء على حد سواء يهربون إليها من ارتفاع الأسعار الجنوني للملابس خارج الوكالة.

وصل باسل في الخامسة صباحاً لينتهي سريعاً من عمله قبل الثامنة، حيث تزدحم الوكالة بالآلاف من القادمين من أقطار القاهرة يقصدونها فلا تكاد تستطيع السير على قدميك لشدة الزحام والذي يبدأ من التاسعة ويبلغ ذروته ظهراً ولا يخفُّ قليلاً إلا مع قدوم المساء. كان يوم باسل يبدأ من التاسعة حتى السابعة مساءً عدا الأيام التي يستلم فيها البضاعة فيبكِّر بالذهاب.

في هذا اليوم وعند الظهيرة اقتربت فتاةٌ شاهقة البياض، "عسلية" العينين، واسعة الفم مكتنزة الشفتين، ينتشر "النمش" على وجهها وذات شعرٍ غجري كستنائي اللون، ترتدي "بنطال جينز" و"تيشرت" يبرز مفاتنها، تُقلِّب في الملابس النسائية المعروضة أمام المحل ولا يقع اختيارها على شيء، حتى تذمر منها العامل بالمحل، فصرفه باسل واقترب منها مبتسماً:

حضرتك عايزة حاجة معينة؟

أجابته بلكنة شامية أنها تريد بناطيل تركية ذات ماركة جيدة، فدعاها إلى داخل المحل وأخرج لها مجموعة من البناطيل لتختار منهم، فانتقت ثلاث قِطع، قدَّم لها باسل سعراً مغرياً فامتنَّت له، مما شجعه على سؤالها:

- حضرتك مصرية؟

- لا أنا سورية لكن عايشة في مصر من سنين طويلة..

أعطاها باسل "كارت" يحمل اسمه وهاتفه، ورجاها الاتصال به في أي وقت تزور فيه الوكالة ليقدم لها بضاعته الخاصة. علَّقت قائلةً عندما أمسكت بالكارت:

"باسل صالح نورالدين الأعرج"! دة اسم سوري أكتر منه مصري..

- مصر وسوريا طول عمرهم شبه بعض في حاجات كتير، بس إنتم الستات عندكم أجمل!

ابتسمت لغزله الصريح، وشكرته على اهتمامه، ثم سألته إن كان يعمل بالمحل أم أنه صاحبه، فأخبرها أنه صاحبه ورثه أباً عن جد، وسألها عن اسمها فقالت:

- (شمس)، مصورة في جريدة العروبة.

- حلو! كدة أنا أنقيلك الماركات المميزة في الهدوم وإنتي تاخديلي صور حلوة..

بعدما تبادلا أرقام الهواتف وعدَته أن تتصل به في أقرب فرصة..

ورث باسل ملامح جده نورالدين كما كانت تقول له منيرة، فكان طويلاً ممشوقاً تميل بشرته إلى السُمرة قليلاً، صاحب عينين واسعتين سوداوين تخترقان من ينظر إليه وحاجباه كثيفان ولهُ لحية خفيفة لا يسمح لها أن تطول أبداً. ملامحه وسيمة ذات طلة تبعث على الاحترام وشيء من الهيبة. غيرَ أنه كان زير نساء لا تخلو حياته من العشيقات أبداً وهذا ما لم يَرِثْهُ عن جده نورالدين.

***

لم يستطع إسكندر أن يُقنع ابنه (ريمون) بالعمل معه في بيع قطع غيارات السيارات حيث كبرت تجارته وأصبح في أمسّ الحاجة لمساعدة ابنه في إدارتها. لم يكن ريمون من النوع الذي يواجه بوضوح لكنه كان يمتلك هدوءَ أعصاب يثير أعصابَ كل من حوله. لا يقول (لا) لما يكره لكن يقترب من دائرته ويبالغ في اقتراف الحماقات بهدوءٍ شديد ويعتذر بابتسامة مستفزة، ثم يكرر نفس الخطإ بنفس الطريقة حتى يقول له الآخر: "اذهب لا أريد أن أرى لك وجها". هكذا فعل مع والده في أول يوم عملٍ له عندما ترك له المكتب والخزينة ليمنحه تجربة الإدارة وذهب للبيت لساعتين، وعندما عاد ليرى ماذا فعل ولده لم يجده على المكتب، ووجد الخزانة مفتوحة كما هي فجُنّ جنونه.

لم يرجع ريمون إلا في آخر اليوم، وعندما سأله أبوه أين كان قال له بوجهٍ خاشع:

- حسيت إن المسيح بيناديني فروحت الكنيسة أصلّي وبعدها قعدت مع العمال أساعدهم في تنضيف الكنيسة، متعرفش يا بابا قد إيه حسيت براحة وانا هناك!

أصدر إسكندر شخرة كادت أن تتشقق لها حنجرته:

وسبت الخزنة مفتوحة لأي حد يسرقني؟!

لم تتغير ملامح ريمون وهو يرد عليه:

ملكوت الله خير من ملكوت العالم يا بابا وخزاين يسوع أَولى بالحرص عليها من خزاين الدنيا!

كاد إسكندر أن يصاب بجلطة من هدوء ابنه:

ومن إمتى وانت بتروح الكنيسة أصلا؟ دة إنت بقالك سنين معتبتش بابها!!

- بركة طاعتي لِك وشغلي معاك فتحوا قلبي للنور، المفروض تفرح مش تزعل مني..

- امشي يابن الكلب أقعد جنب أختك وأمك مانا مخلفتش غير حريم!

فبدا حزنٌ عميق على وجه ريمون كأنه مصدوم:

- أمرك يا بابا.. اللي حضرتك تشوفه..

وأولاه ظهره وتركه يحترق غيظاً..

هكذا كان ريمون يواجه العالم ببرودٍ قاتل لكل ما يراه فاسداً، فقد كان يرى في أبيه مجرد تاجر جشع ومُدَّعٍ للإيمان بينما قلبه خالٍ من الرحمة، وكان يسخر من القساوسة جهراً وسراً عندما يستمع إلى دعوتهم للمؤمنين بالزهد في هذا العالم وأن يحيَوْا حياة المسيح بلا إسراف ولا غضب ولا كراهية وألاّ تشغلهم الدنيا وزينتها عن حياة التقشف، ولم ينسَ كل من عرفه موقفه عندما قام في وسط الموعظة وسأل القسيس بابتسامته الواسعة:

- أنا آسف على المقاطعة يا أبونا بس أنا كنت عاوز اشتري عربية وعاوز أتبرّك بيك وأجيبها "BMW" زي عربيتك، وكنت عاوز أعرف إشتريتها بكام عشان أشوف هقدر على تمنها ولاّ لأ؟

استشاط القسيس غضباً لسخريته المغلفة وطرده من الكنيسة، فخرج ريمون وهو يقول:

- أمرك يا أبونا بس خلّي بالك أنا هشتكيك للمسيح إنك طردتني من كنيسته عشان كنت عاوز أشتري عربية زي عربيتك!

كان ريمون يعمل مدرساً للإنجليزية بإحدى المدارس الخاصة، وكان كارهاً لعمله ولا يصبر عليه إلا ليتخلص من ضغط أبيه للعمل معه، بينما كانت هوايته العزف على (الكمان)، وكثيراً ما كان يحمله معه إلى (مقهى البورصة) بوسط البلد ليعزف بين رفاقه باسل

و(إسلام) و(حسن)، وعندما يعترض حسن كالعادة في أول اللقاء على العزف لأنه حرام، كان ريمون يرد عليه:

- كل مرة تقول حرام في أول القعدة وبعدين تدندن معايا وتسقفلي في آخرها، يابني إمتى تتصالح مع نفسك وتعترف إنك بتحب المزيكا.. صدقني ربنا مش هيدخلك النار عشان بتسمع كمنجة على قهوة البورصة لكن ممكن يدخلك عشان إخوانجي!

كان الرفاق الأربعة متشعبين في توجهاتهم، فكان إسلام مرشداً سياحياً، لا دينياً، يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بالأديان ويرى أنها مجرد زعاماتٍ قديمة أراد أصحابها أن يمنحوها قداسةً فاخترعوا الأديان بينما الحقيقة أنَّ الله خلق العالم الجميل لنستمتع به ثم نموت بهدوء، فيما كان حسن ينتمي لجماعة الإخوان، يدافع مستبسلاً عن نهج جماعته وفي الوقت ذاته يحب صحبة رفاقه الصاخبة، لكن لا يشاركهم التدخين ويمتنع عن لقاء الخميس الذي يجمعهم بإحدى الحانات في (عماد الدين) يشربون بها حتى الفجر، لا ينصحهم ولا يتخلى عن رفقتهم إنما يكتفي بالامتناع عما يراه حراماً أحياناً، وأحياناً يشاركهم باستمتاع مثل حالته مع عزف ريمون والذي رغم الصليب الذي لا يغادر عنقه كان لا يتورع عن سبِّ آباء الكنيسة ويرى أنهم مجرد لصوص يستغفلون المسيحيين ويأكلون أموالَهم ويستمتعون بكل المتع بينما يحرّمون عليهم كل شيء، لم يكن يصوم مطلقاً ولا يدخل الكنيسة إلا نادراً ولا يفكر إن كان المسيح ربًّا أم رسولاً، لكن يصلي له في خلوته بغرفته ويراه رمزاً للإنسان الكامل أو الإله الطيب. أما باسل فكان بينهم كالزئبق الذي لا يمكن القبض عليه متلبساً بفكر معين أو

توجه محدد، يدافع عن المتدينين وحقهم في التشدد، ويدافع بنفس القدر عن المتحررين وحقهم في التهتك، وكان لنشأته على أفكار أبيه الإسلامية آثارها الواضحة على شخصيته، فكثيراً ما كان يدافع بضراوة عن فكرة الخلافة الإسلامية ويراها معجزة التاريخ، وفي الوقت نفسه يحلم بالدولة المدنية التي لا تخضع لرجال الدين، يرتكب الموبقات لكنه يؤكد بحسم أنها من أشد المنكرات، فينعته أصدقاؤه بـ "القديس الفاجر" فيضحك لوصفهم ويقول لهم: "قلبي مؤمن لكن عقلي فاسق!".

***

توطدت علاقة باسل بشمس بعد عدة لقاءات جمعت بينهما، أسَره تحررها فقد كانت شعلة لا تنطفئ، تتحرك في كل مكان وتعلِّق على كل ما ترى كأنها لا تسكن أبداً ولا تعرف الصمت، وأحياناً تكونُ ذاهلةً لا تُحرك ساكناً لساعاتٍ طوال، متقلبة المزاج، تبدو حيناً كفتاة أرستقراطية تربَّت مثل طواويس القصور جميلة تُبهر من يراها وحيناً كقطط الطرقات وقحة وبذيئة وتسخر من كل شيء حتى من نفسها، فتعلَّق بها باسل وهو يحاول أن يفهم طبيعتها ويمسك بخيوط شخصيتها.

لم تكن وسامته البادية هي الشيء الوحيد الذي جذبها إليه، إنما أكثر ما جعلها تتعلق به أنه لم يكن رجلاً واحداً بل كان مجموعة رجال في قالب واحد، كانت ثقافته الدينية واسعة جداً فيبدو كسلفي متشدد ولكنه لا يصلي إلا نادراً وأحياناً يكون متحرراً للغاية فيخبرها عن تدخينه للحشيش واحتسائه للخمر وتعدد علاقاته النسائية، ووسط كل هذا لا يغيب فيه الرجل المثقف، يهتم للغاية بالسياسة

وناقمٌ على حال بلده ويسعى جاهداً لتغيير واقعها المتردي.. أدهشها رده حين سألته مرة:

- هل يمكن أن تتزوج بفتاة متحررة وغير متحجبة؟

كانت إجابته أنه لا يجد أي مشكلة، فقالت له:

- ولكن ألستَ تقول دوماً أن الحجاب فريضة؟

فقال:

نعم. والصلاة فريضة، ولكن هذه الأشياء لا تُعتبر مقياساً لأخلاق الناس، فالأخلاق يحددها سلوك الشخص فقط، أنا لا أصلي ورغم ذلك أنا تاجر أمين ولا أظلم أحداً، وكذلك الحجاب فريضة لكن غير المتحجبة لا يعني أنها فاقدة الأخلاق أو لا تصلح أن تكون زوجة..

كانت الدهشة تحل معه حيثما حل، فكانت لا تعرف أي الشخوص هو وأي جوانبه الصادق وأيها المزيف، والواقع أنه كان ذاكَ الخليط المتمايز وكان جوهره المميز يكمُن في تناقض طبيعته واختلاف توجهاته وسلوكه، فكان يفعل كل شيءٍ بصدق، إيمانه عميق وحبه للدين حقيقي وتهتكه بالِغُ التطرف وتحرره بغير ادعاءٍ وتزمّته قائم على قناعة راسخة.

كان رجلاً يخلق الارتباك حيثما نزل، ويستطيع أن يجذب كل من يتحدث إليه فينشغل كل من حوله بفهم شخصه المركَّب وطبيعته المعقدة، بينما كان هو قادراً على فهم من يحاوره بنظرة واحدة يصوبها

إلى عينيه فيدرك طبيعته من التفاتة عينه أو نبرة صوته، وكثيراً ما يفاجِئُ من يحدثه بجملة مربكة تُعجِزه عن السيطرة بعدها فيبدو ككتاب مفتوح أمام باسل. هكذا فاجأ شمس حين كانا يجلسان بأحد المقاهي عندما قال لها:

مستعدٌّ لتنفيذ رغبتك هنا والآن!

فقالت:

- لا أفهم ماذا تقصد؟

- بل تفهمين بدليل ارتباكك، نظرتك الدافئة نحو صدري تقول أنك تريدين أن تضعي رأسكِ عليه لأضمكِ.

فقالت وهي تسرح بأصابعها في خصلات شعرها:

- أنت واهمٌ وتُسقِط أمنياتكَ عليَّ. حقق أحلامكَ مع ساذجة غيري أيها الشرير!

فنجت من فخه بذكاء رغم الارتباك الذي بدا عليها للحظات قليلة.

هكذا كانت تنمو علاقتهما بين مزيجٍ من الصداقة والحب، لا يعلم أي منهما حقيقة ما يحدث: هل هو حب يتكبَّر عن الاعتراف أم أنها صداقة حميمة أم هو تعلُّق خفي.. لكن الشيء الوحيد الواضح لكل منهما هو أنهما يجدان راحة كبيرة كلما التقيا وتحدثا.

أحضر إليها هدية غريبة عندما دعته إلى العشاء في شقتها:

- فكرتُ أن أهديكِ باقة ورد، لكن الزهور هدايا العاشقين وأنتِ لستِ مستعدة له بعد!

- وهل أنت مستعد له يا باسل؟!

- أنا العشق بحد ذاته. أمارسه طول الوقت حتى لو خلا العالم من النساء.

فغمزت له:

كنتُ أشعر أنَّ ميولك ذكورية منذ البداية أيها الشاذ!

هذا اعترافٌ منكِ بأنكِ مسترجلة ولذلك تشعرين بميلي نحوكِ!

لا خلاص منك! أخبِرني ماذا أحضرتَ معكَ مقابل العشاء؟

- ديوان أحمد مطر "اللافتات".

- أيها التعيس! فتاة في مثل جمالي، وفتنتي، تدعوك على انفراد، فتحضر لها شعراً ثورياً؟!

- لأنكِ مستبدة ولا يمكن إخضاعكِ إلا بثورة..

- ولماذا تريد إخضاعي؟ دعكَ من أمراض الذكورة تلك ولتكن علاقتنا على أساس ليبرالي يعترف بحق الآخر وحريته..

- طيب.. دعكِ الآن من الراديكالية والليبرالية ولنَرَ قدراتكِ في الطبخ فإني أكاد أن أموت جوعا!

تناولا العشاء ولم يتوقفا عن الحديث والضحك وكلٌّ منهما يسخر من الآخر كلما سنحت الفرصة، ثم جلسَا يشاهدان قناةً إخبارية ويتناقشان في الأخبار التي يسمعانها، قامت لتُعدَّ كوبين من الشاي فيما أخذ هو الديوان يقرأ لها أبياتاً منه، ووقف أمام تلك القصيدة:

"صورةُ الحاكمِ في كلِ اتّجاهْ

أينما سِرنا نراهْ!

في المقاهي

في الملاهي

في الوزاراتِ

وفي ظاهرِ جدرانِ المصحّاتِ

وفي داخلِ دوراتِ المياهْ

أينما سرنا نراه

في بلد معتقل الصوت ومنزوع الشفاه

أينما سرنا نراه!"

قالت له:

- هل تعرف يا باسل؟ هذه القصيدة على سخريتها لكنها أليمة مبكية.. انتهت فكرة الحاكم الإله في كل العالم إلا في بلادنا.. هل تستطيع أن تقول أنَّ الشاعر العراقي كان يقصد بها (صدام حسين) وحده؟

بل يقصد بها الجميع.. فبلادنا نسخ مكررة، نسخ بالغة الرداءة والهوان.. أليست صورة "بشار الأسد" عندكم في كل اتجاه؟ وعندنا في مصر "مبارك" هو الأب والراعي والرئيس فنراه في كل اتجاه؟ وهو المحرك لكل شيء وكأنَّ بدونه سيتوقف العالم عن الدوران، فإذا قام رئيس "وحدة محلية" بإصلاح بالوعة صرف صحي أو وضع صندوق قمامة يقول: "فعلت هذا بتوجيهات السيد الرئيس!".. نحن أمَّة من القطعان وكل الرعاة لهم نفس العقل البليد والقلب الأسود والعصا الغليظة..

لكن حتى متى؟ هل سنموت قبل أن نرى بلادنا محترمة كبقية العالم؟

لا أعرف يا شمس، أحياناً ينتابني اليأس من كل شيء وأحياناً أنتظر أن يأتي الأمل لا أدري من أين لكن أحس أنه سيطرق بابنا يوماً ولو على سيبل الخطإ!

انتهت أمسيتهم وقامت لتودعه عند الباب فصافحها بيدٍ ضاغطة وقال لها:

- أرجوكِ لا تخبري أحداً أني قضيت معكِ نصف الليل في مشاهدة قناة إخبارية وقراءة ديوانٍ ثَوريّ دون أن ألمسكِ فإنَّ هذا سيسيء لسمعتي كزير نساء وسيشككُ من يعرف هذا في رجولتي!

ثم ضحك ضحكته العالية، لكنها ردت بوجه جاد دون التأثر بمزاحه:

بل أنت رجل حقيقي يا باسل وأثبتَّ لي هذا عملياً، فإنَّ شاباً يجالس فتاة ويعاملها كإنسان وليس كمشروع أنثى للفراش هو رجل حقيقي في زمن الذكور الذين يَخلون من الرجولة..

***

جاءت انتخابات مجلس الشعب في عام "2005" بوجهٍ لم يألَفه المصريون منذ أكثر من خمسين سنة، حيث فُتحت الأبواب الموصدة منذ عقود أمام الجميع دون إقصاءٍ مسبق للسياسيين المعارضين أو للإخوان المسلمين.

حار الجميع في توجه النظام الغريب الذي لم يسلكه مطلقاً من قبل، أكان قائماً على ثقة النظام بنفسه بعد انتخابات الرئاسة التي تميزت بشيء من النزاهة، فسمح لمرشحين أن يقفوا في وجه (حسني مبارك) الحاكم الأوحد والوحيد، وعندما جاءت النتيجة كاسحة

لصالح مبارك رغم اصطفاف عدد كبير خلف (أيمن نور) المنافس الأشرس للرئيس الهَرِم شعَر النظام أنه لا يحكم بالخوف فقط ولكن بإرادة الناس ورضاهم مما شجعه على إقامة انتخابات برلمانية حرة ونزيهة؟ أم أنها كانت اختباراً من الطبقة السياسية الجديدة التي أسسها نجل الرئيس وتقوم على رجال الأعمال ليجمع بين قوة المال وسطوة الحكم معاً، فأراد إثبات فلسفته الجديدة واختبار تأثيرها ومدى نجاحها؟ أم أنها رضوخٌ من النظام للضغوط العالمية التي تطالب بفتح سقف الحريات في مصر؟ وأيًّا كان السبب فقد كانت الانتخابات مذهلة في نتائجها، فرغم فوز عدد لابأس به من مرشحي الحزب الوطني وكذلك من مرشحي الإخوان، إلا أنَّ الفائز الأكبر كان من المستقلين، فوصلت الرسالة للجميع بأنَّ هذا الشعب ما عاد يثق بالنظام ولا بالإخوان فأعطى صوته للمستقلين عنهما.

كانت الانتخابات في وضح النهار وفي ميدان مفتوح وتحت بصر الجميع وسمعهم، وكان أحمد مرشح الإخوان في نفس دائرة أنس مرشح الحزب الوطني، في مواجهة بين النظام والإخوان وبين الصديقين أيضًا، لكن لم يكن فوز أحدهما يعني خسارة الآخر، حيث ترشح أحمد على قائمة العمال بينما ترشح أنس على قائمة الفئات، ففاز كلاهما لتجمعهما قبة البرلمان بعدما جمعتهما مقهى السلامة منذ خمسين سنة..

أقام حكيم حفلاً صغيراً بالفيلا الخاصة به جمع الرفاق الثلاثة للاحتفال بنجاح أنس وأحمد في الانتخابات.. لم يكن حفلاً للعشاء والتسامر فقط وإنما ليتعرف كل من المعسكرين على نوايا الآخر في الوضع السياسي الجديد، فقد أصبح أحمد هو رسولُ الإخوان

ولسانهم الذي يبلّغ رسائلهم للنظام عبر أنس عضو الحزب الوطني وحكيم عضو لجنه السياسات والذي أصبح رئيس تحرير أهم جريدة رسمية. كان النظام والإخوان يبدوان خصمان وعدوّان في العلن بينما الواقع أنَّ أحدهما لا يحيا بدون الآخر: النظام كان في حاجة دائمة لفزاعة تخيف القوى العالمية، ولم يكن هناك أفضل من فزاعة الإسلام السياسي، ولذلك كان النظام حريصاً على وجود الإخوان وتصديرهم بوصفهم البديل الوحيد للحكم المستبد في مصر. كما كان الإخوان يعتمدون على استبداد النظام لكسب التعاطف بين الجماهير والفقراء بوصفهم طوق النجاة الوحيد أمام الباحثين عن الحق والإيمان، فكانا يتصارعان وكل منهما يتشبث بالآخر ويمسك يده ويخشى سقوطه التام والأمَّة تشاهد العرض الرديء للمهرِّجَين العجوزَين..

أشعل حكيم سيجاراً وهو يقول لأحمد:

- لا تنكر أنَّ النظام أعطاكم فرصة عمركم..

نزاهة الانتخابات ليست منحة يا حكيم بل هي حق واجب، ولو أُتيحت هذه الفرصة منذ سنوات لحصد الإخوان كل مقاعد البرلمان بكل سهولة!

فتدخل أنس:

أنت واهم يا أحمد! مشكلة الإخوان أنهم لا يعرفون حجمهم الحقيقي.. وعندما أتاح لكم النظام هذه الفرصة لم تكن منحة بل كان ذكاءً من النظام لتعريتكم

وإثبات حجمكم الحقيقي، فلم تفوزوا إلا بأقل من خُمس مقاعد البرلمان!

- نحن لم نترشح على كل الدوائر وحصدنا معظم المقاعد التي ترشحنا عليها! نحن حصلنا على ما أردنا فقط لنثبت أننا نريد المشاركة فقط وليس المغالبة..

يا صديقي أنتم لم تترشحوا إلا على المقاعد المضمونة في الأماكن التي يكثر بها أنصاركم، وحتى هذه خسرتم كثيراً منها أمام المستقلين فلا تتحدث وكأنكم زاهدون في الحكم!

يا حكيم حالكم من حالنا، فحزبكم أيضاً لم يحصل إلا على ربع المقاعد، وكانت خسارتكم أكبر منا أمام المستقلين..

هل تظن أن "المستقلين" مستقلون فعلاً؟! إذا كنت ترى هذا فأنت تعاني من السذاجة السياسية، نحن من دعمناهم في الأماكن التي كان الحزب يفقد فيها الجماهرية، وفي النهاية سينظم المستقلون رسمياً إلى الحزب الوطني ونحصد الأغلبية المستحقة لتشكيل الحكومة..

- ولكن هذا خداع سياسي للناخبين!

- وهل السياسة إلا خداع جميل يا صديقي؟!

***

جلس باسل سَرِحًا أمام متجره وعلى وجهه ابتسامة مطمئنّة يراقب الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم في اليوم الأول من العام الدراسي ويتذكر القبلة الصباحية التي طبعها ابنه (نورالدين) على خده وهو يقول له:

- تعال المدرسة معايا يا بابا.

- ماما هتروح معاك يا حبيبي، وبعد كدة "باص" المدرسة هيعدي ياخدك كل يوم. إنت راجل وهتروح لوحدك بعد كدة..

لامته إشراق على عدم ذهابه مع ابنهما في يومه الأول له في المدرسة:

كل الولاد في سنة أولى ابتدائي أبوهم وأمهم بيكونوا معاهم عشان الولاد متخفش من جو المدرسة، ليه مترحش مع إبنك؟!

- أنا مش عايزه يحس إن المسألة صعبة ومحتاجة أبوه كمان يكون معاه، أنا عاوزه يبقى قلبه جامد..

- يعني إنت مش عايز تديه من صفاتك غير جمود القلب؟!

- بلاش الكلام دة يا إشراق! وكمان مش هقدر مكونش في الوكالة الصبح، يا حبيبتي أنا فاكر كويس لما دخلت المدرسة لاكان معايا أبويا ولا أمي، وانا عايز الولد يطلع متحمل مسؤولية نفسه..

جلس باسل يتفكّر في كلماتها، متى ترضين عني يا إشراق! ليتكِ تعرفين كم أحبك! لكني لا أستطيع أن أكون إلا ما أنا عليه، أنا لم أخدعكِ يوماً وأقدِّم لك وجهَ رجل مثالي، من أول يوم في علاقتنا وأنتِ تدركين أني رجلُ الأهواء أتقلب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. تعلمين أنتِ يا إشراق ليست طريقتي في الحب كطريقتكِ، أنتِ تجعلين حبيبكِ مركز الكون وتدور كل حياتكِ حوله أما أنا فدائرتي لها ألف مركز، أصدقائي وعملي ونزاوتي ودخاني كلها مراكز أحتويها ولا تحتويني.. أحبكِ ولكن لا يمكن أن أجعلكِ عالمي الوحيد فليتكِ تفهمينني يوماً لتستريحي فراحتي لا تكتمل إلا براحتكِ أنتِ"..

استنقذَته من أفكاره فتاة وقفت تسأله على أنواع "الطُرح" لغطاء الرأس، نظر إلى هيئتها وقد كست المساحيق وجهها بشكل لا يليق مع الصباح والبنطال الضيق جداً و"البادي" الذي يبرز صدرها بتوحش ثم تبسم هازئاً: "إحنا مبنبعش ملابس المحتشمات" لم يكن باسل رغم تهتكه المتطرف يحب الفتيات المتحررات بطريقة فجَّة رغم أنه يدافع دوماً عن حق الجميع في ممارسة قناعاتهم، فقد كان غير قادر على التخلص من تربية أبيه المتشددة فكان في عمق ذاته لا يقدّر الفتاة المجترِئة، ولذا كان حبه لزوجته نابعاً من تقديره العظيم لأخلاقها وحيائها.

ظن باسل أنَّ وجود نورالدين سيعيد لعلاقته بإشراق بهاءها القديم، لكن هذا لم يحدث وظل التباعد بينهما والصمت هما سيدا الموقف. كانت علاقة باسل بابنه تشبه علاقته بكل الأشياء المحببة إلى نفسه: تلامس دون احتواء.. كان إذا دخل البيت يداعبه ويتبادل معه اللكمات التي تتبَعُها الأحضان وبعد دقائق يقرر إنهاء الملحمة الأبوية فيأمره بالابتعاد لأنه مشغول، وكان دوماً منشغلاً باللاشيء!.. ينظر لابنه أحياناً في صمت ويتساءل: "كيف جئت أيها الولد وكيف جعلتني والداً؟!".. كان رغم كل شيء يحمل روحَ المراهق في قلبه، فلا يعترف لنفسه أبداً أنه ربُّ أسرة ووالدٌ لطفل وصاحب تجارة.. يتمنى أن يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه منفرداً بلا أسرة بلا عمل بلا تاريخ، لا شيء يربطه بأي شيء، يحيا صعلكته كاملة وتوَحُّده وتوَحُّشه بدون قيود.. وأحياناً يمتلئُ قلبه فرحاً بتلك الزوجة الحبيبة الجميلة المخلصة وذاك الطفل الوديع، ويتمنى أن يسعدهم من كل قلبه ويملأ حياتهم ويعيش لأجلهم ويموت بهدوء بينهم.. تأخذه نفسه كحصان جامح نحو الغربة حيناً وإلى السكن حيناً، ممزقٌ بين تحرره وعشقه لأسرته، فلا يعرف هل هو ذاك الزوج المثالي الذي يحب امرأته وعلى مدارِ سبعِ سنوات لم يقل لها كلمة واحدة مهينة ولم يتوانَ عن إرضائها وإسعادها أم هو ذلك الزوج الرديء الذي يزور البيت لماماً ويصمت في حضرة زوجته..

***

تربى كمال بين أبوين صامتين، لا يتحدثان إلا كما يتحدث الغرباء، فلم يرَ أباه يوماً يمازح أمه ولم يسمع أمه تنادي أباه من بعيد ولم يبصر بسمة على وجهيهما أثناء الكلام ولو على سبيل الخطإ ولم

يجلسَا يوماً لمشاهدة التلفاز سوياً، وإن كان أيضاً لم يرَهما يتعاركان أو يعلو صوتهما.. كانا والدين من الشمع حين يكونان سوياً لا تدب بهما الحياة إلا إذا خلا أحدهما به.

تمنى أبوه أن يُلحقه بالكلية العسكرية بعد الثانوية العامة لكنه أخبره عن رغبته في دراسة الطب وشجعته خديجة على هذا، فاستجاب حسام على غير رضا، فقد كان تعلقه بابنه أكبر من أحلامه بمستقبله.. لم يكن كمال له مجرد ولد يفرح به، بل كان دليل الإثبات أنه رجل صالح وإنسان جيد وإلا كيف أهداه الله هذا الولد المهذب الجميل؟! كان يرى في كمال برهانَ تفوقه على أخيه نورالدين وحب الله له وإلا كيف أعطى الله نورالدين ولداً متطرفاً كانت نهايته القتل بينما أعطاه ولداً عاقلاً أصبح طبيباً؟! نعم أنه جاء متأخراً جداً بعد ما يقارب عشرين سنة من الحرمان من الإنجاب، ولكنه جاء في النهاية، ولذلك لم يحمِلْه يوماً على ما يكره..

كان أحرصَ شيء على إبعاده عن آل الأعرج الذين هم أهله، يرتعب في كل مرة تأخذه أمه لزيارتهم ويملَؤه الفزع من نبش المقابر وإخراج جثة التاريخ البغيض والماضي المخزي، خائفاً من تحطيم صورته أمام ابنه وتعرية الجريمة التي يتمنى أن تسقط يوماً بالتقادم، لكن الأسرة كانت رحيمة فلم تتحقق مخاوفه ولم يعرف ابنه أبداً حقيقة السر القديم..

كانت خديجة أحرص ما تكون على مد الجسور بين ابنها وبين أهله الذين يحيون على الضفة الثانية من النهر الذي يفصل بين الفقر والثراء وبين الرفاهية والشقاء، تحكي له دوماً عن جده بشير، وعن

عمه نورالدين الذي مات في ريعان الشباب، وعندما يسألها كيف مات، لم تكن تضطرب بل كانت تجيب بثبات "مات كما يموت الكرام". وكان كمال خجولاً رقيقاً لا يسأل عن الشيء الواحد مرتين أبداً. فاكتفى بمعرفة أنه كان له عمٌّ مات كما يموت الكرام الذين لا يعرف كيف تكون طريقتهم في الموت!

أحب كمال جدته فردوس التي كانت تغمره بحنانها، ولم يفهم أبداً لماذا كلما زارهم تحتضنه وتبكي، غير مدرك أن الحضن كان لأبيه الذي ما عادت تراه منذ سنوات، ولا يعرف لماذا لا يصل والده جدته حتى ماتت، لكنه كان لا يشعر بالدفء والحياة إلا في بيت جده.. كان ينادي "صالح" بالعم رغم أنه في الحقيقة ابن عمه، ولكن لفرق العمر بينهما لم يقدر أبداً إلا أن يناديه بهذا اللقب، وأصبح صديق طفولته المقرب الوحيد هو باسل ابن صالح، نشآ معاً ليس لأنهما وُلدا في نفس العام فقط لكن لأنَّ خديجة أرادت أن تجمع بينهما على الدوام لعل ابنها يستقي من تلك الأسرة الطيبة ما يعالج به الفساد القادم من نطفة أبيه.. كبر الولدان اللَّذان لا يعرفان شيئاً عن الماضي ولم يفرّق بينهم اختلاف الطباع، فلم يكن كمال يمتلك جرأة باسل ولا يعرف ضحكاته العالية ويخجل أمام نكاته الجنسية، لكنه كان لا يجد سعادةً في شيءٍ أكثر من الجلوس معه..

تزوج كمال بعد تخرجه بعامين من فتاة رشحها له خاله أنس، ابنة واحد من وجهاء القوم وأكثرهم ثراءً، يمتلك قرية سياحية ويدير عدداً من المشاريع، ورغم أنَّ كمال لم يكن في مثل غنى العروس إلا أنَّ والدها رحب بنسب مشرف من طبيب كان أبوه واحداً من أهم قادة الجيش، أنجبت له عروسُهُ فتاةً تحمل ملامح أمه خديجة، فأعطاها

كمال اسم جدتها (خديجة)، وسارت حياته هانئة وديعة لا يعكر صفوها شيء بين عمله بالمشفى كطبيب جراح وبين أسرته الصغيرة.. كان حريصاً على زيارة والديه مرتين كل أسبوع، ولقاء باسل ورفاقه كلما سمح له وقته، لا يهتم بما يهتم له الناس فلا تشغله الرياضة والمباريات ولم يكن له يوماً انتماء سياسي بل حتى لا يحب حديث السياسة، لا يعرف أكثر من عمله وأسرته التي لم يبقَ منها إلا والداه وخاله أنس ورفيقه باسل، وكانت حيرته الدائمة أمام عمته منيرة التي مثلت لغزاً لم يفهمه أبداً ولم يقترب منه كثيراً لكنه يحبها ويستشعر جمال روحها، لا سيما عندما تفعل معه ما كانت تفعله منذ صغره بأن تمسح على رأسه وتقبل جبينه وهي تقول له "أهلاً بالطيب أبو العروسة"، تلك الجملة التي لم يفهمها أبداً إلا بعد سنواتٍ طوال.

***

استجاب باسل لإلحاح والدته لزيارة طبيب لمعرفة سبب تأخر إشراق في الحمل سبعَ سنوات منذ أنجبت نورالدين. لم يكن باسل يتلهف على إنجاب طفل آخر ولم يكن يريد أن يجرح كبرياء إشراق فبدأ بنفسه وراجع طبيباً للتأكد من أنَّ المشكلة لا تخصه ولما جاءت الفحوصات مؤكدة قدرته على الإنجاب مرة أخرى طلبت إشراق أن تجري هي أيضاً فحوصاتها..

لم يجد باسل أحداً يسترشد برأيه أفضل من جدته منيرة، فمنذ عادت للحياة وصارت تتحرك وتتحدث إليهم قليلاً كعادتها عادت لروحه البهجة، فقد كانت منيرة أحبَّ إنسان إلى قلبه وكان هو قرة عينها ولم يزعجه يوماً أن تعيش معه بالشقة التي ورثها عن آبائه صالح ونورالدين وبشير، وكانت إشراق لا تقل حباً لجدته عنه، فكانت

تتفانى في خدمتها وتلبية طلباتها القليلة جداً. سألها باسل مساءَ اليوم الذي اتصلت به والدته لتؤكد عليه زيارة الطبيب مع زوجته:

ما رأيكِ يا جدتي؟ هل أذهب بإشراق للطبيب وقد عرضَت الأمر بنفسها عدة مرات؟

زوجتك أرضٌ صالحة ولا يعيبها شيء، غير أنَّ الحارث يسقي أرضها ولا يسقي قلبها..

أنا أحب إشراق! ولكن ماذا أفعل لها يا جدتي؟ أنا لا أريدها أن تحبل إلا ليفرح قلبها بولد جديد. أما أنا فلا يعنيني أن يكون لي نسلٌ أو أموت بلا ذِكر. وقد فعلت كل شيء لأرضيها..!

ويلٌ لرجل قلبه طيب وعقله قاسٍ.. أنت تحسب أنَّ فِعالك وكلماتك تكفي! لكن هناك شيءٌ بين الكلام والفعال هو ما تبحث عنه المرأة إذا عشقت.

وما هذا الشيء؟

النظرة المسكينة..

- .....

- القلب إذا عَشِق صارت العيون مسكينة، بها نظرة الكلب الجريح تحت يدِ صاحبه حين تمسح عليه، وامرأتك لم تلمح تلك النظرة يوماً بعينك..

- ألا يصحُّ حبنا إلا إذا صرنا كلاباً؟!

- تعساً لعقلك يا ولد، أغمض عيون عقلك وافتح عيناً لقلبك فتحس ما أقول! امرأتك لها قلبُ عاشقة وحدسها يخبرها أنك لست آمناً لتضع رأسها على كتفك، وأنَّ قلبك لا يضمها حين تحوطها ذراعاك.. المرأة حين تحب لا تمنح الولد إلا بماء العشق، فابرأ من ماء رجولتك واحفر البئر في قلبك لينضحَ بماء العشق فتحبل امرأتك ودونه لن تنال الولد.

تألم باسل لكلمات جدته فقد لامست جرحه وعرَّت ضعفه الذي كان يحسبه خافياً، فهو لم يكتمل عشقه لإشراق يوماً، افتتح معها كتاب الحب لكنه لم يجاوز صفحاته الأولى ولم يذهب أبعد من هذا.. إنَّ رجلاً لا يحتضن امرأته بعد معاشرتها لهُوَ رجلٌ لم يبلُغ خاتمة العشق.. كم ليلةً كان ينتهي من إشباعها ثم يُوليها ظهره وينام حتى إذا غشاه الموت الأصغر قامت إشراق تمسح رأسه بيدٍ مرتعشة وتبلل ظهره بدموع حبستها في وضح النهار لتسكبها حنيناً على معشوقها في جوف الليل، تتأمل وجهه كأنه طفلها وهو يتحرك في نومه كعادته فيحيط خصرها برجله وصدرها بيده ويريح رأسه على كتفها وهو غارق في نومه فتتمتم: "ليتك تحبني في صحوك كما تحبني في نومك" ثم تتلو على رأسه رُقيه ما تركتها ليلة واحدة: "يا ربي يا سيدي هذا حبيبي

وسيدي اِملأ قلبه بالرضا واخلقني في روحه لأحيا وأعطيه ما خبأته له، يا ربي يا سيدي لا تعذبه بعذابي ولا تحرمه بحرماني وأعطِه كل ما يحب حتى ولو كان ما أكره"

أحبته إشراق من أول يوم أبصرته بكلية الآداب في عامهما الأول بالكلية، وعندما كانت تسخر منها صديقاتها لأنها تحب شاباً تراه لأول مرة وحتى دون أن يكلمها كلمة واحدة كانت تقول لهنَّ: "هو قدري الذي رزقني الله به"، وتقسم أنها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها وكانت أمها ترقيها لتعبٍ ألمَّ بها، كانت تغمض عينيها وتحني رأسها تحت يدَيْ أمها التي تباركها بالدعوات، حينها ووسط ظلام الجفون كانت ترى وجه رجل يتبسم لها وتقول "والله كان وجه باسل هذا"، وكم من مرة بعد مرة تكررت رُقية أمها لها وفي كل مرة كانت ترى الوجه ذاته، وعندما جمع بينهما صديق مشترك وعرفًهما ببعضهما أدركت أنَّ القدر قد وفّى بوعده، ولذا صبرت عليه بعدما باح لها بحبه في نهاية الفصل الدراسي الأول ورضيت بكل حماقاته، فعلى مدار أربعِ سنوات وهو كرَاعٍ للنساء كل يوم له قصة وكل يوم يفجعها بخيانة، كم كان يواعدها أول اليوم الدراسي في التاسعة صباحاً فتتخلى عن كل المحاضرات وتجلس في انتظاره تحت شمس الشوق حتى تغيب شمس السماء وهو غائبٌ لا يفي بموعده لها، تجلس أمام العيون الشامتة والكلمات الساخرة حتى تخبرها إحداهن بأنها رأته أقصى الجامعة يجالس فتاةً أخرى فتكتم حسرتها ولا تعاتبه حتى على معاملته المهينة لها.. تقدم لخطبتها عندما وصلَا لسنة الليسانس وتمَّ زواجهما سريعاً. وما إن اكتملت تسعة أشهر حتى وضعت ابنهما نورالدين وهي تحسب أنَّ وجود الولد بينهما سيجعله يكف عن حماقاته القديمة، لكنه لم يمهلها لتفرح بأمنياتها، ففي اليوم الثالث

من الوضع سمعت مكالمة لاهبة مع إحدى عشيقاته، فمضغت الوجع وأغلقت قلبها على الألم، فانغلق رحمُها عن الولد سبعَ سنوات، فالمرأة إن عشقت صار رحمها تبعاً لقلبها، يُنبت إن شبع ويُقفر إذا تَوَّجع.

عندما زارا الطبيب أكدت كل الفحوصات أنها قادرة على الإنجاب مرة أخرى ولا ينقصها أي شيء، وربما لو فحص الطبيب قلبها لعَلِم أنه ينقصها الشيء الأهم!!

***

أخيراً رنَّ هاتف شمس بعد أسبوعين ظل فيهما مغلقاً على الدوام، وجاء صوتها مرهقاً يخبر أنَّ أمرًا قد حدث..

أيوة يا شمس إنتي فين يا ماما؟ قلقتيني عليكي؟ أسبوعين بتصل وتليفونك مقفول؟!

معلش يا باسل، غصب عني لما أشوفك هفهمك.

طب قوليلي إيه اللي حصل؟ لسة هستنى لما نتقابل؟

مفيش.. كنت معتقلة..

معتقلة؟! يعني إيه؟ ماتتكلمي على طول يا شمس..

- الجورنال بعتني عشان أغطي خبر العبّارة اللي غرقت، ورحت هناك وخدت صور للجثث اللي خرجوها من البحر، كان منظر بشع! أكتر من ألف غريق! عملت حديث مع عائلات المفقودين وطبعا كانوا كلهم بيشتموا

في الحكومة اللي سابت الناس تموت ومش عارفين مين المسؤول عن موت عيالهم، دة غير إن الداخلية اعتدت على الأهالي وضربتهم بعنف لما اتجمعوا وأنا بصور اللي بيحصل، فقبضوا عليا وخدوا الكاميرا والتسجيلات اللي عملتها وحتى تليفوني خدوه، وفضلوا يحققوا معايا لحد ما رئيس التحرير عرف مكاني وجاب محامي وخرجني..

- ولاد الكلب! مش عايزين حد يعرف الحقيقة ولا يفتح بقه، ولو تشوفي (جمال مبارك) وهو في الإستاد بيتفرج على الماتشات ويتنطط كإن مفيش ألف مصري راحوا فطيس، دول لو كانوا كلاب كانوا احترموا موتهم أكتر من كدة!! المهم طمنيني إنتي كويسة دلوقتي؟

الحمد لله أنا تمام، بس مرهقة من كل اللي حصل ومحتاجة أشوفك أوي..

خلاص بكرة هعدي عليكي تكوني ارتحتي..

لا، أنا عايزة أشوفك انهاردة، هستناك على قهوة البورصة الساعة عشرة لو مش مشغول الليلة..

- هجيلك حتى لو مشغول.

***

أصبح باسل مأخوذاً بشمس إلى الحد الذي ينكر فيه نفسه وهو الذي لم يتعلق بفتاة بتلك الطريقة من قبل، وقد كان شعاره الدائم "ثلاثُ لقاءات تكفي" فكيف امتدت لقاءاتهما لثلاثِ سنوات؟ يتقابلان كصديقين ويحترم خصوصية طبيعتها فتقف علاقتهما عند حد الصداقة الحميمة دون أن تتطور إلى لقاءات الفراش التي لا يعرف سواها مع النساء، وكثيراً ما كان يستطيع أن يقتحم تلك الدائرة معها ويدرك أنها ترغب به بنفس القدر الذي تتمنع عنه.

كان مشوشاً لا يستطيع الحكم عليها بحسم، كثيراً ما يصدّقها وكثيراً ما يستشعر كذبها لا سيما عندما تؤكد له أنها لم تمر بتجربة من قبل مطلقاً لا عندما كانت تعيش بسورية ولا عندما انتقلت لمصر، وإذا سألها كيف لم تدخل في تجربة وهي فتاة منفتحة، كانت تجيبه أنها كانت أشبه بالأولاد، تتعامل كرجل لا كفتاة ولا تعطي فرصة لأي أحد للاقتراب منها فكان الجميع يعاملها بحذر، وعندما يستنكر موقفها خاصة أنها ليست بالمتدينة كانت تجيبه أنَّ أباها قروي الأصل ورباها على الأخلاق الصارمة رغم سفورها كما أنها لم تكن تفكر بالحب مطلقاً، وعندما انتقلت للحياة في مصر منذ سنوات لم يكن يشغلها إلا العمل، حتى ظهر باسل في حياتها، فصار صديقاً له مذاق الحبيب وعشيقاً تعامله كرفيق.

كان صدق ملامحها وخشوع نبرتها يشعرانه بصدقها، لكن عقله يرفض كل ما يسمع فيكتفي بالسماع دون تعليق، لا يصدّق ولا يكذّب لكن يدرك أنها صارت الأقرب إليه، حتى أنَّ هذا بدا واضحاً في علاقته التي تشوشت أكثر بزوجته إشراق التي كانت تحس تغيُّره معها حتى في الفراش فقد صارا يلتقيان جسدان بلا روح.. لم يعد يصخَب معها كما

كان يفعل ولا يردد كلماته البذيئة التي اعتادها في السرير ولا تتغير أوضاعه في المعاشرة كعادته، إنما أصبح كأنه يقضي واجباً ويمارس طقساً مملاً وهي كعادتها تكتم حسرتها ولا تبوح بالأوجاع التي تعتصر قلبها كلما عاشرها كأنه يعاشر غيرها.

كانت تشم كل امرأة تمر به في عَرَق جسده، وتعرف طبيعة كل عشيقة تمرّ به من طريقته معها: تعرف أنه كان يضاجع امرأة متحررة فاحشة عندما يضاجعها ببذاءة نابية وتعرف إن كانت آخر رفيقاته حالمةً "رومانسية" عندما يمسح على شعرها برفق ويلامس ملامحها بحنان بالغ، كما تدرك أنَّ امرأة تستعصي عليه عندما يكون عنيفاً معها، أما في شهوره الأخيرة فلم تستطع أن تستدل على طبيعة عشيقته الجديدة لأنها لم تجربه من قبل متململاً بهذه الطريقة ولا تائهاً زائغ العين محزوناً كما أصبح حاله.. لكن ككل الليالي تتركه حتى ينتهي منها وتعطيه ظهرها وتفشي الوسادةَ آلامَ قلبها من حبيب يملأ كل روحها لكنه لا يتورع عن خيانتها ولا يقدِّر عشقها الذي يسكن كل قطرة من دمها غير ملتفتٍ لإخلاصها العجيب وصبرها الذي ضج حتى الصبر منه، فتقضي له كل ما يريد وتطيعُه وتعشقه في وحدتها. لكنها تحجب عنه حبها في وجوده، فكان صمتها الدائم هو ردها القاسي عليه، وذبولها أمام عينيه وتتابع أمراضها أبلغُ رد على جحوده وأشد عقابٍ لخياناته التي تتوالى، فهي تعرف كم يؤلمه أن يراها تعيسة. فقد كان في عمقِ ذاته يحبها كما لم يحبَّ يوماً غيرها ويسعى لإرضائها بكل سبيلٍ إلا التخلي عن نزواته، وكانت هي لا ترضى إلا بإخلاصه، ولا تبغي سواه، فلا هو يرجِع عمّا اعتاده ولا هي تبرأ من مواجعها، فأصبح أكثر تشتتاً أمام زوجةٍ يعجز عن إرضائها فيُغرِق نفسه في العمل وفي

الملذات التي ما عادت تحمل اللذة، فهرب من واقعه إلى (ميرفت)، تلك المرأة المطلقة والتي كانت تكبره بقرابة عشرِ سنوات.

كانت ميرفت في الأربعين من عمرها، بينما لم يبلغ هو الثلاثين، تعرَّف عليها في متجره ولم يمرّ وقت طويل حتى اجتمعا بسريرها.. كانت تعشقه حد الجنون به وتخبره أنها لن تتردد عن الانتحار إذا تركها فتقول له "أعرف أنك لا تحبني لكني لا أحيا بدونك ولا أطالبك بأي شيء فقط كن معي" وكثيراً ما تخبره أنها تراه ابنها الذي لم تنجِبْه، ولم تتمنَّ أن يكون لها يوماً طفلٌ حتى عرفته.. كانت تفهمه كأم تدرك جموح ولدها وتصبر عليه وتعرف حماقاته وتحبها.. ورغم عمرها لكنها كانت معه كفتاةٍ عشرينية تعد له البيرة التي يدمنها وتُعرِّفه على صنوفٍ جديدة من الخمور في كل لقاء، ثم ترقص له كما عودته لينتهي اللقاءُ في فراشٍ تهتز أركانه لفرط نشوتهما تعتليه حتى يتأوّه شبقاً ويدُك أركانها حتى تصرخَ لذة. وعند انتصاف الليل يعود لبيته بروحٍ غائمة لا هي تمطر فيستريح ولا هي تجلو سماؤها فتنير..

دوماً تنتهي كل جولاته في الليل، دوماً يعود في الليل، آآآخر الليل، حين ينزل وجهُ الضباب ليحجُب وجهَ الوجود وتكف الكلاب عن العواء وتختفي النجمات من سقف الأفق فتصرخ روحه: "أواااه أما للمراكب من مرفإٍ يمنعها صفع الرياح؟!".

كل ليلة عند عودته يبصر تلك العجوز التي تنظّف الطرقات فترفع وساخات الليل لتلقي بها في سلة المهملات فيقترب منها يكاد يقول لها: "اِحمليني فوق مكنستك أيتها العجوز الطيبة وأريحي قدميّ فقد أجهدها طول المسير وأجهض أحلامها بؤس المصير!" فما أبأسه من مسكين حين يحلم بمعانقة المزابل لترحمه من لوعةِ الحيرة ودروبِ

التيهِ التي لا تنتهي.. الظلام يملأ روحه الحائرة والشعور بالذنب لا يغادره، يتذكر أباه المؤمن وكيف خابت تربيته بعد حين، يحنّ إلى أمه التي ارتحلت إلى بيت جده وأخته التي تزوجت منذ سنوات يزورهما كما يزور الغرباء ولا يجد صدراً يبكي عليه بغير دموع إلا صدر جدته منيرة التي تمسح على رأسه وتضمه إليها وتردد قولاً طالما قالته لحفيد أخيها في ليالٍ كثيرات يعود إليها فيها بروح ميتة: "لا تحزن يا بنيّ، معدنك نفيس، لكن علقت به الوساخات ولن يجلوه إلا النار التي ستحرق كل الشوائب فتنفتِح عيونك على كنزك الذي أهملتَه وتتطهر روحك بالوجع الأليم لتصبح كجدك الحبيب، ستعرف الحق وتمنحه دمك، فشجرتك عزيزة وأصلك كريم، لكنه الطريق! ستعبره والشوكُ يدميك حتى تبلُغَ قَدرك وتبلُغَ الغاية، فأنت آخر الأحزان يا طفلي وأنت باب الحياة التي لن تعرف بعدك الآلام"

***

لم تتغير علاقة باسل بإشراق وحدها بعد اقترابه من شمس، فقد تغيرت أكثر بكل عشيقاته، حتى ميرفت أهملها ولم يعد يجيب على اتصالاتها، فتأكلها الوحدة والشوق إليه..

أمسكت الهاتف وعاودت الاتصال به، والهاتف يرن للمرة الأربعين ولا يرد، فتقول لنفسها "لعله نائم أو لعله خارج المنزل ونسي هاتفه.. لا بأس.. سأعاود الاتصال بعد قليل وحتماً سيرد" دائماً كانت تعطيه الحجج بالمجان وتتدرع بالأوهام لتخبِئَ حقيقةً واحدةً تعلمها جيداً: *هو لا يحبها*.

جلست تتلو على نفسها كل تفاصيل الحكاية.. فأصابتها الصدمة: لا توجد تفاصيلٌ لتلك الحكاية. ليست هناك حكاية! فتسدد أسئلةً قاطعةً لذاتها، ثم تُقدّم لها أجوبةً مائعةً مخنثةَ الجواب، هكذا كان طقسُها كل ليلة..

هل يحبني؟ لا أستطيع أن أقول لا.. ولا أستطيع أيضاً أن أقول نعم، ففي أكثر لحظاتنا حميمية كان يبدأ جسدي عند أطراف شفتيه وعندهما ينتهي، يبدَؤُني بقبلة غاضبة وينتهي مني بقبلة تُربَت على كتفي ولا تربِط على قلبي وبينهما يطبع قبلاته في كل مكان، يفاجئني بطرقٍ غريبة وشاذة للمضاجعة ويردد دوماً كلمات من قبيل (أشتهيكِ.. أعشق شفتيكِ.. جسدكِ يلهمني.. استدارة نهدكِ مربكة.. حلماتكِ مراوغة.. أنفاسكِ تحمل نكهة الحشيش الأفغاني..) لكنه أبداً لم يقل لي "أحبكِ"! لماذا لا يقول أحبكِ لو كان يحبني؟! لا.. لكنه قال أنه يعشق شفتي وهذا يعني أنه يحبني.. حقاً هو لم يقلها واضحة لكنه قال "أعشق شفتيكِ" أليست شفاهي هي بعضي بالنهاية؟ وهذا يعني أنه يحبني بطريقة ما!

السؤال يستبد ويتسيد والإجابة تخضع وتتخنث.. فتعيد المحاولة، فلا يزال بجعبتها مزيدٌ من الأسئلة يمكن أن تقهرها بأجوبةٍ قاطعة..

هل يغويه جسدٌ غيري؟ ألستُ الأفضل لديه دومًا؟ تبسمتْ.. هذه المرة تشعر أنَّ الجواب سيكون بصفها وستهزِمُ الأسئلةَ الطاغية: جسدي خارطةٌ سرية تدل عليه حيثما كان وتحدد تاريخه معي بدقة لا يضل من يفك شيفرتها فخربشاته على كل موضع من جسدي تشي

بمروره ذات مساء على تلك الأرض الخصبة، عضّتُه على نهدي لازالت تؤلمني منذ ثلاثة أسابيع تاركةً ندبة زرقاء باحمرار.. أتحسس موضع العضة أداعبها بسبابتي والوسطى فيتجلى لي وجهه الهادئ كأنما أستدعيه بكلمة (سمسم)، كم أعشق وجهك يا حبيبي ذاك الذي لا يشي بهمجيتك أبداً، يا لك من كذابٍ كبير يا حبيبي... لستَ ذاك الرصين الذي يعتقدون، أنت فاسق الفراش.. وجاريتك الأثيرة أنا!

تكاد الإجابة أن تنتصر.. أوشكت أن تُجهز على السؤال الملعون.. لكن تلوحُ في الأفق خيوطُ حقيقةٍ أخرى تتجلى لها كليلٍ يزحف على روح النهار ببطء حتى يكفّنه ويشيّعه لمقبرة الظلام: عيونه حزينة دوماً عند المضاجعة، عندما أرفع وجهه عن صدري أرى غيامات الدموع تغطي عينًا أعشقها، أنفاسه مرهَقة وهو يمسح وجهه ببطني، يشرب من سرتي لكنه أبدًا لا يرتوي، ووسط المضاجعة وبلا مقدمات ينزع سره من سري ويلقي ظهره لوسادةٍ عالية يراقب السقف ويدخن سيجارةً بشرهٍ كأنما يمتص روح الدخان، أحدّثه فلا يسمعني أسأله فلا يرد جوابًا ثم يطفِئُ سيجارته وينغرس بي ليطفِئَ نارًا أخرى تحرق روحه بغير دخان!! لوكان يحبني ويجعل جسدي مسرحًا لعشقه فلماذا لا يحدثني؟ لماذا لا يقبل مني كلامًا وهو يظللني بجسده المتصبب؟ لماذا يضع أصبعين على شفتي ويقول "هُشششش"؟.. اللعنة عليك يا حبيبي، كم أكرهك وأكره جسدي، أنت لا تضاجعني بل تضاجع أخرى هنا غيري.. تضاجعها بي أنا، تصلبها بين نهديّ، تدفنها بسردابي ثم تغيب عني شهورًا طوالاً بعدما تُسقطها عندي وتتخلص منها بداخلي.. جعلتَني محظية وأحلتَ جسدي حبَّة نسيان!.. لكنك تعود في النهاية.. هو دومًا يعود لي.. يعود عندي.. أليس هذا يعني أنه يحبني أو يريدني؟!

سقط الجواب مرة أخرى وفاز السؤال المفزع.. بقي سهمٌ أخير بجعبتها لتسدده وتستريح، من يدري فالراحة تأتي دوماً في الخاتمة.

هل سأتركه يهين كبريائي، هل أبقى محظيته التي يمنحها ساعة كلما هدّه الشوق إليها -لا- إليّ؟ هل أبقى عاجزةً عن اتخاذ قرارٍ أخير؟
كان هذا دوماً هو السؤال الأكثرَ قسوة على نفسها، مهدودةَ الإرادة، مكدودةَ الوجدان، روحها تتشظى وتتناثر قطعاً من نار كلما لاح لها خاطر حرمانها الأبديّ منه، هل تظل عشيقةً له في الظلام وعلى بابها يقف ألف طالب يتمنونها زوجة وسيدة لقلوبهم؟! لماذا هو وهو فقط من يُحييها بأنفاسه؟ لكنه لا يُحييها إلا في الليل فهو أبدًا لم يطأ فراشها إلا في المساء ولا يتجلى وجهه إلا في الظلام.. هو كالقمر.. هو كالبدر لا بل هو مصاص دماء ترعبه الشمس!

ليته يعضّني عضّة أخيرة يحملني فيها بجوفه فلا يخرجني أبدًا ليته يمتصّني برشفة، ليته يشهق بي ثم لا يزفرني أبدًا.. لكن هو حتى لا يسمح لي أن أحبه كيف شئتُ بل يريدني كيف شاءَ هوَ! يا إلهي لماذا هذا الظالم من دون الناس عشقتُه، لماذا يقسو عندي ويلين عند غائبةٍ عنه.. اللعنة عليك وعليها وعلى كل حبّ! اتخذتُ القرار: سأغادره وللأبد..

دلفَت لحمامها وانهمر الماء على جسدها يطهّره من قلقها الطويل وينسرب لروحها يغسلها من عشقٍ مُذل.. الماء مريح للأعصاب وللقلب وللجسد أيضًا.. يمحو أثَر بصماته عن صدرها.. يزيل خربشاته عن ظهرها وبقايا ريقه العالق بسرتها.. تطهرت وابتسمت وخرجت عاريةً تتدحرج خيوط الماء من خصلاتها فوق وادٍ ناعم ينتهي ببحيرة

رائقة صغيرة بوسط بطنها.. استلقت على سريرها.. ألقت ناظريها نحو الشرفة، نزل الظلام يغطي دموع الستائر، وحملَت الريحُ أنفاسَه من بعيد فأغمضَت عينيها وشربَت نَفَسَه ببطءٍ ونشوة، وأمسكت الهاتف وعاودت الاتصال..!

***

لم تكن خديجة تفرح لشيءٍ كفرحتها عندما يزورها أخوها أنس فتتنفس فيه ذكرياتها الوديعة وتستعيد أيامها الأولى عندما كانت مدللةً ببيت أبيها.. أصبح أنس الخيطَ الأخير الذي يذكّرها بأبويها الراحلين وبانغماسها الأبدي في رفقة رجلٍ لم تحبَّه يوماً، فليس للمرأةِ من ملاذ بعد الحب إلا أهلٌ تثق أنهم درعٌ يحمي قلبها من سهام الواقع الأليمة، وكان أنس هو آخر قطعة بالدرع الذي ضربه الصدأ وأكل الموت أطرافه.

أعدَّت مأدبة غداء عامرة بعدما هاتفها أنس ليخبرها بزيارته لها ونبتت بسمة على شفتيها طال غيابها حتى استنكر حسام حالها فلم يعهدها إلا بشفتين صائمتين عن التبسم والكلام:

هو أنس جاي يزورك انهاردة ولا إيه؟

أيوة، اتصل بيا امبارح وقالي إنه جاي، وياريت تقعد تتغدى معانا مش معقول كل مرة يزورنا تسيب البيت وتنزل.

- هو جاي يزورني أنا ولا جاي يزورك إنتي يا خديجة؟؟

- معلش تعال على نفسك واتغدى معانا واقعد معاه شوية وبعدين انزل بلاش تحرجني زي كل مرة.

- أخوكي رغاي وانا الكلام الكتير بيرفع عليا الضغط، وكلامه سخيف.. فاكر نفسه لسة شاب وطول الوقت نكت وهزار، اللي يشوفه ميقلش إنه راجل قرّب على السبعين سنة.. واحد زيه وفي مكانته المفروض يحترم سنه، مش عارف دة عضو في البرلمان إزاي!

يعني هو اللي يكبر لازم يخرس يا حسام؟ ماانت أكبر منه وبتمسك التليفون بتتكلم فيه بالساعات مع أصحابك ومحدش قالك الكبير المفروض يسكت؟!

قصدك إيه يا خديجة؟

مقصديش حاجة.. هتقعد ولا لأ؟

هتغدى معاكم وهنزل، أنا عندي معاد مع الدكتور انهاردة عشان جلسة العلاج الطبيعي..

- طيب. مش عايزة منك أكتر من كدة.

لم يحبَّ حسام أنس يوماً، كان دوماً يرى فيه سليلَ نعمة لا يستحقها، سافر الى الخارج ليعود ثرياً لا أحد يعرف من أين تضاعفت ثروته ولا كيف وصلت علاقاته برجال الحزب الوطني الى الدرجة التي أصبح فيها من أهم رجالاته المقربين من نجل الرئيس الذي كان يحرص

على الجمع بين السلطة والمال في من حوله، فجمع أنس بين مشاريعه المتعددة وعضوية البرلمان وهو الذي لا يفقه شيئاً في السياسة.. والحقيقة التي كان لا يعترف بها حسام لنفسه أبداً أنه ينفرُ من أنس ويبغضه لأنه كان صديقَ نورالدين المقرب، والشاهد على الجريمة في الليلة الليلاء وأنه من حمل جثمان أخيه في سيارته وصلّى عليه بينما طرده أبوه بطرف عصاه على مرأى من أنس الذي صار الشاهد الثالث على لعنة الوالد على الولد.

كانت خديجة تدركُ تلك الحقيقة جيداً وإن كانت لم تعرف تفاصيلها أبداً، لكنها تدري بقلب امرأة أنَّ تلك الليلة هي ما جعلَت حسام ينفر من أخيها ويختبِئُ في نفسه كلما التقت الوجوه.. وحده أنس لا يستعيدُ ماضيه أبداً ولا ينبشُ مقابر الذكريات ويبالغُ في دفنها كما دفن كل ما يمت إلى الماضي منذ قرر الهجرة إلى فرنسا بعد موت عبد الناصر ليعود في منتصف السبعينيات رجلاً لا همَّ له إلا الثراء ومعرفة من أين تؤكل الكتف.

رنَّ جرس الباب فاستقبلته خديجة كعادتها بضمة طويلة وهو يترك نفسه بين يدَيْ أختٍ جائعة للحنان، تستقبله كأنه والدها وولدُها وهو الذي يكبُرها بسنوات، تُعلِّق يدها بيده وتجلسُ بجواره وتطمئنُّ على صحته بألف سؤال وتستنطقه عن أخبار بناته الثلاث وكعادتها تُعلِّق على وزنه الذي نزل وتُوصيه بصحته رغم السمنة التي صارت باديةً عليه فيردُّ عليها مازحاً كعادته: "شوفيلي عروسة تأكّلني.. إنتي عارفة نِفسي مبتفتحش غير لما بشوف قدامي الستات، ومن يوم المرحومة ماإتوفت وانا نفسي مصدودة عن الأكل!"

قطعَ حسام حديثهما عندما دخل بكامل بدلته ونظر إلى أنس كأنه فوجِئَ برؤيته ولا يعلم بزيارته ولا وجوده:

- أهلا يا أنس، إنت هنا؟! نورت البيت!

- أهلا يا حسام! إزيّ صحتك؟

الحمد لله، إنت عارف بقى الواحد لما بيكبر أمراضه بتزيد وأقل حاجة بتتعبه..

يكبر إيه يا عم؟! ماانت زي الحصان ولسة شباب!

شباب إيه يا أنس! الواحد لازم يعترف بالحقيقة ويحترم سنه!

أهو الاحترام دة هو اللي بيكبرك.

الاحترام بيكبر المقام يا أنس.

ماانا قصدي يكبّر مقامك، مش سنك.

قاطعَتهُما خديجة عندما أبصرت المعركة التي تدور بهدوء بينهما بقولها:

- يلا يا أنس نتغدى قبل ما حسام ينزل للدكتور..

جلسوا على المائدة، وقبل أن يشرعوا في الأكل حضر كمال وزوجته وابنتهما خديجة الصغيرة تتوسطهما وهي تمسك بيديهما، وكان أنس أول من هرول إليها يحملها ويقبلها قائلاً: "أهلا عروستي"

سلَّم كمال على والديه وخاله ثم جلسوا جميعاً إلى المائدة، وكان أنس يبالغ في الترحيب بزوجة كمال ويسألها عن حال والدها ويؤكدُ عليها أن تبلِّغه سلامه.

نظر أنس لابن أخته كمال قائلاً:

متنكرش إن أنا أهديتك كنز لما جوّزتك القمر دي!

فردت عليه خديجة:

- وأنا كمان جوّزتها دكتور زي الورد جابلها بنوتة عسل زي أبوها!

- لا والله ياختي دي عسل زي جدتها!

وحسام يتابع الحديث الباسم بأذنيه بينما عينُه لا ترتفع عن الطبق الذي أمامه، سأل كمال خاله أنس:

أخبار البرلمان إيه يا خالو؟ بيتهيألي دة أصعب برلمان في تاريخ البلد خصوصا إن نُصه معارضة.

ولا نصه ولا حاجة! همّة كلهم ميكملوش تسعين عضو، وعضو واحد من عندنا يقدر يقوم بيهم كلهم.

- يعني إيه؟ مفيش معارضة منهم لسياسة الحزب؟

- ميقدروش يخالفوا السياسة المحطوطة.. آخرهم يستجوبوا رئيس وحدة محليه عشان خامة الأسفلت اللي رصف بيه الطرق مكنتش تمام.. إنما القوانين والحكومة دول خط أحمر وهم عارفين دة ومبيقربوش منه، آخرهم زي ماقلتلك يجروا على كل وزير شوية عشان يعمل خدمات في الدواير بتاعتهم يسكّتوا بيها الناس اللي انتخبتهم..

كان نفسي يبقى عندنا معارضة حقيقة زي الدول المحترمة يا خالو.

الدول المحترمة هي اللي تكون فيها المعارضة مؤدبة، مش عاوزة توقّع النظام!

- لا يا خالو، لما المعارضة تبقى جزء من النظام يبقى حُكم شمولي وديمقراطية كرتونية. مش لازم توقّع النظام، لكن لازم تحاسبه لأن النظام اللي ميتحاسبش قدام برلمانه بيستبد.

وإنت شايف يا كمال إن الإخوان همة المعارضة اللي هتحاسب النظام؟

- لا الإخوان معارضة، ولا الحزب الوطني نظام، الاثنين همهم نفسهم وبس..

- جرى إيه يا خديجة؟ إنتي عازماني على الغدا ولا عازماني على استجواب يعملهولي إبنك! ماتتكلم يا حسام!

وضع حسام الشوكة والسكين، وأنزل الفوطة عن عنقه، ومسح يديه قبل أن يرد عليه بهدوء:

كل اللي بتقولوه ملوش معنى، كلكم بتلعبوا سواء في الحزب أو في المعارضة اللي بتسموها معارضة.. من وقت ماالريس ساب البلد لمراته وابنه والبلد بيمشيها شوية عيال حتى لو كان عندهم سبعين سنة! السياسة يعني حزم واللي إنتو بتعملوه كلكم اسمه تهريج، والقوة الحقيقة اللي في البلد سايباكم تلعبوا وبتتفرج عليكم لحد ما تجيبوا آخركم وتلفوا الحبل حوالين رقبتكم.. إوعى تفتكر إن جمال ابن الريس هو اللي بيحكم بجد، هو والشلة اللي حواليه، لا يا أنس دة بس اللي في إيده الأمر صبره طويل ووقت الجد هيحطّ كل واحد في مكانه.

ومين بقى هو اللي في إيده الأمر يا سيادة اللوا إذا مكنش الرئيس، ولا ابنه، ولا الحزب؟!

- دة شيء اللي زيك عمره ماهيفهمه!

ساد الصمت على رأس الجميع أمام كلمات حسام التي ألقى بها كأنه يمسك بمشرط ليحدث جرحاً غائراً دون قطرة دمٍ واحدة، ثم نهض بعدها واقفاً: "يادوب ألحق معاد الدكتور"..

***

لم يكن إضراب السادس من إبريل عام "2008" مجرد حدث سياسي عابر، فقد كان كرةَ الثلج التي تدحرجت بقوة ولم يتنبه لها أحد، لأنه لم يكن حراكًا حزبياً ولا دعوةً من السياسيين القدامى إنما كان حركةً شبابية قررت أن تستغل إضراب عمال المحلة في ذاك اليوم ليعلنوا عن غضبهم، لم يتوقع أحد أن تنجح دعوةُ شباب لا يعرفهم أحد إلى إضراب عام، ولم تتردد جماعة الإخوان عن الإعلان أنها لن تشارك في الإضراب فقد كان يزعج قادةَ الجماعة أن يرَوْا أي قوة غيرهم تظهر على الساحة ترفع راية المعارضة، لكنَّ قطاعاتٍ كبيرة من الناس تجاوبت مع تلك الدعوة الغريبة على مجتمع الصمت والمشي بجوار الحائط، فكان مولدهم شهادة وفاة للمعارضين القدامى.

اجتمع الرفاق ريمون وإسلام وحسن كعادتهم على مقهى البورصة، فقال لهم ريمون:

كل مشاريبكم انهاردة عندي يا شباب احتفالا بنجاح الإضراب وبمناسبة إني اتحقق معايا في الشغل وخصمولي نص شهر من مرتبي!

إنت شايف إن دة إضراب ناجح فعلا؟ دة مشاركش فيه ولا حتى عشرة في المية من الناس!!

وهو عشرة في المية شوية؟ يابني إنتو جماعة عايزة الحرق، بدل ماتشاركوا في الإضراب جربتوا على النظام تثبتوله إنكم مؤيدين ومش هتشاركوا وقعدتم تِسخّفوا من الفكرة ولما نجحِت عايزين تقللوا من اللي حصل؟! فوقوا يا عم، في شباب في البلد يا جماعة العواجيز!

- عواجيز إيه يا ريمون؟ إنت أعمى يابني إحنا أكبر جماعة في البلد، فوق إنت!

وإيه يعني؟ ططظظ كله خيش وقش.. العدد في اللمون.. عملتوا إيه بالعدد؟ عملتوا إيه بمجلس الشعب؟ لكم مية عضو تحت القبة ولا لهم لازمة!

فضحك إسلام:

تحت القبة شيخ! وهمّة من إمتى الإسلاميين كان لهم دور ولا بيعملوا حاجة صح؟ دول يا إما يقتلوا يا إما يطبلوا..

آه!! إنتم جايين تعملوا عليا حفلة بقى والله اسيبكم وامشي!

- لا خلاص متمشيش، إحنا برضو مؤمنين بالمعارضة حتى لو كرتونية يعني هو النظام أحسن مننا؟ أهو باسل جالك وهيدافع عنك في تبني الفكر التطبيلي..

سلّم باسل على أصدقائه:

- مالكم بالواد الإخواجي دة يا غجر مزعلينه ولا إيه؟

- هو اللي مش عاجبه إضراب ستة إبريل، وبيقول الإخوان همّة المعارضة الوحيدة اللي تقدر تغير في البلد.. فمسكته أنا وريمون شطفناه وغيرناله هدومه.

- طيب يا حسن زعلان ليه من التشطيف؟ دة حتى النظافة من الإيمان يا أخي!

أهو صاحبك اللي بيدافع عن حقك حكَم عليك، يعني أنا يتخصم مني نص شهر عشان مرحتش في اليوم دة وهو جاي يقولي دة لعب عيال؟

إنت اتخصملك نص شهر يا ريمون؟ خلاص، حسن يدفعهولك عشان يكفر عن جريمة جماعته.. يابني اللي حصل دة حاجة كبيرة أوي وكل اللي شاركوا فيه ناس بتفهم وأنا عن نفسي قفلت المحل في اليوم دة، يا أخي الواحد نفسه يقول (لا) حتى لو طارت في الهوا ومكنش لها أثر. بس مش ملاحظ حاجة يا ريمون؟ إن محدش من السياسيين والأحزاب شارك في اللي حصل؟ همّة الناس دول معارضين بجد؟

- دول مش معارضين، دول معرصين.

- عندك حق. طيب أنا هقلك حاجة أنا كنت بفكر فيها في اليوم اللي قفلت فيه المحل مع الإضراب، حسني مبارك دة ابن لعيبة، غريب، من وقت مامسك البلد وفي حالة خرس أصابت الكل.. يعني عندك في فترة عبد الناصر والسادات كان في معارضين بجد، واتسجنوا وطلع دينهم، سواء "مصطفى أمين" ولا "أحمد نجم" ولا الشيوعيين ولا حتى الإخوان.. وأول مامسك مبارك و"هُششش" ولا صوت لأي حد، مع إنه مابدأش حكمه باعتقالات، حتى المشاكل بتاعت النوبة اللي كانوا عاملين صداع للنظام وبيطالبوا بحقوقهم بالرجوع بقوة بقوا بيطلبوها من مبارك كأنها صدقة منه.. واحد زي "حمدين صباحي" اللي وقف قدام السادات وهو لسة طالب بقالو أكتر من خمسة وعشرين سنة ساكت ومسمعناش عنه غير من كام يوم.. هو إيه اللي حصل للناس دي؟ إيه حالة السكات الغريبة اللي ضربت الكل؟!

- عندك حق.. حاجة فعلا تستحق التفكير.. بس أعتقد إنها مجتش من فراغ.. من أول مبارك مامسك وفي خطة جهنمية محطوطة، عندك السينما من أول الثمانينات ولحد أواخر التسعينات مفيهاش غير أفلام المقاولات والتفاهة، والتعليم عمالين يخبطوا فيه، وكل سنة يعملوا نظام جديد، خلوا البلد في حالة من الملل والغباوة.. الناس عايشة وخلاص وأقصى حلمهم إنهم

يهاجروا من البلد ويفضّلوا الموت غرقانيين في مراكب التهريب أو يعيشوا زي العبيد في الخليج على إنهم يعيشوا في مصر..

أيوة يا إسلام، كل اللي بتقوله دة صح بس دة يخلي الناس تنفجر مش تسكت.

أنا أقول لكم ليه يا باسل، عشان ناصر رغم كل بلاويه بس كان فيه قضية الناس ملمومة حواليها حتى لو بروباجندا وضحك على الدقون، لكن في قضية: العروبة.. القومية.. السد العالي.. حاجات كبيرة وتخلي الناس عارفة هي عايشة ليه.. والسادات برضو كان عنده قضيته اللي مخليّة الناس فاهمة وبتفكر: تحرير سينا.. الحرب.. السلام.. إنما الباشا مبارك شال فكرة القضية خالص، واللي قالو إسلام كان هو الوسيلة لتخدير الناس.. مفيش إعلام مفيش أدب مفيش ثقافة.. يعني الحلم إن الواحد يبقى لاعب كورة، ممثل، مغني، أي حاجة تخليه عنده فلوس ويكبر دماغه بقى عن النظام واللي بيعمله! هى دى اللعبة ياباسل.

- أيوة.. ويفضل العرش بعيد وبيحكم الكل.. السرّ مش إنك تشيل من الناس الأحلام لأنّ دة هيخليهم يصحوا بسرعة، بالعكس، السرّ إنك تعيَّشهم في واقع صعب وتحط قدامهم شيء لذيذ يحلموا بيه ويمشوا وراه وهمّة

مغمضين، فلا همّة يوصلوا للأحلام، ولا همّة يثوروا على الواقع المر..

***

اختار باسل خاتماً ذهبياً رقيقاً ليقدمه هدية إلى شمس في عيد مولدها، طرق الباب طرقات خفيفة ففتحت له وهي ترتدي فستاناً قصيراً يبدي أكثر مما يخفي وشعرها منطلق كعادتها، قدم لها باقةً تحوي أزهاراً حمراءَ ثلاث تتوسطهم زنبقة بيضاء، ثم طبع قبلة على خدها:

كل سنة وانتي طيبة يا أجمل شمس.

وضعت يدها على خدها كأنها تثبّتُ القُبلة حتى لا تهرب أو تسقط شوقاً وأدخلته إلى صالة الاستقبال، أعدّت كوبين من الشاي مع قطعتين من الجاتوه فلم يكن الحفل يضم أحداً سواهما، قدّم إليها هديتها التي استخرجت منها صرخة خفيفة لفرط فرحتها بها:

- ذوقك حلو أوي يا باسل! لكن ليه كلفت نفسك؟ وجودك والله معايا كفاية أوي عليا.

- مفيش حاجة كتير عليكي، تعرفي يا شمس، أنا جبت هدايا لناس كتير وعادة كنت بسيب البياع هو اللي يختارلي حاجة على ذوقه، لكن انهاردة وأنا بجيب الخاتم كان نفسي محدش يشوفه ولا يلمسه غيرك ولا حتى الجواهرجي اللي باعهولي، مكنتش عايز أي طرف تالت

مابينا. انهاردة يا شمس حسمت كل المشاعر اللي محيراني من وقت ماعرفنا بعض من ست سنين وأنا بسأل نفسي هو إحنا فعلا أصدقاء وبس؟

- لا يا باسل إحنا عمرنا ماكنا أصدقاء وبس.. الأصدقاء مبيسهروش الليل يفكروا في بعض ولا يسرحوا في بعضهم في كل لحظة فراغ. ودة اللي بيحصل معايا.. الأصدقاء عمرهم مابيتمنوا يجي يوم يناموا في حضن بعض وأنا مفيش ليلة نمتها من وقت ماعرفتك إلا واتمنيت أقوم الصبح ألاقيك جنبي وأجهزلك فطارك بنفسي..

أنا بحبك يا شمس. بحبك بكل مافيكي بحب عيوبك بنفس المقدار اللي بحب بيه مزاياكي، والغريب إني مش عارف إزاي عدّى سنين من غير ماأكتشف الحب دة!!

الحب رزق يا باسل، والحب مكتوب وبييجي في وقته. بس أنا مش زيك وعمري مااحترت في مشاعري ناحيتك، أنا بحبك من وقت ماعرفتك بس مكنش ممكن أقول دة، مش لأني مش واثقة فيه لكن لأني مش واثقة إن كنت إنت مستعد للحب دة أو لأ..

غريبة يا شمس، لكن إنتي عمرك ماعاملتيني أكتر من صديق، إنتي حتى عمرك ماسألتيني إن كنت متجوز أو لأ لحد ماأنا اللي قلتلك من كام شهر ووقتها رد فعلك أكدلي إنك عمرك ماحبيتيني!

- ليه يا باسل؟ عشان مزعلتش وكنت فرحانة إنك متجوز وعندك ابن؟

- أيوة. مفيش بنت تفرح إن حبيبها متجوز ومخلف كمان!

- وإيه الفرق؟ أنا بحبك وبس، بحبك ومكتفية بحبي ليك. أنا شايفاك يا باسل، شايفاك من جوة، إنت جواك حلو أوي وبهي وجميل، جواك إنسان. بتحس بكل اللي حواليك وبترحمهم وعمرك ماقسيت على حد غير نفسك، وكونك متجوز من واحدة فدة أسهل عليا كتير من حقايق أعرفها عنك وانت نفسك بتقولها.. أنا عارفة إن ليك ألف عشيقة.. واللي كان مسكتني ومعترفتش بحبي مش عشان خايفة تكون متجوز أو لأ، لكن عشان خايفة حبي ليك يخنقك. إنت بتكره أي حاجة تملُكك حتى لو كنت بتحبها، بتهرب من أي قيد، وبتطير في السما وتجري، عشان مفيش حاجة تمسكك.. وانا كنت عاوزاك جنبي، عشان كدة خبيت حبي جوايا عشان تفضل جنبي.

وليه قلتيه دلوقتي؟ مش خايفة أطير؟

- مين قال إني مش خايفة؟ بس إنت غالي عندي أوي ومقدرش أشوف الحب في عيونك وعلى لسانك وأخبي الحب اللي جوة قلبي ليك، رضاك هو أملي وراحتك هي

سعادتي حتى لو هتبعدك عني، وأوعدك عمري ماهكون قيد عليك ولا هطالبك بشيء غير إنك تكون جنبي دايما.

- إنتي جميلة يا شمس وشايفاني أكتر من أقرب حد ليا، أنا بحبك وعمري ماهبعد عنك صدقيني لو أقدر أبعد كنت عملتها من زمان.. أنا قضيت ليالي كتير أوي وانا بفكر أنا ليه متمسك بيكي وعايز قربك رغم إنك أوقات كتير بتكوني بعيدة، وياما حاولت أبعد عنك وفشلت.

أتمنى تفشل في دة على طول يا باسل!

وضع باسل يده بشعرها فأرخت رأسها على صدره فضمها بكلتا يديه ثم مسح على خدها ووضع وجهه في شعرها واستنشق من خصلاتها هواءَ العشق وراح يقبل عنقها الطويل وهي تتكسر تحت قبلاته قبل أن تغيب الشفاه في قبلةٍ أيقظت خيولَ الشوق فصهلت الدماءُ في العروق، فخلع عنها فستانها، يمسح وجهه على صدرها ويحرك ذقنه على حلمتيها حتى كاد أن يغشى على الشوق، أمسكته من شعره وشدته بكل ما فيها من رهق: "مش هسمحلك تبعد عني أبدا" وراحت تبوس عينيه وأنفه وخدّيه وتلعق شفتيه بلسانها وتمسح على صدره فوضع كفه على صدرها ودفعها برفق حتى أنامها على الأريكة التي تحويهما ثم حررها من بقايا ملابسها التي تخنق شوقها وتحبس سرها وغطاها بجسده كما يغطي سيلُ البحر جزيرةً كادت أن تموتَ عطشاً ولفّها كما يلف العطرُ جسدَ امرأةٍ تعشقُ أنوثتها وتدركُ سرَ الجَمال، باعد بين ساقيها قليلاً ثم سكنها طويلاً حتى سقى ماءُ عشقِه

شجرتها فانتشت الجذور العطشى وسرى ماؤه في عروقِ الفرس، فشهقَ ثم سكَن.

***

اتصل حكيم بأحمد وأخبره أنه يريده لأمر هام بمكتبه، كان صوت حكيم حازماً وكلماته قليلة تخبر أنَّ وراءه أمراً، وكان أحمد يتوقع ما وراء ذلك الاتصال بعد انتهاء الدورة البرلمانية التي حصد الإخوان فيها ما لم يكونوا يحلمون به يوماً من الكراسي، رغم أنَّ وجودهم الكثيف لم يغيّر من الأمر شيئاً فقد ظلت سياسة النظام كما هي، وإنما غاية ما فعلوه هو إحداث شيءٍ من الجلبة في النظام الصامت وقليلٍ من الصداع في جسد النظام العجوز، فقرر النظام أن يبتر أسبابَ الصداع بدلاً من تناول المسكنات، وكان هذا واضحاً في كلمات الحرس القدامى للحزب الوطني حين خرج كبراؤهم مؤكدين أنَّ ما حدث لن يتكرر مرة أخرى بأي حال وصدَقُوا في ما وعدوا به.

قابل حكيم صديقه القديم أحمد وهو جالس على كرسيه دون أن ينهض لاستقباله، فكانت رسالة الاستقبال مغنية عن كل مقال:

- أهلا يا أحمد أخبارك إيه؟ من وقت انتهاء الدورة البرلمانية محدش شافك ولا سمعنالك صوت، ولاّ إنت بتجهز لانتخابات المجلس الجديدة؟

- أنا فعلا مشغول في التجهيز للانتخابات والدعاية وأعتقد إنك طلبتني عشان كدة.

- شوف يا أحمد إحنا أصدقاء العمر، وأنا دلوقتي بكلمك بشكل شخصي، وفر فلوسك. إنتوا مش هتشوفوا المجلس مرة تانية، المهزلة اللي حصلت الدورة اللي فاتت مش هتكرر..

- دي نصيحة ليا من صديق؟ ولا رسالة للجماعة من النظام؟

- الاتنين. إنتو خدتوا فرصتكم كاملة والوضع المرّادي مختلف تماما.. إنت عارف إن انتخابات الرئاسة فاضل عليها أقل من سنة والنظام مش هيسمح بوجود صداع في البرلمان مع الدورة الرئاسية الجديدة.

الدورة اللي جديدة؟ ولاّ الرئيس هو اللي هيكون جديد؟ هو خلاص جمال نوى؟!

- يا حبيبي جمال هو الرئيس الحقيقي بقاله خمس سنين وانت فاهم دة كويس وكونه يبقى الرئيس بشكل رسمي أو لأ مش هيفرق، السياسة واحدة ومفيش تغيير.

وإحنا فاهمين دة كويس، ومعندناش مشكلة مع جمال ومش هنعارض ترشحه للرئاسة، يبقى ليه إقصاءنا عن البرلمان واحنا بنلعب في المنطقة اللي مبتضرش حد؟

- مينفعش يا أحمد يكون في رئيس جديد والبرلمان مِصدَّعُه، وإنتم مش مضمونين بكل صراحة.. فيه جهات تانية أهم منكم بكتير عاوزين نجنّبهم ومندخلش في مواجهة معاهم.

قصدك الجيش طبعا.. اللي هيرفض وجود رئيس جاي من برّاه.

وجود الرئيس مبارك هيسهل كتير انتقال الرئاسة لابنه. وهيقدر يقنع الجيش، إما إنه يديله جزء من السلطة او شوية امتيازات زيادة.. من الآخر زيتنا في دقيقنا ومش هنختلف مع بعض وهنوصل لحل.

والمطلوب مني؟

المطلوب منكم، مش منك، بلاش الدورة دي مع وعد إن الدورة اللي بعدها هنسيبكم براحتكم، وكمان شوفوا النقابات اللي إنتو عاوزينها والجامعات وهنديهالكم تعويض عن المجلس بس على شرط منسمعش صوتكم لمدة خمس سنين بعدها صرّخوا وهللوا على راحتكم..

إنتم فاهمين الوضع غلط يا حكيم، البلد فيها حاجات كتير اتغيرت وأحزاب كتير معانا وداخلة معانا في شراكة وحركات شبابية بقى ليها أثر كبير.. فوقوا وبصوا

حواليكم الدنيا مبقتش سكوت، ولو جيتم تكوّشوا على كل حاجة هتخسروا كل حاجة.

- أنا قلت اللي عندي يا أحمد وصدقني إحنا مبنخسرش، إحنا بس بنسيب الحبل شوية لكن طرفه دايما في إيدنا ووقت مانحب نشده هنشنق بيه الجميع، وسيبك من الأحزاب والشباب، دول ولا حاجة. واللي قلتهولك قرار النظام ببلغهولك عشان تبلغه للمرشد شخصيا، إحنا مش بناخد رأيكم إحنا بنقلكم عشان مترجعوش وتقولوا إنكم مظلومين.

رسالتك وصلت يا حكيم.. وانا بقول لك بلّغ النظام بتاعك إننا هندخل الانتخابات وعلى كل الدواير كمان، ودة برضو قرار مش استئذان.

***

كانت انتخابات مجلس الشعب عام "2010" موضع تندر الجميع وسخطهم، مجلسٌ ليس به معارض واحد في وطنٍ يموج بالغضب، أي نظام هذا الذي يُجمع عليه الجميع؟ حتى الله هناك من يعارضه! فهل رضيت الأمّة عن حاكمها أكثر من رضاها عن الله؟! هكذا كان يتساءل الشباب على صفحاتهم على "الفيس بوك" و"تويتر" ساخطين على الأحزاب الكسيحة وجماعة الإخوان المهادنة والسياسيين الصامتين، والغضب يسير كنهرٍ من نار تحت الأرض ينتظر أول ثغرة لينطلق المارد الحرون حارقاً كل ما أمامه، فلِكي تبني لابدّ أن تهدم أولاً

وقد حان وقت الهدم، وكانت الثغرة التي انتظرها الجميع، لا من القشرة المصرية وإنما قدمت من أقصى "الغرب العربي"، من تلك الواحة البعيدة (تونس) والتي يشبه حالها حال مصر، فراعها يمسك ذات العصا الغليظة، يقود أمّته من هوان إلى هوان تاركاً شأن بلاده بيد زوجته ورفاقها كأنَّ بلاد العرب تناسخت فولدَت تلك المسوخ الشائهة، وموعد النار قد اقترب، وليس يطهر العفن غير الحريق، وآخر الدواء الكي، فأحرق (محمد البوعزيزي) جسده ليطهر جسدَ أمّة تعاقبت عليها الأمراض حتى أقعدتها وضربها العفن في العمق فوجب البتر.. شبَّ الحريق وعجزت كل خراطيم الإطفاء عن إخماد نار الغضب.. انتفضت تونس عن بكرة أبيها معلنةً أنَّ العرض الرديء حان له أن ينتهي ولن يكتفوا بإسدال الستار بل لابدّ من هدم المسرح كله فوق رؤوس الأوثان الشائخة والضمائر الشائهة.. ما عادوا يختبئون من العصا الغليظة بل امتدت الأيادي العارية لكسر العصا ونزع ناب الذئب، وعادةُ الذئاب أن تهرب إذا زأرت الأسود، فهرب (بن علي). وترددت المقولة الخالدة في أرض تونس "بن علي هرب" فرجع الصدى في أرض مصر معلناً أنَّ الحياة ممكنة وأنَّ الأحلام لا تموت مهما تأخر بزوغ الشمس وأنَّ الأمّة لازالت تستطيع وأنَّ الذين صمتوا طويلاً في مملكة الظلام لا يصلحون لحمل المشاعل، لأنَّ المشاعلَ كانت الأجسادَ الطاهرة نفسها، بينما ضربت العفونة جسد المعارضين القدامى وتلوثت قلوبهم وصاروا ظلاماً في قلب الظلام، والعتمة المُصمتة لا تلِد النور إنما ينبع الوهج من قلبِ الحياة، ولم يكن بعدُ حياً في تلك الأوطان إلاّ زُمر الشباب، فَأشعلوها.. فاشتعلَت.

كان الرفاق المخلصون على موعد مع الأمل، اجتمعوا على مقهى البورصة وعيونهم تضيءُ بنورٍ مختلف وعزمٍ متقد والأمل يدوّي في نفوسهم.

- اللي حصل في تونس معجزة بكل المقاييس يا شباب إمتى بقى ييجي دورنا؟

- ومين قالك إن إحنا هنستنى الدور يا حسن؟ الفيس بوك مولع وصفحة "كلنا خالد سعيد" عاملة دعوة للمظاهرات يوم "25 يناير

واشمعنى يوم 25 يا باسل؟ ليه مش دلوقتي؟

25 يناير عيد الشرطة يا ريمون وعايزين ننكد عليهم، اللي اختار اليوم دة واد عبقري، مفيش حد في مصر إلا طالع دينه من الداخلية، هاتلي حد مشفش الأذى من الشرطة سواء شباب ولاّ أحزاب ولاّ إخوان ولاّ من الناس العادية اللي ملهاش في حاجة، اختيار اليوم دة هيخلي ناس كتير تشارك.. الحكومة كلها طالعة تقولك "مصر مش تونس" لا ياولاد الوسخة مصر كفرانة أكتر من تونس!
أنا هنزل يوم 25 يناير.

بس هننزل فين هو في تجمعات معينة؟

أيوة يا إسلام، الدعوة محددة أماكن للتجمعات وللتحركات في كل الجمهورية، أنا عن نفسي هخرج مع

المجموعة اللي هتتحرك من شارع (جامعة الدول) الساعة 2 الضهر.

- خلاص يا باسل نتقابل كلنا هناك ونخرج سوا ولا إيه يا شباب؟

- تمام نتقابل هناك كلنا.

قالوها كرجلٍ واحد.

***

عند موعدهم اجتمع الأصدقاء بمقهى قريب من شارع جامعة الدول، وغاب عنهم حسن. فسأل باسل ريمون

- حسن مجاش ليه؟ بتصل بيه من الصبح وتليفونه مقفول؟

أنا عارف مجاش ليه، الإخوان أعلنوا إنهم مش هينزلوا المظاهرات وأكيد حسن مشي ورا أوامر المرشد بتاعه.

أحسن إنه مجاش، في داهية هو وجماعته كلها!

- خسارة! الإخوان عددهم كبير يا باسل وخايف المظاهرات تكون هزيلة ومحدش ينزل..

- لا يا إسلام الناس هتنزل، كلها ساعة وتشوف بنفسك. تعرف؟ أنا متفائل بمعاد المظاهرات الساعة 2 نفس التوقيت اللي المصريين عبروا فيه (قناة السويس). وإحنا كمان هنمر يا شباب إن شاء الله.. والله العظيم أنا متفائل.. دة زمن المرور من الدايرة القذرة.. يلا خلصوا مشاريبكم عشان نلحق نكون هناك من بدري.

أذهلَ الجمعُ الرفاق. فكل دقيقة تمر تنضم إليهم أعداد تتزايد والحماس يقود القلوب والحناجر التي تضج بالحياة. اصطفت المظاهرة في خطٍ طويل ينتظمون كأنهم بنيانٌ مرصوص بغير قائدٍ يقودهم فلم تكن لهم من قيادة إلا الإرادة. إرادة الحياة. وليسَ إرادةَ القهر بالنار والحديد. يصرخون على الناس الذين خرجوا إلى الشرفات وينادون عليهم من قريب "انزلوا من بيوتكم جايين نجيب حقوقكم"

النهر يتدفق يزيل كل الجنادل فهذا موعد السيل المنهمر والأرض تضحك تحت الأقدام الثابتة والسماء تشير إلى كتائب الغاضبين أنَّ النصر لكم. اقتَربوا من الجسر المضروب على ظهر (النيل) والشرطة تقف أمامهم تريد خنق الحلم ووأد الحياة. لكن الجسارة لا تلين والعزمُ سيفٌ لا ينثلم لأنهم قرروا فاستطاعوا وأرادوا ففعلوا. ارتفعت هراوات الجنود فارتفعت الصيحات تعلن عن دستورِ الأمل بجملةٍ واحدة تتراص فيها كل الأماني في كلماتٍ أربع: "*عيش.. حرية.. كرامة إنسانية*". حددوا غايتهم بدقة أذهلت الحكماء. لا يبغون إلا أقوات الجوعى وحرية العقول وكرامة الإنسان الذي طالت إهانته على يد البنادق منذ ستين سنة.. انكسر الجندل أمام الإرادة وتراخى الجنود

وارتفع لواءُ الشباب الغضوب، صار النهرُ لهم وليس لسطوة الجنود الغلاظ فتبسمت المياه وانتفض النهرُ يُحيّيهم ولم يعد يجري لمصبه كخانعٍ خاضعٍ بل صار يتدفق كبطلٍ نحو الميدان، فالنهرُ لهم. والحياة.

صرخ باسل: "هو قرار نهر النيل لازم ترحل يا عميل" فرددت الجموع نداءه، وصرخ شاب: "يحيا الهلال مع الصليب" فنهره ريمون: "ليس اليوم للهلال أو الصليب، اليوم لمصر وحدها فاصرخ لها".. بلغوا الميدان المهيب، ميدان التحرير. صاروا قلبَ الدولة، وأقسموا على إسقاط الصنم وكسر القيد والميدان يشهد أنهم وحدهم الصادقون في زمن الكذب والدجاجلة. انطلقت نحوهم سيارة لتفرقهم بخراطيم المياه فوثب شاب من فصيلة الأسود المرقطة فوق السيارة وأمسك بالجندي وأزاحه من فوقها ووجّه الخرطوم ناحية الجنود فلم يعد هناك غير النصر وصيحات الأحرار في كل مكان، اجتمع كثير من الشباب الغاضب حول الجندي الساقط فاستنقذه باسل من بين أيديهم وبعض ممن حولَه وقالوا للغاضبين: "لا ذنب للجندي. ما جئنا للإيذاء بل للحق. هدفُنا ليس الجنود ولكن رب الجنود"، فولّى الجندي إلى كتيبته المخذولة.

ظل الشباب في الميدان حتى الفجر يقاومون قنابل الغاز الذي يريد خنق الحياة لكن رئة الحرية قوية تتنفس حتى لو غاب كل الهواء. لا يموت أبداً من طلب الحياة بعزم ولا ينهزم أبداً من اختار الموت أو الانتصار. كانوا شباباً خارجَ التاريخ وجيلاً علّم كل الأجيال فصهلَ الفرس وشهقَ بالحياة وما عاد يملكه اللجام، فانتصرت الإرادة.

عاد باسل إلى بيته مع ضوء الفجر فوجد الجميع ينتظره على جمر القلق، هرولت إليه إشراق فضمّته إلى صدر الحبِّ الخائف وتبسم له ابنه نورالدين وجدّته منيرة جالسةٌ على كرسيها تتكئُ بذقنها على عصاها في هيئةٍ مهيبة فمضى إليها وقبّل يدها ورأسها فمسحت على وجهه وقالت له:

- أنا مش خايفة عليك عشان صورة جدك (نورالدين) قدامي دلوقتي شايفاه في وشك ونظرته القوية في عيونك، جدك مات عشان كان بيقول (لا)، بس هو كان لوحده، لكن إنت واللي زيك كتير.. متخافوش ياولاد الظالم إيده ضعيفة وعمره ماكان قوي لكن الناس همّة اللي إيديهم بترتعش وقلوبهم متعلقة بالحياة عشان كدة بيستقوى عليهم إنما إنتم جيل ابن موت.. نورالدين مبقاش له حفيد واحد بقى له ألف حفيد.. ربنا معاكم يا باسل.

أمسكت إشراق بيده:

خلّي بالك من نفسك يا باسل وحياة أغلى حاجة عندك إحنا ملناش غيرك والمجرمين دول معندهمش رحمة، دول قتلوا كتير أوي انهاردة في السويس وكنت هموت عليك من الرعب واديك خرجت وعملت اللي إنت عاوزه، خلاص بقى متخرجش تاني وتوجع قلبي عليك.

يا حبيبتي اللي حصل انهاردة مش نهاية المطاف دي يادوب البداية، يا ريتك كنتي معانا وتشوفي بنفسك الشباب

وهمّة واقفين قدام القنابل كأنهم في فسحة مفيش في قلوبهم ذرة خوف.. اللي حصل انهاردة أول ضربة على رأس الصنم واللي جاي هيكون أشد.. بكرة الناس هتعرف إن اللي حصل ثورة حقيقية، في ناس كتير منزلتش عشان كانت فاكرة إن محدش هيشارك.. إحنا اتفقنا على مظاهرات أكبر هتخرج يوم الجمعة.. هتكون جمعة الغضب الكبير.. خلاص يا إشراق الحلم قرب أوي ومش هينفع نرجع بعد مالباب اتفتح.. أنا عمري ماحسيت إني ليا قيمة ولا حسيت إن الحياة تستاهل تتعاش إلا انهاردة، صدقيني يا إشراق إحنا لو رجعنا دلوقتي هنموت كلنا من الكمد والحزن بعد ماعرفنا طعم الحرية. الحرية حلوة أوي يا إشراق وتستاهل.

***

كان أحمد غاضباً جداً عند اجتماع مكتب الإرشاد لعدم مشاركة الجماعة في مظاهرات الخامس والعشرين من يناير، وظهر غضبه جلياً في كلماته المسددة أمام الجميع:

إزاي بنقول إننا جماعة معارضة، بل والمعارضة الوحيدة، وإحنا الوحيدين اللي في البلد اللي مبنعارضش؟! في إضراب ستة إبريل قلنا مش هنشارك.. في أغلب تحركات حركة كفاية مبنشاركش.. في 25 يناير نزل شباب البلد كلها إلا شبابنا، دة معناه إيه؟!

أراد الدكتور عصمت أن يرد عليه فأشار له المرشد بالصمت وتوجه لأحمد بالكلام بنفسه:

- يا أحمد إنت عضو في الجماعة بقالك أكتر من أربعين سنة ومفهمتش سياسة الجماعة، وسنّك عدى السبعين لكن للأسف بتفوتك الحكمة.. يا أحمد كل الأحزاب والجماعات اللي بتسمي نفسها معارضة أصحاب أفكار لا تناسبنا.. إحنا بنشتغل لله قبل ما نشتغل للدنيا والمسلم كيّس فطن ولازم يعرف قوة عدوه وإزاي يعامله.. الرسول عليه الصلاة والسلام عمل هدنة مع المشركين عشر سنين ودي حكمة مش ضعف، وإحنا مبنشاركش مع الناس دي عشان نوصّل رسالة صريحة للنظام إن أي معارضة من غيرنا هتكون معارضة ضعيفة بلا أثر، وبكدة هيعرف قوتنا ويعملّنا ألف حساب، فناخد اللي إحنا عاوزينه من غير ماندخل في مواجهة صريحة.

- عفوا يا فضيلة المرشد لكن دي طريقة مش نبيلة أبدا! إزاي نسيب الشباب دول يواجهوا النظام بكل جبروته ببسالة وثبات وإحنا اللي نحصد ثمرة دمهم ببلاش؟

- إحنا مقلناش لحد يعارض ولا يواجه ولا طلبنا حاجة من حد.. والأرض لله يورثها لعباده الصالحين في النهاية..

الصالح هو اللي يواجه الظلم بشرف مش ينسحب وقت المعركة.

- يا أحمد لو قالها غيرك كان بقالي معاه شأن تاني ولكن إحنا مش ناسيين مواقفك فَالزم عقلك.. إحنا مشاركناش في 25 يناير لأننا متصورناش أبدا إن المظاهرات هتكون بالقوة دي ومع ذلك مفتناش كتير، إحنا هننزل بعد بكرة في جمعة الغضب ووجودنا هيفرق كتير..

يا فضيلة المرشد البطل هو اللي بيحارب في ميدان مش مضمون يتساوى فيه النصر والهزيمة مش اللي يحارب لما يضمن النصر، بس أحب أقولك إحنا فاتنا كتير يا فضيلة المرشد.. كتير أوي..

***

ضمته شمس إلى صدرها بعدما أفرغ كأسه بكأسها وهي تهدهده كطفل وتمسح على شعره:

إنت بطلي يا باسل، فخورة بيك وباللي عملتوه وحاسة إن حق الناس اللي غرقت من أربع سنين ومحدش جاب حقهم ربنا بعتلهم اللي يجيب حقهم.. إنتم عملتوا المستحيل!

الحقوق كتير أوي يا شمس وهييجي يوم نحاسبهم على كل الجرايم، من أول حق العساكر الغلابة اللي راحو بلاش في 67 والناس اللي إتعذبت في سجن "ناصر والناس اللي ماتت بالسرطان اللي الدولة هرت جسمهم بيه بقالهم عشرين سنة، وظُلم الشرطة والناس اللي

إتسحلت في الإقسام، والكنايس اللي كل سنة تتفجر ومحدش عارف مين اللي بينكد عليهم كل عيد.. فيه ألف حق في البلد دي لسة مرجعش وقسما بالله لنصحّي الأموات من قبورهم ونجيب التاريخ يقف قدامنا وهنحاسب الجميع، هنحاسب اللي ظلَم واللي سكت على الظلم. بكرة هيكون يوم مشهود يوم الغضب الحقيقي. خلاص يا شمس المارد خرج من القمقم ومحدش هيقدر يحبسه تاني.

أنا خايفة أوي عليك يا باسل، لكن مش هقلك متنزلش بكرة، لازم تنزل عشان النور اللي شايفاه في عيونك دلوقتي مينطفيش تاني.. فاكر لما كنت بقلك جواك إنسان جميل محدش شايفه، الإنسان دة طلع من بعد مانزلت المظاهرات ولو قلتلك متنزلش هيختفي تاني.. البطل اللي جواك خرج وحبك لبلدك وللناس أحياك. إنزل يا باسل بكرة، ولو مرجعتش الحزن هيحرقني لكن هكون فخورة طول عمري وهنام مبتسمة وأنا بقول لنفسي البطل دة حبيبي، وأنا هنزل معاك. قل لي هتكون فين بكرة؟

بلاش إنتي يا شمس، المواجهة بكرة هتكون صعبة أوي ومش هكون حُر في تحركاتي وانتي موجودة من قلقي عليكي..

- عشان خاطري خليني أشارك معاكم. إنت مش طول عمرك بتقول لي إني مصرية لكن إتولدت في سوريا بالغلط؟ أهي جات الفرصة عشان أثبت إني مصرية فعلا، وبعدين إنت ناسي إن أنا مصورة صحفية ومتعودة أكون موجودة على خط النار؟

- خلاص يا شمس هتصل بيكي الصبح وأنا نازل..

فأعادته لصدرها وهي تقول:

- بكرة لنا وعد مع الحياة.

***

ودّع باسل زوجته إشراق بقبلة على جبينها وضمها لصدره قائلاً "متخافيش عليا يا حبيبتي" واحتضن ابنه نورالدين وقبّل رأس منيرة ثم كان أمام مسجد (مصطفى محمود) قبل موعد الصلاة بساعة. ولولا أنه اتفق مع ريمون على المكان الذي يلتقيان فيه لما التقيا، فقد انقطعت كل خطوط الهواتف في محاولة من الدولة لقطع شرايين التواصل بين الشباب، لكن انقلب السحر على الساحر ونزل الجميع ليطمئنوا على بعضهم فجمعتهم الأرض بدلاً من شبكات الجوال.

عندما وصلَا إلى المسجد استغربَا وجود حسن، وكان ريمون أول من حدثه بغضب:

إيه؟ المرشد إدالك الإذن؟

حَنى حسن رأسه لا يجد ما يرد به، فألقى إليه باسل بطوق النجاة بقوله:

مشَ وقت الكلام دة يا ريمون، المهم إن الراجل جه يشارك.. إنت نازل بشكل فردي يا حسن ولا شباب الإخوان نازلين؟

لا والله مش لوحدي كل شباب الجماعة وستاتهم ورجالتهم نازلين في كل الجمهورية..

دة حلو، إحنا محتاجين لكل الناس ربنا ييسر الحال وينصرنا جميعا يا رب!

وقف باسل وحسن للصلاة خارج المسجد الذي امتلأ عن آخره ومن ورائهم جاء الآلاف حتى وجد ريمون نفسه حبيساً ببين صفوف المصلين فركع كما يركعون وسجد كما يسجدون كلٌّ يصلي لله الذي يعبُد يَدْعوه بإيمانه لا بديانته إنما بأحلامه لأمّته، كانوا يصلون من أجل أن يرحم الله مصر.

تحركت الجموع تهدر في يوم الغضب الأكبر يرددون آية لم تنزل في التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن لكن نزلت من السماء إلى القلوب بغير مَلَك يحملها لكن حملَتها القلوب الصادقة: آية الهدم. آية المعول الذي كسر رؤوس الأوثان. آية السيف الذي لا يعرف الغمد. آية الوحي الأخير: (الشعب.. يريد.. إسقاط النظام).

ضرب الجنون رأس الجنود وهم يسمعون الحُكم الأخير من حناجر الغاضبين والقولُ الفصل يُرعد قلوبهم، فأطلقوا كل ما في صدورهم من حقد بغيض فانهمرت السماء بالقنابل وطاش الرصاص في كل اتجاه يحصدُ أزهارَ الحرية ويسفكُ دمَ الأحرار لكن ما عادت السدود قادرةً على مواجهة النهرِ الصائل. انطلقت العربات المصفحة تسحق الأجساد والرصاص يظلل كل الرؤوس لكن النهرَ لا يخاف. مات الخوف. والعزائم تصدح: "اقتلونا يا جند الطاغية وسنرى من يصرخ أولاً". وفوق الجسر كانت المواجهةُ مرة أخرى لكنها أشد مرارة وأفدح ثمناً فالمئات يسقطون، والإرادة لا تسقط. وانطلقت الذئاب تنهش قافلةَ الحرية والأبطالُ ثابتون لا يتزحزحون عن غايتهم رغم مناجل الموت التي تحصد كل الرقاب، وعند اللقاء ينكشف الجَسُور من الجبان المَهين، ففرّ الجنود أمام الأمّةِ المنتفضة وتخبطوا كأنهم جراد منتشر.

جاوزَ الأبطالُ الجسر، وانطلق أذان المغرب يشارك الغاضبين غضبهم، حتى السماء قد ثارت، إشتد جنون الرصاص، وأصابت شظية فخِذ باسل فلم يكترث لها، واختبأ ريمون في ظهر رفيقه يحتمي به من الموت المنتشر، فحماه ولم يتردد، فلم يكن يراه جباناً يفتدي نفسه بصديق العمر ولم يرَه نذلاً بل رآه شقيقاً جديراً بأن يحتمي بشقيقه.

أبصر باسل سيارات "الأمن المركزي" تهرول هاربة فأمسك بأقرب حجر على ضفة النيل وقذف الجند المنهزم وهو يصرخ "موتوا ياولاد الكلب". فغاب الرفيق عن الرفيق، عاد ليبحث عن ريمون ويصرخ عليه كأم فقدت وليدها ولكن لا جواب.. لا بأس فهناك طفلٌ

آخر تاه منذ ستين سنة أَولى بالبحث عنه! وطنٌ كطفلٍ شريد وطفلٌ في ثوبِ وطنٍ جريح.

انطلق الشباب كأنما روح القدس تناديهم وترشدهم ليوجّهوا الغزوة إلى بيت الصنم، مبنى "الحزب الوطني"، فلما اقتربوا منه صرخوا وهم يقذفونه بالحجارة "الشعب يريد إسقاط النظام"، كان باسل في أول كتائب الغزو التي دلفت إلى معبد الأوثان لتهدمه، وانطلق الشباب في كل الأدوار يحرقون جثة العفن التي أصابت الوطن بالمرض، يقتلون الموت الذي أماتَ الأمل ونحر عُنق الأحلام. اتجه باسل إلى التكييف المركزي وأحرقه فاشتعلت النيران في كل شيء ورأس الوثن تهاوى وأحلامُ الطاغية تتقوض ليرقد في السعير.

غادر الشباب بناية الظُلم وتركوا النار تكمل المهمة. واتجهوا إلى بيت عزّتهم الذي يشهد أنهم أمّةٌ غلبت كل الأمم حيث يرقد التاريخ شاهداً أنَّ هذه أمّة جديرة بالحياة فأحاطوا بأسوار "المتحف المصري" يحمونه بأجسادهم، فبيتٌ للحرق وبيتٌ للحياة.

عند الفجر توافدت سيارات الجيش المؤتمن، وحده الجيش كان موضع ثقة الغاضبين ويرَون فيه الوالد الحامي حتى لو سكت طويلاً. هكذا كانوا يظنون، وبعض الظن إثم!! فرددوا مقولتهم التي ظلت تجوب جنبات الوطن من أقصاه إلى أقصاه: "الجيش والشعب إيد واحدة". ارتجَّ النظام وتساقطت أطرافه التي ضربها الجذام، ثمانية عشر يوماً والموت يسرح في جسد العفن حتى سقط الرأس أخيراً في (الحادي عشر من فبراير)، لكن بقي له ألف ذيلٍ يترصّد في الظلام. نزلت البندقية من فوق العرش فتنفست الأحلامُ نسائم الحياة.

ذهبت إشراق ونورالدين إلى ميدان التحرير وإشراق تمسك يد ابنها وتقول له: "أبوك وصحابه وقّعوا النظام وغيّروا البلد يا حبيبي أبوك بطل". التقاهم باسل فاحتضن زوجته في قلب الميدان كأنه لا يحيط به ملايين المصريين، ضمها كما لم يضمها من قبل وقبّلها على جبينها وهو يقول لها: "عملناها يا إشراق خلاص مصر حرة" فبكت على صدره ورددوا مع الجموع "ارفع راسك فوق إنت مصري". رفعوا رؤوسهم في وطن لم يكن يرضى إلا بإحناء الرؤوس، فتحرروا وحرروه. قضَوْا نصف الليل مع ملايين الفرحين، كانوا جوعى للبسمة وعطشى للفرح، فسقاهم الأحرار وأطعموهم. لم تذق الأمّة فرحة قط مثلها منذ عبر جنود مصر قناة السويس ليهزموا العدو. أربعون سنة من الأحزان قد مرت على هذه الأمَة المسكينة ففرحوا حتى أسكرتهم السعادة وغفلوا عن ذاك الراصد المتربص في الخفاء وهو يكيد لهم ما لم يكونوا يحتسبون.

عاد باسل وأسرته للبيت فاستقبلَتهم الجدة الوقور:

- خلاص يا باسل رفعتوا الراس؟

خلاص يا جدتي: الشعبْ. أسقطْ. النظامْ.

نطقها ببطءٍ شديد كلمة كلمة..

مات كتير يابني؟

- كتير أوي يا جدتي. بس دمهم مرحش هدر. كلنا خرجنا وإحنا عارفين إننا شايلين روحنا على كفنا. شفنا الموت

ألف مرة يوم جمعة الغضب ويوم موقعة الجمل وفي كل لحظة كنا بنشوف الموت في الميدان من غير خوف لحد ما هزمناهم..

ومين اللي بقى في إيده الأمر والنهي يا باسل؟

مبارك خلاص سقط والمجلس العسكري هو اللي مسك البلد.

المجلس العسكري هو اللي بقى في إيده الأمر؟

- أيوة يا جدتي. ماهو لازم حد يمسك البلد ومفيش غير الجيش هو اللي ممكن يعمل دة.

وقعتوا راجل الجيش عشان تسلّموها للجيش؟!

يا جدتي إحنا عملنا كل حاجة.

لأ يا باسل.. لا يابني إنتم كدة معملتوش أي حاجة.!

***

جلست خديجة وبجانبها حسام وابنهما كمال وأسرته يشاهدون محاكمة القرن، كانت تراقب ملامح زوجها الجبار وهي تتقلص من فرط الألم وهو يرى القائد الأعلى حبيساً خلف القضبان والقاضي ينادي: "المتهم الأول محمد حسني مبارك" ليرد الحاكم الأكبر بوهنٍ خاضع: "أفندم" الرئيس المهيب، يرقد كسيحاً بلا حول ولا كبرياء،

يحبسه القفص ويحيط به الجنود لا ليحمونه ولكن ليحرسوا محبسه. التمعت عيون حسام واختنقت، فقال كمال:

- كل ظالم وله نهاية، ياما كان في ناس ورا القفص دة محبوسة ظلم!

إنت فرحان يا كمال إن رئيسك محبوس؟! البلد من بعده مش هتقوملها قومة!

يعني هو كان معيشنا في النعيم يا بابا؟ ماالبلد كانت بقالها تلاتين سنة حالتها ضنك!

- على الأقل كنت عايش في أمان لكن دلوقتي بقالنا أكتر من سنة فوضى وهرج.. حط عربيتك في الشارع مش هترجع تلاقيها. شوية عيال مش عارفين همّة عاوزين إيه كل يوم يحتلوا ميدان ويوقفوا حال البلد، والإرهابيين بقى لهم أحزاب ومسكوا البرلمان، بص على المجلس بقى كله دقون وكروش لا يفهموا في سياسة ولا نظام!

- ماالجيش بتاعك هو اللي عملّهم الأحزاب وخرّجهم من السجون يا حسام، وهو اللي سابلهم كل حاجة، مجلس شعب وشورى وبكرة يمسكوا الرئاسة..

إنتي مش فاهمة أي حاجة يا خديجة. الجيش بيعمل الصح.

ولما هو بيعمل الصح زعلان ليه من وجودهم؟

همّة مش صح. لكن وجودهم صح.

يعني إيه يا بابا؟

- مين اللي عمل الهوجة اللي بتقولوا عليها ثورة دي، مش الشباب بتوع حركة كفاية وستة إبريل والعيال بتوع الفيس بوك؟

- أيوة همّة اللي عملوا الثورة..

فاكرة يا خديجة لما السادات خرّج الإخوان من السجون عشان يخلّصوا على الشيوعيين وبعد كدة رجّعهم السجن تاني؟

بس دلوقتي الوضع مختلف، المرادي الإخوان كانوا مع الشباب دول في الثورة.

الإخوان مبيحبوش حد معاهم. بس إنتم مبتفهموش. بصي كويس وإنتي تفهمي، أكتر حد بيدافع عن المجلس العسكري دلوقتي همّة الإخوان وأكتر حد واقف في وش الشباب الثوري بتاعكم همّة الإخوان.. أنا هفهّمك يا خديجة، عارفة ليه راعي الغنم وهو بيرعى غنمه بياخد معاه الكلب؟ مش عشان يحمي الغنم من الديب. أصلًا مفيش ديب. اللي بيربي الغنم هو الراعي واللي بياكل الغنم

هو الراعي، ولما شوية خرفان يخرجوا من الصف بيسيب عليهم الكلاب عشان يرجّعوهم تاني من غير مايرفع عصايته ودة اللي عمله المجلس العسكري، وبعد مايخلصوا دورهم ترجع الكلاب ورا من تاني..

- لا يا حسام، الشباب دول فاهمين كويس همّة بيعملوا إيه وبيعملوا اللي همّة عاوزينه، بدليل إنهم سجنوا مبارك.

- مين قالك إنهم سجنوا مبارك؟ فاكرة من 25 سنة لما كنت في الخدمة وقامت هوجة "الأمن المركزي" سنة "86"؟

- أيوة فاكرة كويس طبعا، وقتها رقوك لواء.

يومها قلتلك الدولة زي سِيرك كبير والحاكم هو مروض الأسود ولما أسد يزأر الحارس اللي جنب القفص بيرقدّه بطلقة واحدة عشان العدوى متوصلش لباقي الأسود وتعرف إنها أسود.. واللي حصل في 25 يناير خلَى العدوى توصل للكل، والأسود كانت عاوزة تاكل المهرج، فالحارس قال لها"لأ."، "أنا اللي أقطع راسه بإيدي"، عشان لو الأسود عملتها هي اللي هتحكم كل شيء، لكن لما الحارس هو اللي يعملها يبقى هو صاحب الفضل والأسود تبوس إيده كمان وترجع القفص وهي مبسوطة وبتضحك،

ويفضل الحارس في إيده الأمر والنهي وإيده على الزناد
يشيل مروّض ويحط مروّض ويفضل السيرك منصوب!

***

جلس باسل أمام متجره يحتسي قهوته ويدخنُ الشيشة تائهاً في أفكاره لا يشعر بحركة الناس المتسارعة من حوله. يتنفسُ الفراغ وسطَ الزحام الذي يحيط به. منفصلاً عن كل ما حوله. يسائل نفسه ترى هل ضاع كل ما حلمنا به هل مات الشباب هدراً وراحت دماؤهم بغير ثمن؟ لأجل من كنّا نضحي؟ لأجل الناس؟ كيف وهم أنفسهم من يرجُموننا في كل مكان ويرَوْن أننا أفسدنا البلد وجئنا بالخراب وأننا أعداء الوطن! كيف يقتلنا من كنا نموت من أجلهم؟ لماذا كلما حاولنا إفاقتهم يأبون إلا السُكر وكلما أردنا إيقاظهم يتمسكون بالغفلة؟.. نحن لم يكن ينقصنا شيء لم نكن نبحث عن عمل ولا مال إنما كانت ثورتنا لهم ولأجلهم. فأيُّ عبثٍ هذا؟ هل كنا مغفلين إلى هذا الحد ساذجين إلى تلك الدرجة؟ هل نحن وحدنا المبصرون الذين يعرفون الحقيقة فنسعى من أجلها أم أنَّ هؤلاء الناس جميعاً على حق ووحدنا كنا العميان؟ هل تحركنا لأنَّ قلوبنا حرة أم حقاً كانت هناك آيادٍ خفية تُحركنا دون أن نشعر؟ لماذا يتراجع الجميع عن كل شيء. كل يوم يصدِمنا رمز من الرموز كنا نحسبه درعاً للحق فإذا به يصبح سيفاً للباطل؟ هل نحن الحق فعلاً؟ وهل هم الباطل حقاً؟ أم أننا في غيٍّ بعيد وضلالٍ معتم؟ ما عدت مؤمناً بشيء ولا عدت أثق بأحد ليت أنَّ كل هذا لم يحدث أبداً.

ظلت الأفكار تأكل قلبه حتى انتشله اِتصال ريمون:

- أيوة يا باسل، إزيك؟

- الحمد لله يا ريمون أنا تمام، خير، إنت مرحتش الشغل ولا إيه؟

- لا أنا في المدرسة، بس عندي حصة فاضية ومش لاقي حاجة أعملها فقلت أكلمك..

- يعني بتفتكرني في وقت فراغك بس وحياة أمك؟ على أي حال كويس إنك اتصلت أنا كنت ناوي أكلمك، مراتي كانت بتكلمني إمبارح عايزة مدرس إنجليزي لنورالدين يجيله البيت، ماتيجي تديله إنت الدرس أحسن؟ ومتخافش هحاسبك وهتاخد فلوسك على الجزمة..

- جزمة إيه يابني دة إنت حافي أساسا.. هو مش نورالدين في أولى ثانوي دلوقتي؟

أيوة..

طيب يا فالح ماانت عارف إني بدرس لإبتدائي بس!

يا عم ماهو كله إنجليزي ماتيجي إنت وخلاص..

- لا مش هينفع أنا مش مذاكر مناهج الثانوية، بس هكلملك مدرسة زميلتي شاطرة تجيله..

- طيب بس متنساش وحياة أبوك.

***

استغربَ أحمد تلك الزيارة الصباحية من أنس الذي لم يرَه منذ قيام الثورة، دخل أنس يتكئُ على عصاه وكأنَّ الشيخوخة التي ابتعدت عنهما قد هجمت لتستعيد سطوتها كاملةً على الشيخين اللَّذينِ جاوزَا السبعين من عمرهما.

تعرف يا أحمد أنا آخر مرة جيتلك البيت هنا كانت من أكتر من خمسين سنة؟ إنت الوحيد اللي مغيرتش بيتك ومتغيرتش.

- كلنا إتغيرنا يا أنس. صحيح البيت زي ماهو لكن البيوت بأصحابها، ولما بيتغيروا روح الجدران بتتغير.. صدقني أنا بحس بغربة البيت كل ما حاجة فيا بتتغير..

- أنا بسأل نفسي بعد السنين دي كلها إيه اللي إحنا عملناه؟ والإجابة دايما بتكون جملة واحدة: "ولا حاجة" بقينا مشاهير وعندنا فلوس وجاه، كل واحد في مكانه أنا بمشاريعي وبأيام الحزب ولاّ إنت بشركاتك ومكانتك في الجماعة أو حكيم الله يرحمه برئاسة الجورنال والمكتب السياسي أيام الحزب، ومع ذلك لما كنا نتقابل كنا بنحس إننا كلنا فقرا وكلنا لابسين هدوم مش بتاعتنا ضيقة علينا وبتخنقنا عشان كدة كنا دايما متوترين ومش حاسين إننا أصحاب العمر وبنتعامل كأننا أعداء..

- عندك حق يا أنس، السياسة غيرتنا كلنا..

- مش السياسة اللي غيرتنا يا أحمد، محدش بيدخل البيت إلا إذا كان بابك مفتوح.. وإحنا اللي فتحنا الباب لما طمعنا ونسينا أصلنا، عارف يا أحمد أنا الأيام دي مبيغبش عن بالي (نورالدين) الله يرحمه، يوم موت نورالدين كلنا متنا، كل واحد فينا شاف مصير صاحبه وخاف يبقى زيه فجري، جري زي المجنون يرمي نفسه في حضن أي شيء يبعده عن حقيقة المراية اللي حطها موت نورالدين في وشوشنا وهو بيوضح عجزنا وبيفضح جبننا، نورالدين كان قادر يختار الموت ولا إنه يتغير لكن كلنا قررنا نتغير عشان منشوفش موته إحنا كمان.. أنا سافرت وبقى همي الفلوس ودخلت الحزب وأنا لاأعرف سياسته ولا كنت في يوم بفهم في السياسة أصلاً وإنت جريت على جماعة لاإنت منها ولا هي منك وبقيت واحد من أركانها وإنت جواك مش مؤمن بيها، دايما كنت بشوف إنك مش راضي عن اللي بتعمله رغم دفاعك عنها، وحكيم الله يرحمه رمى نفسه في حضن السياسة ونسي إنه شاعر في الأصل وبقى متوحش أكتر منهم لحد ماإترمى في السجن بعد الثورة، يومها أنا زورته هناك، حضنّي وبكى، كانت أول مرة في حياتي أشوف دموع في عيون حكيم.. الدموع بتجلي الروح.. كانت عيونه حلوة يا أحمد.. قالي نفسي أرجع بالزمن وأكتب شعر يقراه

نورالدين بصوته ونضحك من قلوبنا.. ياريت نرجع ونصلّح كل اللي كان.. قالي لو خرج من السجن هيسيب السياسة ويكتب ديوان في الحب، لكن الموت مادّلوش فرصة، مش لإن القدر ظالم لكن لإن الحياة بتدينا الفرصة مرة واحدة، وبتدينا الحب مرة واحدة.. الحب اللي طول عمرنا بندور عليه في كل اللي حوالينا ولما بييجي بنبعد عنه، وساعتها الفرصة مبتتكررش تاني أبدا.. حكيم قلبه مكنش قادر يتحمل الحب بعد ماحشاه بالقسوة وعشان كدة مات بالسكتة القلبية.. أنا جايلك يا أحمد عشان أقول لك لو تقدر ترجع زي ماكنت يا صاحبي إرجع تاني، إنت الوحيد اللي قدامك فرصة لإن قلبك عمره ما ملاه الكره ولا سلّمته للحياة الوسخة اللي عشناها كلنا، كان دايما النور جواك حتى لو كان ضعيف، يمكن دة لإنك أكتر واحد عشت مع نورالدين وكنت آخر واحد معاه قبل موته وشبعت من الضيَ اللي بيشع من عيونه عشان كدة الزمان مقدرش يهزم كل الخير اللي جواك!..

مبقاش في العمر يا أنس اللي ممكن نصلح بيه اللي فاتنا.

لا يا أحمد. لو فاضل يوم واحد بس يبقى لسة فاضل كتير ويستحق تحارب عشانه. أنا جيت أسلم عليك لإني خلاص قررت أسافر. أنا خلاص صفّيت كل حاجة ليا وفرّقت الفلوس على بناتي يعيشوا بيها همّة وأولادهم،

وخدت اللي يكفيني الأيام اللي فاضلالي وهطلع على فرنسا، أنا مش هعيش هنا تاني.

- ليه يا أنس؟ دة حتى الظروف رجعت زي ماكانت قبل الثورة وتقدر تِرجع الراجل المهم تاني.

- أنا مش عايز أكون الراجل المهم، أنا عايز أكون الراجل المرتاح الطيب، اللي ولا يظلم ولا يتظلم. بس يا رب ألاقي حد يدفنّي وقت موتي في غربتي، ياريت يا أحمد لما يبلغك موتي إبقى إقرا الفاتحة على روح صاحبك. أنا صليت على نورالدين فوق قبره، إبقى صلي عليا يا صاحبي حتى لو كانت بينا بحور وبلاد، صدقني، صلاة الصاحب بتوصل.

***

التقى الرفاق الأربعة على مقهى البورصة كعادتهم، لكن شيئاً ما قد تغير وبدا واضحاً في كل لقاءٍ يجمعهم، فغالباً ما ينتهي باختلافٍ يصل إلى حد رفع الأصوات وفض المجلس. كانوا جميعاً مكلومين قلوبهم منكسرة عيونهم معتمة بلا ضوء يوقظ وهج الحياة. يحاول باسل على الدوام أن يهدِّئَ غضبهم تجاه بعضهم ويبلُغ بهم نقطةَ الوسط وأحياناً يكون هو الأكثر تطرفاً والأشد غضباً وانفعالاً، فانتكاسة الثورة أصابتهم جميعاً في مقتل. كان حسن أسرعهم غضباً لشعوره بالظلم من رفاقه قبل النظام لأنهم جميعاً نزلوا مُلبين دعوة (تمرد) فتظاهروا في (الثلاثين من يونيو) لإسقاط حُكم الإخوان. وفي

كل لقاء يبدأُ حوارهم من حيث انتهى في آخر مرة وينتهي إلى المصير ذاته: خصام وغضب.

سأل حسن باسل:

- إيه يا عم؟ مش سامعين لكم حس يعني ولا مظاهرات، وآخرك كلمتين على الفيسبوك تكتبهم وتنام؟

- وإيه المطلوب مني يا أستاذ حسن؟ أروح أوّلع في نفسي في التحرير؟

مظلنش إنك تقدر تعملها يا باسل، الحاجات اللي فيها موت دي محتاجة ناس تانية..

ناس تانية زي مين يا حسن؟ زي الإخوان بتوعك؟ اللي كل جمعة يعملوا مظاهرة ساعتين وبعدين يجروا زي الفراخ أول مالشرطة تنزل؟

على الأقل بينزلوا يا ريمون وبيقولوا للظلم لأ.

حدجه باسل بنظرة صارمة:

مين اللي بيقول للظلم (لأ) يا حسن؟ إنت مصدق نفسك؟ يا أخي أنا كل ماأتعاطف مع الإخوان وأسمع منك الكلام دة إنت أو أي إخوانجي برجع وأقول إنكم جماعة مفيش منها رجا.. إنتم عاملين زي "الجيتو" اليهودي قافلين على نفسكم وليكم عالم معزول

مصدقين فيه روحكم وفاكرين إنكم شعب الله المختار، والحقيقة إنكم إنتم اللي ضيعتوا الثورة من أولها لآخرها بس للأسف عميان ومش عاوزين تشوفوا الحقيقة!

إحنا اللي ضيعنا الثورة يا باسل؟ أومال مين اللي بيدافع عنها دلوقتي غيرنا؟

دة الكلام اللي بتضحكوا بيه على نفسكم. والله ماحد ضيعها غيركم، عارف من إمتى؟ من وقت ماالقيادة بتاعتكم راحت "لعمر سليمان" تعمل معاه صفقة على حزب والشباب واقفين في التحرير بيقولوا "الشعب يريد إسقاط النظام" وإنتم بتتفاوضوا معاه، ومن بعد ماالمجلس العسكري ما مسك وطلع واحد منكم يقول "شعار (يسقط حكم العسكر) أضرّ بالثورة"، ومن وقت ماقلتم "اللي يقول (نعم) للدستور يدخل الجنة واللي يقول (لا) يبقى مع الكفار الوحشين"، من وقت ماالجيش هرس المسيحيين تحت الدبابات وإنتم أوسخ من الإعلام طلعتوا تقولوا يستاهلوا إزاي يضربوا الجيش؟ تقدر تقولّي المسيحيين ضربوا الجيش إزاي؟ ولما سبتونا لوحدنا في شارع (محمد محمود) والشرطة تقتل فينا زي الفراخ؟ ويوم مجلس الوزراء؟ إيه؟ نسيت البنت اللي الجيش عرّاها وسحلها وإنتو قلتوا "إيه اللي ودّاها هناك؟".. ولاّ الرئاسة اللي قلتم مش عاوزينها ورجعتم في كلامكم وكوشتم على كل حاجة ورميتوا نفسكم على

سرير العسكر والشرطة وبقيتم تحاربوا الثوار وعاوزينهم يخرسوا؟ كل دة عادي بالنسبالكم وغلطات عادية، إنما لما إحنا خرجنا في (30 يونيه) بعد ماكفرنا منكم بقينا مجرمين وخونة؟! فوووق يا عم لوجه الله وشوف مين اللي وصلنا لحكم العسكر تاني!!

والناس اللي ماتت في (رابعة) و(النهضة) دول بالنسبالك إيه؟ كانوا بيهزروا ولا همّة قتلوا نفسهم زي ماالإعلام قال لكم؟ هو إحنا مش مصريين يا أخي ولا اللي ماتوا في "محمد محمود" شهدا واللي ماتوا في "رابعة" ولاد كلب؟ ولا هتعمل زي ريمون وتقول همّة السبب في موتهم؟

لا يا حسن، أنا مقلتش إن همّة السبب في موتهم وعمري ماصدقت الإعلام، متقوّلنيش اللي مقلتوش..

يا حسن ريمون عمره ماقال كدة. كلنا عارفين إن اللي حصل في "رابعة" مجزرة بكل المقاييس لكن الفرق إنهم ماتوا عشان (مرسي) لكن اللي ماتوا في "محمد محمود" و"مجلس الوزراء" كانوا بيموتوا عشان الثورة ودة فرق كبير أوي، تعرف يا حسن، ومتزعلش من كلامي، اللي حصل دة بيخليني أفهم ليه ربنا اسمه الإله العدل، إنتم قلتم على اللي ماتوا في "محمد محمود" قتلوا نفسهم وسبحان الله نفس الكلام إتقال عليكم، قلتم على متظاهرين "مجلس الوزراء" البنات بتنام مع الشباب في

الخيام ونفس الكلام بالنص إتقال عليكم إن السوريات بيناموا مع شباب الإخوان في "رابعة" ومشغّلين جهاد النكاح، ربك يمهل ولا يهمل..

- وإنت صدقت كلامهم يا باسل؟

لا يا صديقي مصدقتش. ودة الفرق بينّا وبينكم.

عرفتوا أنا ليه بقيت "لاديني"؟ عشان العهر اللي بيحصل دة! مفيش أفسد الثورة غير كلمة حرام وحلال والجنة والنار، ثورة قامت عشان نبقى دولة مدنية محترمة، وبعد مانجحت الدقون والكروش اللي عايمة في الفتة طول عمرها فجأة كل واحد فيهم عمل نفسه "جيفارا" وواحد يقول "غزوة الصناديق" والتاني يقول "يوسف العصر خرج ليحكم مصر والجامع يحشد والكنيسة تحشد.. رجعونا للعصور الوسطى.. جهاد وحرب صليبية.. لما خربوا كل حاجة الله يلعنهم!

هاهاها "الله يلعنهم"؟ يعني مؤمن بالله أهو يا عم إسلام!

- يا حسن إنت جاهل، "لاديني" مش معناها ملحد، أنا مؤمن إن في ربنا لكن مفيش الأديان والهسس بتاعكم دة اللي بتموّتوا نفسكم عشانه لما ضيعتم الثورة زي ماضيعتم كل حاجة..

- لسة يا إسلام.. صدقني لسة الحكاية مخلصتش..

- إيه يا باسل؟ إنت متخيل إن في ثورة تاني هتقوم؟ "قائد الجيش" بقى الرئيس ومعاه الشرطة والقضاء وكل مفاصل الدولة، والأهم من كدة إن الناس خلاص زهقت وراضية بالوضع ومش طايقة حتى تسمع كلمة ثورة تاني.. إنسى يا صديقي.. بخ، خلصت خلاص.

- معرفش يا إسلام لكن إيماني إن لو إحنا منستاهلش وكلنا مزيفين فدم الشهدا يستاهل وعمر موتهم ماكان مزيف واللي ماتوا عشانه هيتحقق ولو بعد ألف سنة! ولسه عندي أمل بس المرادي مش فينا إحنا. الأمل في الأطفال اللي شافوا الثورة وفتحوا عيونهم على الحرية. إحنا أولاد الجيل المهزوم ومكنش قبلِنا حد بيفتح بوقه، لكن الاطفال دول شافونا وإحنا بنقول (لأ) وكلمتنا ملِت روحهم ومفيش حاجة هتزيف وعيهم زي ما ألف حاجة زيفت وعي جيلنا، ودول الأمل! مهما عدت سنين محدش هينسيهم صورة (ميدان التحرير) ولا هيشيل من قلوبهم كلمة (إرحل) وهييجي يوم يكبروا ويكملوا اللي إحنا بدأناه.

يدّينا ويدّيك طولة العمر يا عم الحج.. المهم قولّي، ميس (أميمة) عاملة إيه مع ابنك؟ إياك تيجي ناحيتها يا باسل! أنا عارفك زنديق، ودي أعز صديقاتي.

لا ياعم ريمون متخافش، أنا مليش دعوة بيها، هي صحيح صاروخ أرض جوّ بس إشراق واقفة عليها حرس جمهوري ممنوع الإقتراب أو التصوير. معرفش ليه يا أخي مراتي بتشك فيا؟!

- فعلا عندك حق مع إنك طاهر شريف وشمعتك قايدة!

تعرف ياض يا ريمون أكتر حاجة بتعجبني فيك إنك دايما واثق فيا! إنت فعلاً تستحق لقب "صديق الكفاح والنكاح"

***

لم يعرف ريمون أبداً أنه حين أرسل أميمة لتشرح لابن باسل دروسه سينشرح قلبُها لأبيه ولم يعرف أنه قدّم المقصلة التي ستقطع عنق صداقة العمر بيده، فقد كان ريمون يحبها في صمت ولم يجرؤ يوماً أن يخبرها بمكنون صدره، فكيف لفتاة مسلمة أن تفتح قلبها لحب رجل مسيحي، ولذلك طوى ريمون قلبه على حبه بصمتٍ أليم لا يملكُ حق البوحِ أبداً.

حدث ما كان يخشاه ريمون. كانت أميمة سهماً حطم دروع باسل. ليس لجمالها وحده، ولكن لشخصيتها القوية وجسارتها في مواجهة ما تراه خطأً، لم تستجب لغواية الطاووس سريعاً بل قاومت نظراته إليها طويلاً وصمّت آذانها عن صوته الذي يغزو روحها كلما جمعهما حديث عابر عن دروس نورالدين، حتى كانت عثرتها حين اتصل بها باسل وطلب مقابلتها بعيداً عن درس ابنه، ولا تدري لماذا

وافقت لكن حدث ما أراده القدر الذي لا يرد سهامهُ المسددة قلبٌ مهما تترس بالهروب، فأسرها الطاووس. كان صدقه أمامها ونبراته التي لها أثَرُ الخدر يلتفان حول قلبها. أخبرته أنها تراه بوضوح رغم أنها لا تعرف عنه الكثير لكن قلبها يخبرها أنه رجل غير آمن وأنَّ عيونه سفينٌ للغرق ومرفأٌ للهلاك، فأقرّ بكل ما رمته به. وكم يكون الصدق وسيلةً للغواية والتحذيرُ من المخاطر أفضل طريقة لنصب الفخاخ!!

أخبرها عن نزواته، وعن عشيقاته اللواتي ما عاد يذكر أسمائهن. أخبرها عن كل مخازيه، وأتبَعَ اعترافاته بأنه رأى النور في عينيها، وأبصر الشفاء لكل أمراضه والغفران لكل قبائحه على يديها. كلماته لاسعة وصدقه مربك، فقد تعرّى أمامها فما عادت قادرةً على الإمساك به، فأيّ امرأةٍ في الكون لا تملك أبداً أن تقسو على رجلٍ يعترف بهزيمته أمامها.

انفتح له قلبها الذي يراودها عن حبه منذ عرفته، وتهاوت الحصون وتعددت اللقاءات، وفي كل مرة تأتيه لتحسم الأمر وتنهي تلك المأساة، مرة لأنه زوج وهي لا تستطيع أن ترتبط برجل لا تمتلك منه أكثر من النصف فتقول له: "كُلُّ كُلِكَ أريد وأنت لا تملك من ذاتك إلا نصفها". ومرة تقوّي نفسها بأنها لن تكون تلك الحقيرة التي تختطف رجلاً من زوجته وابنه حتى لو كانت تحبه، وكثيراً ما تحاول الابتعاد لأنه رجلٌ مجبولٌ من خطر ونزواته لا تقفُ دونَها السدود. لكنها كلما رأته تنهار كل الخطط وتنفصم كل العُرى فلا تمتلك إلا أن تقول له: "اشتقتك حد الموت يا حبيبي"

***

لم تشعر شمس بالخوف يوماً من هجر باسل لها كما أصبحت في الفترة الأخيرة. فقد أصبح دائم التهرب من لقائها وعندما يزورها يعاملها كضيفٍ يشعر بالغربة شاردٌ على الدوام يخبئُ في قلبه سراً رهيباً تتمنى ألا يعترف به أبداً فيقتلها وتتمنى أن يبوح به فتستريح.

ما عاد له صخبه القديم في لقاءاتهما السريرية. وكانت تلك طبيعته كلما عرف عشقاً جديداً فيفقد جسدُه الرغبة في كل امرأة. كأنه يريد الإخلاص لحبه الجديد. أو احترام عشقه القديم. بدا تغيّره جلياً فلم يعد يصب زجاجة من البيرة على جسدها كله ثم يقوم بمسح جسدها بلسانه جزءًا جزءًا كما كان يفعل. وما عاد يغيّر أوضاعه الحميمية معها. وقد كانت لقاءاتهما عزفاً بين جسدين ورقصةً وثنية. فيضاجعها كسيدة للغجر وتضاجعه كرجل الغاب المتوحش. ما عاد أي شيء من هذا وغابت كل الأشياء الجميلة لكن الأكثرَ إيلاماً لها كان غياب كلمة "بحبك" التي لم يعد يقولها أبداً ولو على سبيل الدلال منذ شهور طوال. فقد كان للكلمة قدسيةٌ لديه لا تهتز أبداً. فلا ينطقها إلا إذا استقرت في قلبِه حقيقةُ الحب. وقد صار قلبُه مستقراً على حب أميمة.

واتتها الجرأة لتُنهي كل الآلام التي ما عادت تحتملها فواجهَته في لقائهما الأخير:

باسل إنت عارف قد إيه بحبك. وعمري ماقيدت حريتك ولا طالبتك بشيء. لا طالبتك بجواز ولا حتى طلبت تخلصلي! دة أنا لما كنت بشوفك عينك من واحدة قاعدة معانا كنت بتلكك بأي حاجة وأقوم عشان أسيبك تشبع

منها عشان عارفة إن أنا اللي في قلبك.. كنت بتحكيلي عن كل غرامياتك وأنا بسمع وساكتة.. دة أنا يا أخي كنت بضحك معاك وإنت بتحكيلي عن واحدة نايمة معاك ومش عارفة تتعامل مع اللي بتعمله فيها، ومكنتش بضحك عشان فرحانة كنت بضحك عشان إنت فرحان وأنا قلبي بيتحرق من الحسرة والغيرة وبكتم في نفسي وبقولّها كفاية إنه معاكي. بكتم عشان متحسش إني قيد عليك ولا بخنق حريتك. أنا سبتلك كل شيء ومطلبتش أكتر من قلبك.. لكن دلوقتي حاسة إن دة كمان ضاع مني.. إنت بتحب يا باسل! قولّي زي ماكنت بتقولّي دايماً كل حاجة، مش أنا صاحبتك قبل ماأكون حبيبتك؟ ولا بلاش حبيبتك دي، دة إنت بقالك شهور مقلتش يا حبيبتي ولو مرة واحدة. ريحني يا باسل وقولّي، أنا شمس حبيبتك وسرّك اللي عمري ماقسيت عليك. مين اللي دخلت قلبك غيري؟

- هقولّك يا شمس كل حاجة، أنا عارف إني حقير ولا عمري أخلصتلك، لكن أنا لما قلتلك بحبك والله كان حبك مالي قلبي ولسة ماليه. حبنا حب إتنين عشاق بس كل واحد بيعامل حبيبه زي مابيعامل صاحبه قابلُه بعيوبه وعمره مابيفكر يغيرها، وأنا بيني وبين نفسي ساعات كتير بتمنى إني أتغير، والحقيقة لا إنتي ولا إشراق رغم حبكم ممكن تقدروا تغيروني، مش ضعف في حبكم، بالعكس، دة من

شدة الحب في قلوبكم مبتقدروش تمنعوني حتى عن الغلط، وأنا محتاج حد يقدر يحبني وفي نفس الوقت يوجهني، صدقيني مهما كانت شخصياتنا قوية ساعات كتير بنحتاج يَدّ قوية تدلنا على الطريق..!

- ويا ترى لقيت الإيد دي، اللي حسيت معاها إن قلبك هيعرف الاستقامة؟

- أيوة.

أحب أعرف مين هي؟ مين هي اللي حسيت معاها بالحب اللي ممكن يغيرك؟

- مش هتفرق يا شمس مش مهم هي مين..

- لأ هتفرق يا باسل، من حق المقتول يعرف اتقتل بإيه..

- أميمة، مدرّسة نورالدين ابني، معرفش إيه اللي حصل ولا إزاي حبيتها، لكن مبقتش أقدر أتنفس من غيرها، بقيت بحس إني عاوز أصونها في غيابها زي حضورها.. غيرِّت فيا حاجات كتير وعشان كدة مكنتش قادر أقول لك "بحبك" عشان محسش إني بهينك بالكلمة وأنا بقيت مرتبط بغيرك..

- لا يا باسل إنت بطلت تقولها عشان متهناش هي، مش أنا. ولو اللي بتقوله صح يبقى يا بختها لأنها قدرت تخلي باسل اللي عمره ماحب يعرف يعني إيه حب!

- أنا مش عايز أخسرك يا شمس أرجوكي!

- أنا عمري ماهبعد عنك ولا أقدر، ودايما هكون موجودة، أنا حبيتك حب مفتوح بدون شرط ولا قيد وإديتك كل اللي عندي وكنت أتمنى أديلك أكتر وعمري ماهيشبع قلبي من حبك غير لما أديلك روحي نفسها.. لكن إنت اخترت طريقك وأنا زي ما أنا متغيرتش، وهسيبك حر ومش هقيّدك زي ماوعدتك من سنين في أول مرة قلنا فيها لبعض كلمة بحبك. مهو اللي بينّا برضو كان حب يا باسل!

***

عاشت إشراق سنواتَ عمرها تمني نفسها بأنَّ باسل سيتغير ذات يوم، ويزيد حُلمها كلما كبر ابنهما الذي أصبح في الثانوية العامة، فلا يمكن لأبيه أن يواصل جموحه الصاخب وقد صار ابنه رجلاً، تحلم أن يردعه اللون الأبيض الذي ألقى التحية على رأسه فبدأت الشعرات البيضاء تغزو مفرَقه لتخبره أنه قد كبر على مثل هذا وحان لقلبه أن يكف عن مراهقته، وكثيراً ما كانت تتعمد أن تحدّثه عن تقارب نورالدين و(خديجة) ابنة كمال التي تأخذ دروسها معه، فقد كانا معاً في "الثانوية العامة"، لتلفت نظره أنَّ ابنه كبر جداً حتى صار على وشك

الحب، لعله يفهم أنَّ ماكانَ ماعاد يصلُح أن يستمر. أحياناً تشعر أنه تغيّر بعد الثورة، فما عادت الاتصالات الليلية توقظ خوفها وما عاد يتأخر كعادته وتشعر أنَّ نزواته إن لم تكن قد انتهت فهي على الأقل قد تقلصت وحان لها أن تنتهي لتُطوى فصول تلك المهزلة للأبد، وتقبضَ على حب زوج طال هروبه لسنوات.

تحطمت كل أمانيها عندما رنَّ هاتفه وهو نائمٌ مخبراً عن قدوم رسالة تحمل معول الهدم لكل أحلامها. تجاسرت على فتح الرسالة وهي التي لم تفتش في أيٍ من أغراضه أبداً، لكن القدر يقود الجميع نحو الميدان المفتوح ليبلغ الوجعُ قمته وحينها يمكن للجراح أن تتطهر تحت النار. فتحَت الرسالة لترى اسماً لم تتوقعه أبداً أن يزورَ قائمة العشيقات، إنها أميمة، تلك الفتاة الخلوق التي أعطت الدروس لابنها شهوراً عندما كان بالسنة الأولى من الثانوية ثم انقطعت عنه فجأة بلا مقدمات ولا مبررات.

كانت الرسالة حارقة لقلبِ زوجة حالمة: "باسل أنا بحبك ومش قادرة أبعد عنك وإنت مبتدينيش فرصة آخد قراري.. مش هقدر أقبل عرضك بالزواج رغم إني عمري ماتمنيت راجل في حياتي غيرك بس مش هقدر أكسر قلب مراتك.. أرجوك يا باسل ساعدني على البعد وبلاش تحاصرني، أرجوك

سقط قلبها تشعرُ بشظايا روحها المتكسرة تتهاوى. المهانة أليمة والذل كبير! أتشفق عشيقتك على زوجتك؟ إلى هذا الحد أصبحتُ هيّنة عليك؟ إلى هذا الحد لا أساوي عندك شيئاً ؟ كيف ترضى لي يا حبيبي هذا الهوان؟ وا ذلاه يا باسل، حطمتَ قلبي وأذللتني!

اتخذت قرارها. حانَ للحجارة المتدحرجة أن تسكنَ جوف الهاوية لينتهي السقوط المرير، لن يستمر ذاك العرض الرخيص بعد اليوم.

أيقظَته من نومه الطويل عندما طلع النهار، أيقظته بقلب امرأة عشقت لكنها لا تزال قادرة على اتخاذ قرار، أيقظته لتخبره أنَّ صبرها كان عشقاً وليس ضعفاً. وضعت الرسالة أمام عينيه وقالت له:

- بلّغها إن المشكلة محلولة، والبني آدمة اللي خايفة تكسر قلبها خلاص هتسيب كل حاجة، قل لها تطّمن، قل لها مراتي خلاص حررتني من كل حاجة. خلاص يا باسل الكاس إتملت ودة نهاية اللي ما بينا.

- إشراق أنا هفهمك...

- متتكلمش يا باسل، أنا فاهمة كل حاجة، طول عمري فاهمة، بس إنت اللي عمرك مافهمت وغرورك بيعمي عيونك عن إنك تشوف وجع غيرك أو حتى تتخيل إن في ناس بتتوجع بسببك.. من انهاردة أنا مش مراتك. لكن إنت هتفضل جوزي.

- يعني إيه يا إشراق؟!

- إحنا هننفصل يا باسل، وهاخد ابني وأروح عند أهلي، بس أرجوك كل اللي هطلبه منك بلاش تطلقني، عاوزة

أموت وأنا على ذمتك إنما مش هنعيش مع بعض ولا هيجمعنا مكان ولا هيكون ليا عليك أي حقوق.. اِطّمن.

- اللي بتقوليه دة مستحيل! أنا بحبك وعمري ماهبعد عنك.

- إنت طول عمرك بعيد عني يا باسل، واللي بقولهولك دة قراري الأخير. أنا طول الليل بفكّر في كل اللي حصل بينّا من يوم ماااتجوزنا، قاعدة ببصلك وبفتكر كل مرة خنتني فيها، ووالله مادخل قلبي ذرة كره لك ولا حقد عليك.. أنا قريت رسالة حبيبتك الجديدة ومش زعلانة حتى منها لأنها إنسانة مسكينة ملهاش ذنب إنها حبتك، ورغم حبها مرضيِتش تجور على حقي، كل الناس حفظتني إلا إنت يا باسل، خلاص كل شيء إنتهى.. أنا مرضيتش أصحيك من أول ماقريت رسالتها عشان كلامي يكون من قلبي وعقلي، والاتنين دلوقتي مقتنعين بفراقنا. أنا هاخد نورالدين وأمشي حالا.

لا يا إشراق، دة بيتك إنتي ونورالدين، أنا اللي همشي. نورالدين لازم يتربى في بيته ومع أمه، أنا عمري ماحاولت أتدخل في تربيته لأني عارف إني خطر عليه وإنه هيتعلم منك إنتي كل حاجة حلوة، فبلاش تخليه يشوفك وانتي بتنسحبي، لازم تفضلي في نظره الأم القوية.. أتمنى

تسامحيني.. أنا اللي همشي دلوقتي وهتطمن عليكم من وقت للتاني..

روح يا باسل، ربنا يسامحك ويعلّم قلبك القناعة..

وضعت إشراق رأسها على صدر منيرة وبكت حتى كاد قلبُها أن ينخلع ومنيرة تمسّد على رأسها حتى تُفرغ كأسَ روحها من كل المواجع:

متخفيش يا إشراق، باسل حفيدي أنا اللي ربيته زي ماربيت أبوه وأنا اللي أعرف جوهره، باسل محبش حد غيرك لكن نبضُه العالي هو اللي محيره والعشق اللي جواه بيفيض على كل اللي حواليه، هو بيصب الحب عند غيرك لكن النبع طالع منك إنتي، باسل زي البدر لازم يكمّل دورته ومش هيرتاح إلا لما يجرب كل اللي يخوفه، هو مش بيخونك عشان محبكيش، لا يابنتي باسل بيعمل كل دة لأنه حبِّك وخايف الحب يقيّد قلبه فبيفرّق دمه في ألف مكان عشان محدش يملك قلبه، لكن هيتوب ويرجع لنبعه، بس لازم يدوق الوجع ولازم يدوق كسرة القلب، ووقتها هيعرف قيمة قلبه، ويوم مايعرفه هيرجع ويدّيكي الحب اللي عمره ما إداه لغيرك.

أشرقت روح إشراق لكلمات منيرة، فهي تدرك أنَّ تلك العجوز التي لا تتكلم إلا نادراً، إذا تكلمت حسمَت كل شيءٍ ونطقت بالحق الذي لا تكذّبه الأيام أبداً. فابتسمت وسط كل الدموع.

لم يقْوَ باسل على مواجهة جدته قبل مغادرة المنزل، كان يعلم أنها لن تتكلم لكن نظرة واحدة منها كانت كفيلة بتعريته حد الخزي أمام نفسه، لذا حزم حقيبة صغيرة تحوي ملابسه وخرج إلى الشارع لا يدري إلى أين يذهب فعالمه يتهاوى أمام عينيه. ما عاد قادراً على مواجهة آلام زوجته ولم يكن يستطيع الذهاب إلى شمس تلك الحبيبة الأخرى التي حشا قلبها بجمر خيانته لها، كانت شمس له مثل إشراق، يعشقها بطريقة لا يدرك سرها، كانت صديقته وحبيبته ولذة جسده التي لا يُشبعه سواها لكن ينقصه شيء معها، دوماً كان ينقصه شيء.. يسأل نفسه بقلب مرتعب هل ستكتمل النواقص عندك يا أميمة؟ وحدها فعلَت ما لم تفعله امرأةٌ من قبلها، فصارت تشغل خياله في خلوته وصخبه وفي نومه وصحوه، تلك التي استطاعت أن تعلمه لأول مرة ماذا تعني كلمة (إخلاص)، فظن أنها الحب الذي يبحث عنه طيلة عمره.

استقر قراره على أن يكون مبيته في متجره، يقضي يومه في العمل وحالما ينتهي يقابل أميمة فتمضي الساعات الطوال دون أن يشعُرَا بها. أخبرها عن انفصاله عن زوجته فملأ الرعب وجهها وانهارت باكية:

- أرجوك إوعى تعمل كدة! أنا عمري ماهسامح نفسي لو سِبتها، أنا في الكام شهر اللي عرفتها فيهم وأنا بدرس لابنك حبيتها وحسيت إنها أجمل إنسانة قابلتها في حياتي. أنا سبت درس ابنك عشان مكنتش قادرة استحمل نظرة الطيبة والوداعة اللي في عيونها، كنت حاسة إني بخونها

في كل مرة بشوفك أو أقابلك. إوعى تسيبها يا باسل إوعى تعمل كدة وإلا أنا اللي هخرج من حياتك أقسم بالله..

- خلاص يا أميمة، دة قرارها مش قراري، صدقيني إشراق تعبت معايا كتير ودة أحسن لها، ولو بعدتي مفيش حاجة هتتغير، أرجوكي متخلينيش أحس إني خسرت كل شيء، الأسرة والحب، إحنا لازم نتجوز وفي أسرع وقت.

- بلاش يا باسل نتكلم في دة دلوقتي أرجوك، وإدي لنفسك فرصة تصلح علاقتك بيها..

أنا بزورهم كل يوم وبتطّمن عليهم، ونورالدين كبير كفاية عشان يفهم، وأنا كلمته في كل حاجة وشرحتله وعرّفته إن انفصالي عن والدته بسببي أنا، مش هي، وإن أنا اللي كنت وحش، والولد كان فاهم من قبل حتى ماأكلمه.. جوازنا مش هيفرق حاجة يا أميمة، بالعكس هيخليني مستقر أكتر وأقدر أراعيهم.

لم تمرّ أشهر حتى استأجر باسل شقة بحي (السبتية) لتكون قريبة من بيته ومن محل عمله وتزوج أميمة التي ملأت كل حياته حتى أنه ترك إدارة المحل للعاملين معه، وأصبح نادراً ما يغادر شقة أميمة، ولا يترك البيت إلا عندما تذكّره أنه منذ أيام لم يزُر زوجته وابنه، وتذكره دوماً بأن يحمل الهدايا إليهما. كان لا يستريح قلبها إلا عندما يَصِلهما رغم غيرتها الشديدة ورغبتها في امتلاك كلِّ حبيبها لكنها كانت

تقمع تلك الغيرة حتى لا تفقد إنسانيتها إذا قصرّ زوجها بحق أسرته بسببها، فكانت تعوض بهذا شعورها بوخز الضمير الذي كان لا يفارقها.

صارعت أسرتها طويلاً لتقنعهم بزواجها من رجل له زوجة وولد، وواجهت الكثير في سبيل حبها له، حتى أنها أرادت أن تترك العمل بالمدرسة حتى تتفرغ لحبيبها فلا يشغلها عنه شيء، كانت تسقيه العشق ليلاً ونهاراً، يتضاجعان كالطيور مرة بعدة مرة ولا يشبعان من بعضهما أبداً فتقول له: "لن أترك فيك نصيباً لأحد"، وآثارُ كلٍّ منهما على جسد حبيبه، خربشاتها ترسمُ خريطة عشق فوق ظهره وعضّاته بادية على صدرها كوشم وثنيّ.

تعلمت التدخين من أجله حتى تشاركه كل ما يحب واحتست الخمر حتى تشاركه السكر ورقصت له وقرأت عليه الروايات التي يحبها. عشِقَته كما لم تعرف النساء العشق أبداً وأحبها كما لم يعرف الحب مُحاربٌ قبله، زهد في كل النساء دونها وغيّر كل عاداته القديمة وصار عشقها هو حدود عالمه الذي لا يريد أن يرحل عنه أبداً، كف عن نزواته وصعلكته وشروده وما عادت أي امرأة تستطيع أن تجذبه خارج دائرة أميمة التي أصبحت تحتويه وهو الذي كان يستعصي على كل الدوائر قبلها، إلا شمس وحدها من كانت تستطيع أن تجتذبه من دائرة أميمة، ولو مرة كل حين، فلم يستطع باسل قطع علاقته بشمس أبداً.

شمس كانت سحره الذي لا ينفك وجنّيته التي تتلبسه وغجريته التي وشمَته فلم يَمْحُ وشْمَها الماء ولا النار ولا حتى عشقه لأميمة. كان يزورها على فترات متباعدة يستعيد معها روحه الشرود وطبعه

المتوحش فرغم حب إشراق الوديع وعشق أميمة المتدفق لكنه لم يشعر يوماً أنَّ امرأة تفهمه مثل شمس. كُنَّ ثالوثه المقدس، وأركان مثلثه الذي ينهدم إذا غاب عنه ضلع.

لم تقبل إشراق خياناته الأبدية ولم ترضَ أميمة إلا أن يكون كله لها، وحدها شمس أدركت سر النسر فيه وعرفت أنَّ القيد قاتِلُه وهي لا تريد له إلا الحياة. فكان يحطّ عندها لأنه يدرك أنها لن تقص جناحيه حين يقرر التحليق نحو الأفق، بل ستصفق له: "طِر يا نسري الجميل وحين تتعب تعال إلى صدري لتستريح"

***

أصبح لقاءُ باسل بريمون قليلاً حد الندرة، ليس لانشغال باسل وإنما لابتعاد ريمون الذي صعقته علاقة صديقه بالمرأة الوحيدة التي أحبها، وكانت فجيعته الكبرى عندما علم بزواجهما، فما عاد يحتمل لقاءَ صديق عمره وشقيق روحه وفي قلبه جمرة حقد عليه. عندما اجتمعا ذات مرة أخرج ريمون ما كان يخفيه رغماً عنه:

إنت ليه مقلتليش يا باسل إنك كنت على علاقة بأميمة؟

وهتفرق معاك إيه؟ يعني أنا كنت بحكيلك على كل واحدة عرفتها إمتى؟ أو ليه؟

- يعني أميمة زيها زي أي واحدة من اللي عرفتهم؟؟

لا طبعاً يا ريمون، أميمة حاجة تانية. أميمة هي الإنسانة الوحيدة اللي حبيتها وغيّرت من نفسي عشانها، وعشان كدة إتجوزتها.

- وإنت مصدق إنك فعلا غيّرت نفسك ياباسل؟ أومال علاقتك بشمس اللي مستمرة لحد انهاردة دي تبقى إيه؟

شمس مش واحدة من اللي كنت بعرفهم. شمس حاجة تانية، مش هقدر أفسرلك لكن أنا مش هقدر أبعد عن شمس أبدا..

أميمة حاجة تانية.. وشمس حاجة تانية.. وأم الخلول حاجة تانية.. ألف واحدة وواحدة وكلهم حاجة تانية..؟ إنت عايز إيه يابني إنت مبتشبعش أبدا؟!

- إيه الطريقة دي يا ريمون؟ إنت عمرك ماكلمتني كدة؟!

حقك عليا يا سيدي بس صداقتنا تديني الحق إني أنصحك..

وهي صداقتنا دي مظهرتش غير بعد ماإتجوزت أميمة؟ ماإحنا طول عمرنا أصحاب وعمرك مانصحتني أبطل علاقاتي ولا عمرك كلمتني بالعنف دة.

- ماشي يا باسل. حقك عليّا ياسيدي، أنا آسف. والأحسن نغيّر الموضوع عشان أنا كلمت إسلام وحسن وزمانهم جايين..

اشتعلت نيران الحقد والغيرة في قلب ريمون بعدما استقالت أميمة من المدرسة بعد أربعة أشهر من زواجها وما عادت الصداقة قادرةً على مواجهة الحريق. يسأل نفسه "إلى هذا الحد سيطرت عليها يا باسل؟ تفرغَت لأجلك حتى من عملها ومستقبلها؟".

كان ريمون الوحيد الذي يعرف كل أسرار باسل والوحيد الذي يعرف زيارته الأسبوعية لشقة شمس، تلك الزيارة التي تبدأ بعد الظهر كل ثلاثاء وتمتد حتى غروب الشمس، فاتخذ قراره أنه حان وقت غروب شمس باسل من عالم أميمة.

حاول كثيراً أن يردع نفسه عن تلك الخيانة البشعة لأعز صديق، لكنه كان يخدر نفسه بأنَّ ما سيفعله لأجل شفاء باسل من نزواته، ولأنَّ إنسانيته تأبى أن ترى فتاة كأميمة مخدوعة في زوجها ثم يتركها، وأنَّ ضميره يرفض أن تقومَ حياةُ إنسان على الخديعة. كان يحتاج لألف قصة يتلوها على آذان "الصداقة حتى تذهب في نومٍ عميق ليستطيع أن يفعل ما أضمره. فيضع السم في كأس الصديق.

اتصل بأميمة وبدا متلعثماً عند سماع صوتها وهي ترحب به:

أهلاً يا ريمون، إزيك؟ فينك يابني؟ محدش سامع صوتك ولا زورتنا مرة واحدة من يوم ماإتجوزنا، يا سيدي لو مش عاوز تزور زميلتك فتعال عشان تزور صاحبك!

أربكته الكلمات التي تخبر عن زوجة سعيدة، فحزمَت سعادتها تردده، وأسقطت الغيرة آخر درع للصداقة:

أميمة إنتي عارفة إننا زمايل من سنين وبعتبرك زي أختي، وباسل أخويا، ومُنايا علاقتكم ببعض تكون سليمة وقايمة على نضافة.

نضافة؟ قصدك إيه يا ريمون مش فاهمة؟

مش عارف أفهمك إزاي.. بس أنا شايف حاجات كتير اتغيرت في باسل على إيدك ماعدا حاجة واحدة بس فاضلة، نفسي تتغير هي كمان عشان تعيشوا مع بعض سُعدا زي مابتمنالكم..

- حاجة إيه يا ريمون؟ اتكلم بوضوح من فضلك!

باسل بيخونك مع واحدة بيعرفها من زمان، وبأمانة هو قطع كل علاقاته من وقت ماعرفك إلا العلاقة دي.. وعشان كدة بكلمك عشان نفسي يتغير ويقطع علاقته بكل الماضي..

- واحدة يعرفها من زمان؟! مين دي يا ريمون؟

واحدة صحفية سورية عايشة في مصر من سنين، اسمها شمس، دايما بيتقابلوا كل تلات في شقتها..

- كل تلات؟ يعني هو عندها دلوقتي!

- أيوة..

أعطاها ريمون العنوان تفصيلياً، وتحركت أميمة والظلامُ يملأُ عيونها والنارُ تشتعلُ في جنبات روحها، كيف يخونها وهي التي تركت كل شيء لأجل رجل متزوج؟ كيف يجحد كل حبها وتضحياتها؟؟

ضغطت على جرس الشقة، ففتحت لها فتاة باذخة الجمال ترتدي "روب" فوق قميصٍ بَلله العرق، يخبر عن ملحمة كانت تدور فوق ذاك الجسد..

- إنتي شمس؟

أيوة. مين حضرتك؟

أنا مرات الراجل اللي نايم في سريرك جوة..

ثم دفعتها ودخلت مباشرة إلى غرفةٍ تعرفُ رائحةَ الجسد الذي بداخلها فكم كانت تطالبه ألا يتعطر أبداً لأنها تحب رائحة جسده واليوم صارت رائحة الجسد المعشوق هي دليلها إليه لتبصر فجيعتها حية أمامها وزوجها يرقد عارياً في سرير أخرى. اعتدل فزِعاً فأشارت بكفها: "زي ماانت". وغادرَت كل شيء.

اتجهت لبيت أبيها وظهرُ العشقِ مُنحَنٍ، تسير وجراحها تنزّ، تخاف، تنكمش، فقد لسعها العشق وسَفَك دمها. لم تعد تريد أي شيء، لا تلومه ولا تلوم نفسها. فالذئبُ لا يُلام على النهش والحَمَلُ لا

يُلامُ على البراءة، وكلّ ميسرٌ لما خُلق له! أرسلَت له رسالة على هاتفه: "بعد ساعة تكون عندي في بيت أبويا"

كان هناك عند الموعد، يدرك أنَّ أميمة ليست المرأة التي تعطي فرصتين أبداً. كانت حازمةً في كلماتٍ قليلة:

إنت راجل بلا شرف. شقتك عندك وفيها كل حاجة بتاعتي. مش عاوزاها ولا عاوزة عيني تلمح أي أثر لشيء شاركتني فيه. طلقني حالاً.

- يا أميمة.....!

مش عاوزة أسمع منك ولا كلمة، غير كلمة واحدة هتقولها حالاً. إنت عارفها كويس.

أدركَ أنها المقصلة التي لا فرار منها وأنه القرار الذي لا تدركه رحمة الاستثناء. وأمام عينيها المسددة بنظرةٍ ميتة لم يستطع سوى أن ينطق بالكلمة المنتظرة: "إنتي طالق يا أميمة".

***

كانت الضربة بالغة القسوة وباسل يدرك أنَّ السهم الغادر خرج من قوس ريمون، كانت الجريمة تحمل بصمته بوضوحٍ أزال الارتياب ورسّخ اليقين، قد غدره صديقه فليس سواه يعرف أميمة ولديه رقم هاتفها. وليس سواه يعرف شمس ويعرف مسكنها فقد كان يوصله كثيراً إلى بيتها.. كل شيء واضحٌ لكن مالم يكن واضحاً أبداً لماذا فعلها ريمون؟ ما الذي دفعه إلى التضحية بصداقة العمر مع أوفى صديق

كان يحميه بجسده يوم الرصاص في جمعة الغضب؟ لماذا انهار الولاء وانهدم جدار الأمان وهُما اللَّذان صمدَا أمام كراهية أبويهما المتطرفين فلم يُفلح نهرهما وضربهما في وأد صداقتهما ووقفت الكراهية عاجزةً عن تحطيم الجسر بين صديقين أحبَّا بعضهما عمرًا؟ لم يجد باسل الإجابة أبداً. فرغم كل ما بينهما إلا أنَّ ريمون لم يفصح له مطلقاً عن حبه لأميمة. ففَعَلَ الحب في الصديقين ما عجزت عنه الكراهية.

صمتَ باسل عن كل الحياة، وزهد في كل ما حوله. ما عادت له عشيقات قط. وما عاد يزور شمس، ولا يقترب من بيته إلا ليلقي لهم بالمال ثم يولّي، وما عاد يلتقي الأصدقاء ولا يرد على اتصالاتهم، جميعهم يتصل به يومياً مرات كثيرة ولا يرد عليهم. وحده ريمون لم يتصل أبداً فكان صمته أكبر دليل على إدانته. لم يحاول باسل أن يحاكمه أو يحاسبه على ما فعل. فالضربة كانت أقسى من الرد والخيانة أبشع من إمكان محاكمتها.

أصبح يشعر بعبث كل شيء، لا شيء يستحق ولا شيء صواب: الحب أكذوبة كبرى، والثورة نهرُ دم يصب في العدم بلا جدوى لا يروي ماؤها شيئاً ولا يدفع ثمن دمائها إلا قتلاها. والصداقة وهم كبير. الآن فقط فهم لماذا اتفقت الأمم على أنَّ الخِلّ الوفي أحد المستحيلات الثلاث.

و هناك ريمون يتقلب في سعير الألم يأكله الندم على خيانته لأقرب الناس إليه لا يدري كيف فعلها ولا كيف تجاسر على أن يلقي بصاحبه بين براثن العذاب فجعله يخسر حبه بعدما خسر أسرته. لماذا عرّاه في البرد وتركه منفرداً في مواجهة العواصف التي صنعها له

بنفسه؟ أغلَق عليه غرفته لا يأكل ولا يشرب صامتًا لاعنًا نفسه تسقط روحه قطرةً قطرة. الخيانة أليمةٌ جدًا على قلب المغدور لكنها أشد ألماً على قلب الغادر، الآن أدرك لماذا شنق يهوذا نفسه بعدما قبض الثلاثين قطعة من الفضة. فهل كان حب أميمة يستحق تلك البشاعة التي ارتكبها؟ نفسُه عاريةٌ أمام عينيه يمسك السوط بيده فيجلدها كل ساعة ألف مرة غير قادر على المغفرة لنفسه.

أراد أن يهرب من كل شيء فما عاد يطيق كل ما حوله، أصبح يرى نفسه كذاك القسيس الذي كان يأمر رعيته بالزهد في الحياة بينما يركب هو أحدث السيارات وأغلاها ثمناً، ويأمُر رعاياه أن يديروا الخد الأيسر لمن ضربهم على الأيمن وأن يبارِكوا لاعِنيهم ويصلّوا من أجل الذين يظلمونهم بينما لم يتردد عن كيّ خادمته بالنار لمجرد أنه فقَدَ ورقة بعشر جنيهات كان يضعها تحت الوسادة. أصبح يرى نفسه أكثر حقارةً ونفاقاً من كل هؤلاء الذين عاش حياته يحتقرهم ويكره كذبهم، فقرر أن يترك كل شيء. حزم حقيبته وسافر إلى خاله الذي يعيش في كندا تاركاً مصر مخلفًا وراءه روحَ صديقه يشويها السعير والألم فما عاد يمتلك القدرة على مواجهة عينيه وهو يسدد له نظرةً مهزومةً كأنها تقول: "لماذا فعلت ما فعلت؟" فغادر مصر ولم يعد أبدًا.

ظل باسل لأكثر من عام لا يغادر متجره قط، يقضي فيه نهاره عملاً وليله بين النوم والعذاب، ساكِناً يمارس موته حتى جاء ذاك اليوم الذي كانت فيه انتخابات الدورة الرئاسية الجديدة، وكما كان متوقعاً فاز "الرئيس" بالدورة الثانية كما فاز في الأولى في لجان انتخابات فارغة، خرج الإعلام ليهلل بعدها أنَّ المصريين خرجوا

بالملايين لانتخاب منقذهم، ورئيسهم المحبوب، ليفوزَ بتسع وتسعين في المئة في انتخابات لم ينافس فيها غير نفسه.

أراد باسل أن ينفث غضبةُ في روح الرماد لكن الرماد البليد لا يشتعل حتى لو غزته كل أعاصير الكون! الرماد ما عاد يحوي غيرَ الرماد بعدما انسحبت روح الجمر منذ سنوات. نسيَ الجميع أحلام الثورة المجهضة فلم يسعَ أحد لجبر أجنحتها المتكسرة. فالخوف يرتع في جنبات الوطن وكل الرؤوس محنية لا همَّ لها إلا لقمةُ العيال، وإن غابت اللقمة فالصبر الجميل قادر على سد جوعة المستكين. الخدر يسري في الأوصال والنوم لا يترك قلامةَ ظفرٍ للصحو إلا قصّها ولا عينًا تبصر إلا فقأها، فصار الكل عميان. وحدهم الأطفال الذين رضعوا الحرية من صدر الثورة الطاهر يكبرون يوماً بعد يوم، لا يشعرُ بهم أحد ولا يدركُ أحد الحياة التي تنمو في قلوبهم، يكبرون كما يكبر نور الفجر ببطءٍ واثق حتى تبزُغَ الشمسُ في أفقِ الوجود فتصرعَ كل عتمات الليل وينهمر الضوءُ من عينِ الأمل فيقتلَ خِسّةَ اليأس. فمهما تكالبت الأيادي الآثِمة لا تستطيع أبداً أن تسحق حلم الصغار الذين يكبرون في رعاية القدر، ويتنفسون أحلام الحرية التي أبصروها يوماً في الميدان المسلسل بالقيود.

وضع باسل يافطة كبيرة على واجهة المتجر كتب عليها بخط يده (منذ متى كان للحملان صوت؟!). لم تمضِ ساعات حتى حضرت قوة من الشرطة لتجيب دعوته فاقتادته إلى اعتقالٍ ذاق فيه شهوراً من العذاب، قدموه بعدها لمحاكمةٍ قضت عليه بالسجن لأربع سنوات بين الوحدة والظلام، لا يرى فيها ابنه الذي يكبر بين جدته وأمه ولم يشاركه ضحكات الشباب، ولم يعرف قصته التي نسجها القدر بين

قلبه وقلب خديجة ابنة كمال ليصبحا قصة عشق بشّرت بها منيرةُ خديجةَ منذ أربعين سنة.

أربعُ سنوات أوشكت فيها الدورة الرئاسية الثانية على الانتهاء، وأصبح القائد المنقذ في مواجهة الدستور الذي وضعه بنفسه ولا يُجيز له الترشح لدورة ثالثة، ولو أرادَ لفعَلها، لكن (الإرادة) التي رفعته للعرش أدركت سرّ اللعبة الجديدة، فما أرادت أن تزعج الجماهير النائمة بضجة لا حاجة لها بها. كلما انتهى عرضٌ أقامت عرضاً جديداً بالطريقة نفسها فبطلٌ يحكم ثم يغادر العرش ليخلفه بطلٌ جديد والأساطير لا تنتهي من جعبة الإرادة أبدًا. ثمانية أعوام والعرش يسقي الناس خمراً جمعت كل الخمور القديمة وقدّم لهم كل ما في خزائنه من الكؤوس المُعدَّة: كأسُ "الخداع" يُمنّيهم بأنَّ أحلامًا أوشكت أن تتحقق وأنَّ حياةً ستبتسم، وكأسٌ مشرَعة "بالخوف"، فما عاد مسموحا بكلمة (لا) فلا يتردد في جنبات الوطن إلا رجيع الصمت وصدى الهمسات المرتعبة، والناس راضون بكل هذا وقد استكانت قلوبهم ورضَوا بقدرهم بعدما قُدِمت لهم كأس "الإيمان"، لأنَّ البديل أشد قتامة وأقسى ألماً فليس بديلاً للقهر إلا الفوضى والضياع، كيف لا وكل بلاد العرب التي ضجّت بالظلم حتى اقتلعته لم تَجْنِ من جرأتها إلا تمزُّقَ أوطانها إذًا فلتصبر مصر على قدَرها وترضى به حامدةً شاكرةً، قد هددوها بالموت فرضيت بالحمى، وغطى "الضباب" كل شيء، وحين ينزل الضباب لا تبصرُ جادة الطريق فتستوي الهاوية وطريق النجاة.

***

خرج باسل من السجن ليجد في استقباله أحب الناس إليه، زوجته إشراق التي لم يغير الزمان شيئاً من جمالها، وابنه نورالدين الذي أصبح شابًا مِلء العين وسيمًا كأبيه وفي عينيه أمانٌ وعلى وجهه بسمةٌ وادعة تشبه ابتسامة أمه، وقد حصل على البكالوريوس في العلوم السياسية، وبجواره تقف خديجة زوجة جده حسام وبجوارها ابنها كمال وابنته خديجة، تلك الجميلة المشرقة التي حصلت على البكالوريوس في الاقتصاد، لتشارك نورالدين شهادته كما شاركَته قلبه.

عادوا جميعا إلى شقتهم العتيقة ببولاق أبو العلا، فرحين بعودة الغائب، لكن الغائب نفسه يجلله الصمت والحزن. خرج من السجن رجلاً آخر، كأنها كانت أربعين سنةً وليس سنواتٍ أربع. خسر نصف وزنه واشتعل رأسه شيباً وغاب النور الذي كان يتوهج في عينيه فيشعل الحياةَ في كل ما ينظر إليه.

قضى ثلاثة أيام في المنزل لا يغادره، يستقبل المهنئين بعودة السجين، وكانت قبلته أول ما غادر البيت إلى شقة شمس، فقد كانت قضية عالقة حان له أن يصدر الحكم فيها.

لم تغب شمس عن باله أبداً بعدما زارته الأحلام العجيبة حولها في ليالٍ كثيرةٍ أظلمت فيها السماء، يراها تذبحه وتضع كأساً تحت عنقه المنحور ثم تشرب من دمه وتقهقه، وعندما يستيقظ فزِعًا من حلمه الرهيب يسأل نفسه: "تُراكِ ماذا تفعلين يا شمس وأي سهم لم يسكن صدري بعد؟ أطلقيه وامنحيني راحة اليأس العميق".

أذهلتها رؤية الحبيب واقفاً أمام باب شقتها. صرخت وشهقت في صدره وبكت طويلاً وضحكت وهي تضمه إليها وثرثرت لساعاتٍ طوالٍ تحكي له كل يوم مر في غيابه وهو صامتٌ لا يرد بنصف كلمة ينظر في ملامحها ويستنطقها عن سرٍّ تكلمت في كل شيء إلا عنه.

قص عليها رؤياه التي صاحبَته طوال سنوات سجنه. قال لها بصوتِ رجلٍ ما عاد يرغب في الحياة:

أخبرني كل شيء ولا تخدعي الأعمى، فلا تجمعي على قلبي ضربة الخيانة وعتمة الخداع. صدقيني أنا لم يعد يدهشني أي شيء وبات قلبي مستعداً لاستقبال بحورٍ من الغدر والخيانة، لقد خُنتِني يا شمس ورأيتُ خيانتكِ وأنا أرقد بين الظلام والقيود ولن يُريح تلك الروح إلا أن أسمعها من بين شفتيكِ.

طأطأت رأسها وسالت الدموع بغير نشيج:

- لا تعذبني وتعذب نفسك يكفينا ما كان يا حبيب الروح، دع الماضي في قبره، فنبشُ القبور كبيرة.

إذا خرجتُ من هنا دون أن تعترفي بما أخبرني به قلبي فلن تري وجهي أبداً. قسماً سأترك لكم تلك الحياة البغيضة والعالم الرديء.

فصكت وجهها:

لماذا تريد قتل كل شيء جميل! أنت لم تترك لي شيئاً واحداً! تركتني وارتميت في فراش عشيقاتك وأنا صامتة لا تمتد يدي لمنعك عما تحب، خنتني وعشقت غيري وتزوجتها هي وأنا التي لم تطالبك يوماً أن تعاملني كامرأة محترمة وتتزوجني حتى لا أهدم بيتك ولا أشدخ قلب زوجتك. تسرب عمري في انتظارك كل هذه السنوات حتى ضاع شبابي ولم أفكر بغيرك وتركتُ سعادتي حتى لا تقوم على أنقاض عالمك، فضّلتُ أن أكون عاهرتك حتى لا تخسر زوجتك وولدك ليس زهداً فيك لكن لأني أحبك وأحب كل من يحبك، فقدمت أسرتك على أمنيتي التي تمنيتها سنوات بأن أضع يدي في يدك وأسير معك أمام الناس ليقولوا هذه زوجة باسل التي أحبها، وفي الخاتمة أحببت أميمة وتزوجتها هي وكأني لا شيء! وكأني لم أكن عشقك وسرّك وسكَنك فهزمتَ كبريائي وحطمت قلبي وأنا أقول لنفسي دعيه مادامت ستسعده فهي الأجدر به. تزورني كلما ألقى بك شوقك لجسدي فلم تسألني مرة واحدةً عن أحلامي! كنتَ فقط تطارد تاريخي لتجعلني جاريةً وُلدت لأجلك تجدها عند الباب وقتما تقرر الطرق والآن جئت لتحاسبني؟! سنوات لم تقل لي كلمة حب واحدة حتى وأنت تسكن جسدي ويتصبب عرق صدرك فوق وجهي وأنت لاتزال مصرًا على الإخلاص لامرأة تركتك عند أول خطإٍ اكتشفَته وأنا الرخيصة الحقيرة التي غفرَت لك كل ما فعلتَ وكل ما ستفعل، لم تسألني كيف

كنت أحيا بدون حبيبي ولا كيف كانت غربتي بدونك ولكن جئت تسأل عن خيانة، هل هذا ما تريده يا باسل؟ فخذها إذن يا سرّ حياتي، نعم. أنا خنتك مع رجل لا أعرفه ولا يعرفني، خنتك كأرخص ساقطة عندما قابلته في المصعد ولوث ابنه سترتي التي أرتديها بقلمه فأصر أن يأخذها للمغسلة بنفسه، وجاءني بعدها بيومين ليقدمها لي، فأدخلته إلى بيتي الذي كان بيتك وحدك ولم يدخله أبداً رجل سواك بينما أدخلتَ أنت كل نساء الكون إلى قلبك وأبحتَ لهن ماهو حقٌّ لي وحدي، لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً بعدما دخل المطبخ خلفي وأنا أعد له قهوة الضيف، فوقف خلفي وقال لي: "رائحة جسدك شهية كقهوتك". لم أكن جائعة لرائحة رجل بل كنت جائعة لأن أذيقك الكأس المريرة التي سقيتني، ارتعش جسدي عندما لامسَتني أنفاسه وأنا من قلت له تعالَ لندخل إلى السرير، هل تريد أن تعرف كل شيء؟! حسنا لتعرف كل شيء! أصابني الخدر وهو يحرك أصابعه فوق ظهري ويعبث في شعري ويقبل صدري، أرخاني فارتخيت خلع عني ملابسي قطعةً قطعة فاستجبت اعتلاني فتأوهت غزا مكمني فشهقت سقاني بمائه فارتويت. لن أقول لك كنت أراك أنت من تضاجعني بل كنت أراك في الزاوية البعيدة تبصر كل شيء وأنا أقول لك "أنظر يا حبيبي جيدا. ذُق إنك أنت العزيز الكريم. أبصِر لون الألم وتذوَق مرارة الخيانة لتعرف ماذا فعلت بي وبكل امرأة أحبتك

فأذللتها وتركتها طعاماً لسعير الذكريات بعدما انتهيت منها فاليوم قد أصبح الصياد صيداً وارتد السهم في صدرك على يدي". أقسم أني لا أتذكر حتى وجهه، منحته نفسي مرةً واحدةً، لمرةٍ واحدة كنت أريد أن أصرخ في وجهك لمرةٍ واحدة أردت أن أصفعك! وقتلتُ نفسي بعدها ألف مرة، رغم كل شيء كنت ولم أزل أراكَ ذاك البهيّ، رغم كل خياناتك لم أرَك خائنًا! بل رأيتك عشقاً يسير على قدمين فأنت أحببتَ ثلاث نساء زوجتك وأميمة وأحببتني، ليس لأنَّ قلبك نَهِم كما يقولون عنك بل لأنه يفيض بالعشق، فهمتَنا جميعاً ولكننا لم نفهمك واكتمل حبك بثلاثتنا لكن عجزَت أي واحدة منا أن تمنحك الكمال وحدها. في أعمق نقطة من روحك كان يسكن جوهرك النقي وحبك الكريم لكني لم أعرف هذا كله إلا بعدما خنتك! ولم أُبصر حقيقتك إلا بعدما ذبحتُك بغدرتي! لقد كان حلمك حقاً فقد شربت دمك فأنار قلبي وأدركتُك بعدما سقطتُ من فردوسك، رأيتُ فيك ما لم أرَه قبلاً لا أنا ولا إشراق ولا أميمة لكن هل يجدي شيءٌ بعدما خذلتك؟ هل ينفعني النور بعدما أطفئتُ النور في عينيك؟! لن أقول لك اِغفر لي كما غفرتُ لك كثيراً لأني أعرف أنك أبداً لن تفعل، لن أقول لك اِمنحني فرصة واحدة للحياة لأني أعرف أنك ما عدت تملك الحياة لنفسك لتمنحها لغيرك. كل ما أرجوه أن تعود لبيتك فإشراق وحدها هي الأحق بكنزك. وحدها التي صبرت ولم

تنتقم أبدًا. أميمة انتقمت وابتعدت عنك وأنا انتقمت يوم خيانتي لك، والعشق المكتمل لا تلوثه نيران الانتقام أبدًا. وحدها إشراق التي اكتمل عشقها فأكمِل معها حياتك، وأنا سأظل أحرق نفسي كل ليلة لا لأطهرها فقط ولكن لأُرضي روحك المعذبة وأفتديها بعذابي.

استمع لكلماتها دون أن يهتز له جفن، استمع لها بروحٍ تعَاقَب عليها الموت حتى أفناها، فلم ينطق بكلمة واحدة. أراد أن ينهض فخانته قوته، لكنه استجمع ما بقي في جسده من وهن واتكأ على عصا الوجع ونهض دون أن يلتفت، وغادَر.

***

ظل باسل صامتاً. يحيا عزلته داخل البيت، ولا يقطعها عليه شيء إلا دخول جدته منيرة إليه، ينهض ويمسك بيدها حتى يجلسها بجواره فتنظر له طويلاً ولا تتكلم، كأنها تريد أن تشبع من وجه راحلٍ أوشك موعد سفره، لكنها هذه المرة لم تكتفِ بالنظر إلى حفيد الحبيب فقالت له:

أما آن لك أن تسقي شجرتك فإنَّ أوان الثمر قد جاء؟

مش فاهم قصدك إيه يا جدتي؟

فاكر زمان لما قلتلك إشراق مش هتحبل غير بالحب وحار الأطباء فيها؟

فضحك للمرة الأولى منذ أشهر وقال لها:

أيوة يا جدتي فاكر، لما قلتيلي لازم تشوف في عيونك نظرة الكلب..

دلوقتي أنا شايفة في عيونك النظرة دي، نظرة الحب الطيب لكنه مكسور، إنت بتحب مراتك لكن ذنوبك مخوفاك من التوبة لما بقيت حاسس إنك متستحقش المغفرة، وهو دة الهلاك، أوعى تيأس من نفسك أبدا يا باسل، ارجع لحياتك وعوّض مراتك في اللي باقي من عمرك.

أنا حاسس إني مش هعيش كتير يا جدتي، وسامع صوت الموت بيناديني.

- سيبه ينادي لحد مايبجي وقته، ولحد ماالوقت دة ييجي، قوم وصحّي الحياة جوالك!

كانت كلماتُ جدته كروحٍ سرَت في جسده الذي فقد الروح منذ سنوات، كان باسل يحمل قبسَ الحياة في جوهره ولا يحتاجُ جَمرُه إلا لنسمة أمل ليشتعل من جديد، فنهض كأنه ميت بعثه الرجاء من مقبرة اليأس وانتفضَ يقارع الحياة من جديد. عاد لمتجره يرعاه بنفسه، واستمع إلى ابنه الذي أخبره على استحياء بحبه لخديجة ابنة كمال وحبها له، فوعَده أن يفاتح أباها، و قال له: "إذا حبيت واحدة حتى لو كانت في آخر العالم يبقى لازم تحارب الكون كله عشانها يا نورالدين وتفضل ثابت لحد ماتضّمها لقلبك، إياك تخاف وإياك بعد ماتوصل تهرب أو بعد مابنيت تهد أو بعد ماحبيت تخون"، فرِح

نورالدين لكلمات أبيه الواثقة فلأول مرة يشعر أنَّ له ظهراً يحميه وأباً يرشده.

أراد باسل أن يسترجع كل ما فاته، فأصبح لأول مرة بحياته يحافظ على الصلاة، ويكثر من زيارة أخته التي تزوجت منذ سنوات بعيدة ولم يزُرها إلا مرات معدودات، أصبح يزور قبرَيْ أبيه وأمه التي ماتت أثناء محبسه، أراد أن يصل كل ما قطع ووسط كل هذا الزحام يقضي جل وقته مع إشراق حتى أنه صار لا يذهب لعمله إلا بصحبتها، ويجتهدان ليلاً في كتم ضحكاتهما العالية حتى لا ينتبه لصخبهما ابنهما الذي كبر جداً، يتسامران نصف الليل وقد عادت إليه روح الفرس فلا ينام إلا بعدما يسقيها ماء حبه. أصبحت إشراق تشعر ضمَّتهُ لها بغير شريكة، وغابت عن خيالاتها كل الآلام القديمة، وصفا لها حب زوجها، واستشعرت صدق تعلقه بها فقد أصبح يشاركها كل شيء حتى أنفاسه، ولم تعاتبه أبداً على ما كان منه ولم تعد ترى فيه إلا الحبيب الذي عاد لسكنه والطائر الذي سئم التحليق وكرِه الفراغ فسكنَ إلى عشه لا يغادر أليفه أبدًا فاسترجعَا من فم الحياة كل ما اختطفته منهما واستعادَا كل ما سرقته السنوات. تضرج وجهها بحمرة الحياة وانفتح قلبها لنطفة العشق الجميل فانفتح رحمها لنطفة الطفل الموعود، فحبلت رغماً عن الزمن. استدارت بطنها على دليل العشق الذي عاد يتنفس الحياة خجلةً من تندر ابنها منها وهي التي جاوزت الأربعين فكيف بها أن تحبل، وتبتسم لها منيرة بعيونٍ تعِد أنَّ زمن الأحزان أوشك أن يولّي وأنَّ زمن الأفراح أوشك أن يطرق الأبواب.

سأل نورالدين أباه لماذا يرفض جده حسام خطبته لخديجة رغم أنَّ أبويها وجدتها خديجة الكبيرة موافقون، ولماذا يستسلم العم

كمال لتعسف أبيه حسام المهترئ، وباسل صامتٌ لا يجد جواباً: "والله يا نورالدين مش عارف، طول عمري وانا حاسس إن جدك حسام بيكرهني معرفش ليه، وفاكر لما كان أبويا صالح الله يرحمه تيجي سيرة جدك حسام قدامه كان وشه بيتغير، ومرة سألته ليه مبيزرناش كان بيقلي معرفش، ويقلي أنه عمره مازار حتى أمه فردوس.. في شيء غريب حصل زمان ومحدش يعرفه غير جدتك منيرة لكن عمرها ماحكتلنا شيء"

وهناك خديجة تبكي أمام والدها وهي تذوب ألماً: "ليه يا بابا جدو حسام رافض خطوبتي من نورالدين؟ ليه قال هتبرى منكم كلكم لو جوزتوها للولد دة؟؟ إيه اللي عمله نورالدين وكل العيلة بتشهد بأخلاقه؟ أنا عمري ماحبيت ولا هحب غيره" وحال كمال لا يفترق شيئاً عن حال باسل، فكل الحفدة يجهلون تاريخ الأجداد..

عندما اتصلت خديجة الصغيرة بجدتها خديجة الكبيرة لتبكي لها وجع القلب، قالت لها:

في حاجات كتير مش هقدر أفهمهالك ياعيون جدتك.. إنتي بتحبي نورالدين يا خديجة مش كدة؟

أيوة يا تيتة، وعمري ماحبيت غيره..

يبقى إوعي تتنازلي عن حبك وتخذليه. وكل اللي هقدر أنصحك بيه روحي البيت عند نورالدين واحكي لجدتك منيرة كل اللي جوة قلبك واسمعي منها ولو نصحتك بشيء

اعمليه، منيرة هي أكتر واحدة عارفة الحقايق وهي أكتر واحدة بتشوف الطريق..

اتفق الحبيبان على التكلم مع الجدة الكبرى التي أجمع الكلُ أنَّ لديها وحدها كلَّ الحقيقة، وأنه لا يعرف الداء والدواء سواها.

ذهبت خديجة إلى بيت حبيبها، واستأذن نورالدين أباه أن يكلمها في الأمر فقال له "هي جدتك فحدثها بنفسك". فخرج نورالدين إلى جدته الوقور واقترب منها فقبّل يدها ومثله فعلت خديجة..

- يا جدتي كل العيلة موافقة على جوازنا أنا وخديجة ماعدا جدي حسام والكل مش عارف ليه، وبيقولوا إنك إنتي بس اللي عارفة السبب..

- عشان لسة القمر مكملش ولسة كاس الحزن فاضل فيه آخر قطرة وبعدها هيكون الضيّ اللي متغلبوش عتمة والفرح اللي ميغلبوش حزن..

يعني إيه يا جدتي؟ أرجوكي بلاش الكلام اللي مبنفهموش!

نظرت منيرة في وجهيهما وتبسمت:

إنتم الوعد ياحبايبي.. وإنتم الجسر اللي هيوصل الحياة بالحياة.. وإنتم الصلا اللي هتغفر الماضي.. تعالوا معايا جوة في أوضتي هفهمكم كل شيء..

اتكأت منيرة على يد خديجة وكتف نورالدين، واختلت بهما، وأمرت نورالدين بإغلاق الباب:

- اللي هقولهلكم دلوقتي محدش يعرفه قبلكم. لا أبوك يا نورالدين ولا حتى جدك صالح الله يرحمه، وميعرفوش أبوكي كمال يا خديجة وحتى جدتك خديجة متعرفش منه غير القليل، أنا بس اللي أعرف الحكاية من وقت ماقابيل لبس كفن أخوه هابيل وبإيده كسر راسه. هقول لكم الحكاية اللي كنت الشاهد فيها من أولها لآخرها لحد ماالقلب شققته الأحزان ولولا الأمل اللي كنت مستنياه طول عمري مكنتش استحملت الحياة.. هقول لكم دلوقتي لأني كنت مستنياكم طول عمري والسر اللي عندي مكنش ممكن يعرفه غيركم..

وقصت عليهما كل شيء حتى كادت أرواحهما أن تنخلع أمام الحكاية الرهيبة التي احتملتها تلك العجوز عبر السنوات الطوال ولم يحتمل الصغيران مجرد سماعها.

خرجَا من الغرفة بعد ساعات طوال وكأنَّ قصة الأحزان قد زادت من أعمارهما ألف عام، خرجَا كأنهما عجوز وشيخ ضربتهما يد السنوات لكنهما أبداً لم يبوحَا لأي أحد بما سمِعا، وقد عرَفا أنَّ أوان الفرح لم يَجِن فقد بقيت ورقة لم تسقط بعد من شجرة الأحزان وبعدها ستهب نسائم الحياة وستثمر الأفراح في ذاك البيت الذي سكنه الحزن على الدوام.

***

انتهت الفترة الرئاسية الثانية ولم يستطع الرئيس مخالفة الدستور الذي كانت أهم مواده ألاّ تزيد المدة الرئاسية عن فترتين، وبعدما أصبحت البندقية تسكن العرش بغير ستار لم يعد مسموحاً إلا بنزول عسكريّ وصعود عسكريّ آخر فكان ترشح نائب الرئيس الذي كان قائدًا للقوات الجوية هو البديل، وخرج الإعلام الجديد يردد أنشودة الإعلام القديم ويهلل للمنقذ القادم فالأمّة في حالة غرقٍ أبدي لا ينتهي، وكل حاكم هو المنقذ لها، ولو أفلت يده لغرق الجميع في لجة المياه.. المائدة معدّة والسجادة الحمراء تنتظر خطوات القادم نحو العرش وفوق كتفيه النسر والسيفان، والقوم لا يعرفون إلا النياشين المجيدة وكلما سقط جنرال قام جنرال آخر..

هكذا ظن الجميع، وهكذا خاب ظن الجميع.. فالأطفال قد كبروا والذين كانوا في العاشرة يشاهدون ميدان التحرير صاروا شباباً ووحدهم لم يذوقوا خمر الخداع والخوف ولا خمر الإيمان الكاذب ولم يعرفوا سَكرة الضباب. ذهب الغافلون العجائز إلى قبورهم وجاء موعد الجيل الجديد الذي تربى على صيحة الثورة الأولى وأدرك جلال الحلم المهيب فما عادت كل الخمور قادرةً على إخضاعه، فالخمر ما عادت تسكرُ أحدًا. نهض أطفال الأمس إلى القِنان فحطموها وإلى الخمر المعتقة فأهرقوها، فتحتَ الرماد لازالت الجمرات تتوالد، وكلما سقط صوتٌ للحق خلَفه صوتٌ آخر وأحلام الحرية تنتشر ببطء كضوء الفجر الذي يبدد سطوة الظلام..

قامت الانتخابات للمرشح الأوحد ليحصد الأصوات في أمّة نُزعت حناجرها منذ زمن والحزن يأكل الثائرين القدامى، لكن الثورة التي هزت الكون منذ عشر سنوات قد كبر أشبالها وصاروا شباباً لم

تستطع كل آلات الزيف أن تزيف وعيه ولم تستطع كل قناني الخمر أن تُذهب عقله، ومعظم النار من مستصغر الشرر فانطلقت الشرارة التي لم تنطفِئْ بعدها أبداً.. خرجت أفواجٌ من الشباب يستعيدون روح الثورة القديمة رافضين الحاكم الذي يُحكِم قبضته عليهم حتى يخنق أحلامهم.. كانت المظاهرات قليلة في بادئ الأمر لكنها كانت تتنامى يوماً بعد يوم حتى استشعر النظام الخطر وأراد انتظام القطيع مرة أخرى وصمته، ولم يكن هناك خيرٌ ممن يقوم بهذه المهمة القذرة أفضل من رفيق النظام القديم الذي يلجأ إليه فيخرجُه من سجنه كلما سمع أصواتًا تتعالى في الأرجاء. علِم الجميع بصفقة النظام الجديد مع الإخوان الذين قبعوا في السجون ثمانِ سنوات فكانت الصفقة القديمة ذاتها بأن تخرج كل القيادات من السجون ويُسمح لهم باستعادة حزبهم شريطة أن يقضُوا على الشعاع الذي عاد يومض من جديد وبأن يضعوا حبة الإيمان في كأس الرؤوس مرة أخرى لتعاود النوم الطويل ليسبّح الجميع بحمد رب العرش الجديد، فرَضَوْا بالصفقة، وفاوضوا على دماء شبابهم التي تسيل منذ سنوات في كل أرض مصر، فكانت صفقتهم هي الصاعقة التي فتحت العيون التي طال عماها وأنارت العقول التي رقدت في مزابل الظلام طويلاً فخرج شباب الإخوان عن الجماعة أفواجًا وكفروا بمرشدهم الذي أضلّهم طويلاً وانسحبوا إلى غير رجعة، وكان في استقالة "أحمد" من الجماعة شعارًا لهم ودليلاً، لا سيما أنه أحد كبار قادتهم، فعلِموا أنهم على الصواب وانضموا إلى زُمر الشباب الذين تعالت صيحاتهم في كل مكان مُستعِيدين الشعار القديم ذاته: "عيش. حرية. كرامة إنسانية" وسال النهرُ من جديد مزمجرًا وتفجرت الحياة في أمّة القبور فانتشر الثائرون كأنهم السيل المنهمر لا يُعرف أوّلُهم من آخرهم، وانطلقت بنادق

الشرطة تفعل ما تتقن فعله دائماً لكن انهزم الرصاص أمام إرادة الحياة.

ووسط الجموع خرج بطلٌ قديم، وواحدٌ ممن حملوا الأمل يومًا فأزهقته الخيانات من القريب والبعيد، خرج باسل وبجواره ابنه نورالدين يتقدمون صفوف الثابتين ويواجهون النار بالصدور العارية والثبات ويواجهون الرصاص بالأيدي المسالمة وبالعزائم التي لا تلين.. استقرت طلقة في صدر باسل ذاك الصدر الذي فار بالعشق عمرًا، وفار بالثورة حلمًا، وفار بالأحلام سنوات، واليوم يفور بالدماء ليغسل كل الخطايا ويستغفر بدمه عن كل ما كان.. حمله ابنه إلى البيت فكل المشافي غير آمنة بينما استمرت الجموع تعزف أنشودة الحلم الأخير.. أربعون يوما والأمل يلد الحياة.. أربعون يوما والموت غير قادر على هزيمة الرجاء.. حتى أدرك قادة الجنود أنَّ الأسود قد زأرت وأنَّ "السِيرك" قد اِنهدم وأنَّ الحارس الهادئ الواقف دومًا بجوار القفص ما عاد يمتلك الزمام وأنَّ زناده ضعيف إذا قررت أمَةٌ إرادةَ الحياة.. وأخيراً أعلن الجيش ولاءه للثورة فعزل الجنرال الجديد، وتقدم قادة الثورة الشباب ليضعوا النظام الجديد، فكان مجلسًا رئاسيًا اختارَ الثوار قادته الثلاث وسقطت إرادة السلاح، وغادرَت البندقية وجه العرش إلى الأبد.

أبصر الجنرال القديم نهاية الأسطورة وسقوط (الإرادة) التي قَتل في سبيلها أخاه وتهاوت كل الأركان من حوله وتزاحمت الخطايا التي لم تَمُتْ أبدًا حول قلبه تَجلِده جَلد العقاب لا التطهير، فانهزمت روحه كما كانت تنهزم على الدوام. دلف إلى حجرته وأخرج بدلته العسكرية وارتدى زيه القديم وأخرج سلاحه ووضع الفوهة في فمه،

وقال: "الآن فقط أنت تنتصر يا نورالدين". وأطلق الرصاصة ليعلن عن موت إرادة البطش إلى الأبد. مات حسام.

لم تمضِ أيام حتى لحق به باسل، لكنه لم يمت إلا بعدما رأى الحلم بعينيه وأبصر النور الذي سعى له طويلاً.. لم يكن يسمع همسات ابنه نورالدين وهو يلقّنه الشهادة ولم يصل إلى أذنيه نشيج حبيبته إشراق، إنما تجلى له وجه جدته منيرة يوم نهضت من سريرها وأيقظته وهي تتلو عليه نبوءتها الأخيرة منذ عشرين سنة وهاهي تتحقق على سرير الموت، فنسل الدماء غطّته الدماء! ثم سافرت روحه عشر سنوات إلى الوراء يبصر الجسر المنصوب على ظهر النهر القديم وفوقه جموع الغاضبين يوم الغضب الأعظم وهم يرددون "الشعب يريد إسقاط النظام" والآن فقط قد سقط النظام فجاءت الأحلام متأخرة جدًا لكنها لم تخن عهدها وجاءت في الخاتمة. تبسم لوجه إشراق الباكي وسرَت عزيمةُ ابنه البار في جسده وهو يمسك بيديه وتحركت شفاهه فسمعوه وهو يردد: "استغفر الله العظيم" ثم أَسلم روحه لله وهو يبتسم، ومنيرة ثابتة تبصر الفصل الأخير والورقة الأخيرة تسقط تحت خريف الآلام. أمرتهم بالخروج فاستجابوا للعجوز المهابة، وضعت كفها الذي برزت عروقه وارتعشت أطرافه فوق جبين باسل لتلقّن الموت رسالتها القديمة لتخبره أنَّ زمن الأحزان قد ولّى وحان للفرح أن يزهر فأرخت كفها فوق وجهه وتلت ترنيمتها: "كل ابن قتيلٍ قتيل، من أنسلَته الدماء غطّته الدماء، تباعدت السنوات حتى اقتربت، وغاب القمرُ في السماء حتى عاد بدر الضياء، كل قلبٍ صادقٍ تألم وكل صوتٍ صارخٍ سكت، وبلغ الظلم مداه حتى اكتمل، وحان للمغدور أن ينالَ ثأره وحان للظالم أن يبلغ عقابه، اشتدت العتمة حتى بزغ الفجر فانهزم الظلام.. سلامًا يا آخر الأحزان، سلامًا يا جسر

الحياة. اِذهب إلى جدك يا ولدي فأبلغه سلامي وبشّره أنَّ الشجرة أثمرت وأنَّ الحطّاب قد كُسرت منجلته وأنَّ الطيور ما عادت تخاف".

***

مرّ عام بعد الثورة وقد عادت الأمواج إلى بحرها بعدما غسلَت كل الشطآن وتوقف الطوفان عن الفيض ورَست السفين واستوت على الجوديّ وقيل "الحمد لله رب العالمين". وتفتحت بسمة الأزهار وشدَت عنادل الحرية فوق الأغصان وأمن الخائف على نفسه وتصالح الفرقاء وكفّرت الدماء عن كل الخطايا.. انتهى المجلس الرئاسي المؤقت وأصبح للدولة رئيس بغير سيوفٍ ولا نسور، اختارته أمّته من وسط سبعة تقدموا للقيادة، ووقف قائد الجيش يؤدي التحية العسكرية لقائد الأمّة وقد أصبح لمصر جيش يحرس وليس جيشاً يحكم..

اجتمعت الأسرة المجيدة في البيت القديم لعقد الخطبة بين الأحفاد الطيبين، تبسمت خديجة لمنيرة وهي تقول لها: "الآن فقط تحققت بشارتُك يا منيرة، تلك التي بشرتني بها منذ أكثر من أربعين سنة بأنَّ الأخ سيحتضن أخاه، فزواج نورالدين بخديجة هو الدواء لكل الجراح القديمة وخاتمةُ الغفران للقصة الأليمة". ابتسمت لها منيرة ولم ترد وتحاملت على عصاها فباركت العروسين المفعمان بالحب ثم مسحت على رأس إشراق وقبّلَت طفلتها التي وضعَتها منذ أشهر وسمّتها (منيرة) ثم دخلت لغرفتها لتنام لكنها لم تنم ساعة واحدة. تستعيد كل الذكريات منذ زارتها الرؤيا العجيبة في الليلة التي بلغت فيها المحيض منذ سبعين سنة لتخبرها بأنها عينُ الحق ونورُ الطريق، وتجلّى لها وجه أبيها (بشير) الرحيم وهو يمسك بيد أخيها (نورالدين) وهما يبتسمان لها ثم بدا لها وجه (فردوس) و(صالح) قد عاد طفلاً في حجرها تهدهده وهو يشير لها.. ساعاتٌ مرّت عليها تتوافد فيها الذكريات حتى

سمعَت أذان الفجر فأغمضت عينيها ونهضت عن سريرها وجلست على الأرض وسجدت فسالت الدموع الغزار التي لم تسل منذ سبعين سنة حتى بللت وجه الأرض وشهقت: "يا ربي تعبت وطال الحمل الثقيل. بلّغتُ الأمانة إلى أصحابها وعبَرتُ وادي الحزن ولم أَجزع حتى أثمرَت الشجرة وتمَّ الوعد فأرح قلبي واحملني إلى أحبابي"

دخل نورالدين في الصباح حاملاً التمر إلى جدته فوجدها ساجدة على الأرض لا تتردد الأنفاس في جسدها. هزها فما اهتزت. رفع رأسها عن الأرض فسقطت في حجره. فبكاها كما لم يبكِ أباه، واجتمعت الأسرة حول جذع شجرتهم يبكون.

غسّلتها خديجة الكبيرة وصلّى عليها في المسجد نورالدين وحمل نعشها مع كمال وأحمد. وعند القبر الذي يحوي أجساد كل من رحلوا وقف نورالدين وحبيبته خديجة اللّذان يعرفان السرّ وحدهما فقال نورالدين لأحمد: "يا حاج أحمد جدتي رحمها الله أوصتني قبل موتها بأن تكون أنت من تحملها إلى قبرها كما وعدَتك" استغرب أحمد كلماته فأراحه نورالدين وهو يهمس في أذنه: "عندما أردتَ خطبتها منذ ستين سنة أو أكثر فرفَضَت الخطبة وأرسلَت لك رسالة مع جدي الأكبر نورالدين أنك لن تحملها إلى بيتك ولكن ستحملها إلى بيته. وها نحن أمام قبره فأدخِلها إلى بيت أخيها". بكى أحمد وانحنى فوق كفنها تبلله دموع الحب القديم: "كنتِ وحدك تبصرين كل شيء يا منيرة".

انغلق القبر على الماضي الأليم وأسلموا الجراح إلى الجراح لتواسيها في عالم الظلام، وشيعوهم جميعًا بالدعاء أن يرحم الله تلك القلوب التي تألمت كثيرًا. ومضى كلٌ إلى سبيله.

أمسك نورالدين بيد خديجة يبتسمان رغم الدموع لتزهر الحياة الموعودة..

تمت بحمد الله

القاهرة 10-10-2014

شكـــــــــر

بعد الله رب العالمين..

لك يا "جهان" يا زوجتي الحبيبة كل الشكر والفضل في خروج هذه الرواية التي ظلت معطلة ثلاث سنوات حتى دفعتني بكلماتك الصادقة وحماس قلبكِ على كتابتها، وكنتِ معها حرفًا حرفًا، تتابعين نمو شجرتها وتصبرين على شرودي وكثرة غيابي وتدعمينني حتى خرجت الرواية للنور فلكِ كل حبي وامتناني أم حمزة.

وأشكر الصديقة الشقيقة "حنان ميلاد" ابنة تونس، التي كانت معي في مراجعتها كاملةً ولولا ملاحظاتها النيرة وآرائها السديدة لما كانت على ما هي عليه، فكانت آراؤك ياحنان منارةً يهتدي بها قلمي في لجة المداد والسطور..

وأشكر أخي وصديقي الغالي الروائي "محمد الشاذلي " الذي كان دوما يشجعني ويثق بقلمي وكم أفادتني رؤاه ومناقشاتنا في صياغة هذه الرواية..

وأشكر كل قارئ كريم صافحت عيونه كلماتي لعل رسالة الحرية والأمل تبلغ كل قلبٍ حيّ..

الكاتب فى سطور

محمد الجيزاوي، من مواليد 1978. حصل على الليسانس فى الفلسفة جامعة القاهرة عام 2001.

صدرت له روايتان: " المخلصون يرحلون غالبًا" و "سر العابر".

"يرى وجهها العجوز وهي تمسح على وجهه وتخبره بالمصير.. تحكي له حكاية الشجرة التي ترفض السقوط فتتهاوى عليها كل المناجل لتقطع جذعها الصلب لأنّ جذورها لازالت ترفض أن تشرب الخمر، الأشجار وحدها لا تشرب الخمور فلا تغيبُ أبداً ذاكرة الأغصان وتبقى وفية على عهد الجذور القديمة التي سافرت في الأرض البعيدة وظلت يقظة حين أصاب السكر الجميع فرقصوا عرايا يقودهم الدجال وهم سكارى ووحدها شجرته ظلت باسقة تمضغ الصبر، لتحكي له جدته ملاحم الشجر العتيق وتقص عليه الحكاية القديمة.."

غلاف: مي بشري

ليان للنشر والتوزيع